

مكتبة الجايحظ
إلى عثمان عسرو بن بمر الجايحظ
٢٥٥ - ١٥٠

بنجمن و كسج
عبد السلام محمد هارون

رسائل الجايحظ

الجزء الأول

- | | |
|-----------------------------|----------------------------------|
| ١ - منافع الترك | ٦ - في نفي النشيب |
| ٢ - المعاش والعاد | ٧ - في كتاب القنبا |
| ٣ - كتمان السر وحفظ اللسان | ٨ - إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب |
| ٤ - نثر السودان على البيضاء | ٩ - فصل ما بين المداوة والحمد |
| ٥ - في الجلد والمزق | ١٠ - صناعات القواد |

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

كتبتَ إلیَّ - حفظك الله - أن أسمى سعيًا حثيثًا في إظهار ما بقي من آثار شيخنا الجاحظ ، وزعمتَ أنني شغلت عنه بغيره . وكدت أن تلومني لما فرطت في جنب أبي عثمان فيما رأيت .

وإخالك عرفتَ بعض الحق ولم تظهر عليه كله ؛ فإن الحق يبدو أحيانًا في بعض الأمر أبلغ واضحًا ، وفي بعض الأمر يخفى وجهه حينًا فما تكاد تتبينه إلا بعد التعرف والتصفح . فإني لم أفارق آثار أبي عثمان منذ شذوت ، ولا تزال لك من همي ووكدى ، ما بين قراءة فيها وتنقيح ، وتجليه وتصحيح ، حتى أجمع منها بين الناس ما يستطيعه الجهد ، ويسمح به الزمان .

وقد بعثتُ له من قبل كتبًا ثلاثة ضخامًا ، بذلت فيها عصارة النفس وماء الشهاب ، وكان ذلك لنفسي صنيعةً أعتز به وتشمانى به الغبطة ، لما علمت أن المسلمين من الأدباء قد تلقوه بترحيب صادق ، وتقدير كريم .

وما كان بي - أيدك الله - إلا أن أعدَّ أصول ما بقي من آثار الجاحظ وأروزها ، وأنظر للصورة التي ينبغي أن تبدو فيها . فوجدتني بين خليط من المملونات والمطبوعات ، ووجدت فيما وجدت مجموعة رسائل الجاحظ المحفوظة مكتوبة « دأمد إبراهيم » ، غنية بآثار للجاحظ ، بعضها لم تظهر بعد عليه عيون مطبعي الأدباء .

فرأيت أن أقوم بنشر هذه المجموعة كاملة في مجلدين مستقلين لها فهارسهما الفنية الخاصة ، ريثما تتاح لي الفرصة أن أكمل جمع سائر الرسائل المفرقة التي لم تحوها هذه المجموعة ، ومنها مختارات عبيد الله بن حسان ، التي كان لها فضل في تحقيق كثير من نصوص مجموعة داماد ، ومنها رسائل مضمنة بطون الكتب ، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وطرار المجالس للشهاب الخفاجي ، وجمع الجواهر للحصري ، وغير ذلك من كبير الكتب وصغيرها .

مجموعة داماد

وهي نسخة الأصل

كان من المهام الجليلة التي اضطلع بها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أتاح الفرصة للباحثين في الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة في المكتبات العامة ، ومنها مكتبات تركيا ، التي حوت مقداراً ضخماً من أنفس الكتب العربية .

وكان مما أسعدني أن أعثر على هذه المجموعة الجليلة القدر التي صورها معهد المخطوطات بعناية الأخ رشاد عبد المطلب من مكتبة (داماد إبراهيم ^(١)) بتركيا . ورقمها في مكتبة داماد هو ٩٤٩ ، وفي معهد المخطوطات ف ٩٤٣ من ١٨٥ .

ويحمل صدر هذه النسخة رسم خاتمين :

الخاتم الأعلى كبير ، وقراءته :

(١) الداماد في اللغة التركية : زوج البنت ، كما يقال لزوج الأخت « أنشته » .

« هذا مما وقفه صاحب الخير والحسنات ، الصدر الأعظم
والصهر الأنعم إبراهيم باشا يسر الله له بالخير ما يشاء وزيراً لحضرت السلطان
الغازي أحمد خان خلعت خلافته إلى انقراض الدورات » .

والخاتم الأسفل صغير ، وقراءته :

« بونسخة وقفندر داماد إبراهيم باشانك » .

وتفسيره : هذه النسخة من وقف داماد إبراهيم باشا .

وليس لهذه النسخة تاريخ ، وإن كان المرجح أن خطها من خطوط القرن
السادس ، كتبت بالخط النسخي المشرب ببعض قواعد الخط الفارسي ، كما يتضح
ذلك في رسم بعض صنوف الهاء ، وصنوف السين ، وصنوف اللام ، مع إغفال
لبعض النقاط ، ومع ضبط قليل ذاهب في الندرة .

وهي في ٢٣٩ ورقة، منها ١٩ ورقة مفقودة في أولها . وبالصفحة ٢٢ سطرًا ،
في كل سطر نحو ١١ كلمة .

ويبتدئ ترقيم أوراقها بالورقة ٢٠ . وهذا يفسر ما صنعتته من بدء ترقيم
نسختي هذه برقم (٢٠ ظ) الذي أثبتته في ص ٥ من هذا المجلد تعبيراً عن أرقام
الأصل التي حرصت على إثباتها في جنبات هذه النشرة . وقد أشرت إلى ذلك
في مقدمة الرسالة الأولى في ص ٣ .

وربما كانت الرسالة المفقودة التي كانت في صدر المجموعة هي « كتاب
حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم » التي يميز وجود أصل لها . وذلك
أن داود الجلي في كتابه (مخطوطات الموصل ص ٢٦٤) ذكر مجموعة من
رسائل للجاحظ كانت محفوظة في مكتبة أمين بن أيوب الجليلى تطابق

في عنوانات رسائلها مجموعة داماد وتزيد عليها في أولها « حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم ». ومن المؤسف أن مجموعة أمين الجليلي قد فقدت بعد وفاته ، كما ورد في مقدمة مجموع رسائل الجاحظ لسكراوس والحاجري ص (و) .
ويبدو كذلك أنه قد تجهل قديماً هذا النقص ، وابتدأ المجلد برسالة فضائل الأتراك ، وترقيمها في النسخة (٢٠ و) أي وجه الورقة ٢٠ ، وجعل عنوانها وجهاً للمجلد ، وسردت تحت هذا العنوان محتويات المجلد بخط مخالف على الوضع التالي . وقد أثبتنا هنا بلفظها ، والترقيم لى :

- ١ — كتاب فضائل الأتراك^(١) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
- ٢ — رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الحمودة .
- ٣ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان .
- ٤ — رسالة المعاش والمعاد في الأدب .
- ٥ — كتاب نحر السودان على البيضان .
- ٦ — رسالة في الجد والهزل .
- ٧ — رسالة في نفي التشبيه .
- ٨ — رسالة في معنى كتابه في الفتيا .
- ٩ — رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب تصنيف أبي عثمان .
- ١٠ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .
- ١١ — رسالة في ذم القواد .

(١) ذكر بروكلمان في كتابه ٣ : ١١٥ من الترجمة العربية أنها ترجمت إلى التركية .

١٢ — رسالة في النابتة إلى أبي الوليد .

١٣ — كتاب الحجاب .

١٤ — كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان .

١٥ — كتاب القيان .

١٦ — كتاب ذم أخلاق الكتّاب .

١٧ — كتاب البغال

١٨ — كتاب الحنين إلى الأوطان .

وظاهر هذا الفهرست أن بالمجموعة ١٨ رسالة وكتاباً . ولكن عند التحقيق ظهر لى أن عددها ١٧ لا ١٨ ؛ لأن الرسالة الثانية ، وهى رسالة « الأخلاق الحمودة والمذمومة » هى بعينها الرسالة الرابعة « رسالة المعاد والمعاش فى الأدب » أو بعبارة أدق : نسخة أخرى منها . وقد رجّحت لها التسمية الأخيرة الواردة فى النسخة الثانية ، أى « رسالة المعاد والمعاش » وبينت ذلك فى مقدمتها ص ٩٠ .

وعلى ذلك صارت الرسالة الخامسة فى هذا الفهرست تحمل رقم ٤ والسادسة فيه تحمل رقم ٥ ، ويتناقص الترقيم حتى يصير آخر الرسائل برقم ١٧ .

وقد قدّمت لكل رسالة أو كتاب من هذه المجموعة بمقدمة أوضحت فيها تاريخ نشرها إن كانت قد نشرت من قبل ، أو نبّهت على أنها تنشر للمرة الأولى .

وستظهر هذه المجموعة ، فى جزأين ، يلحق بالثانى منهما (الفهارس الفنية) لها معاً . إن شاء الله تعالى .

المجموعات التي نشرت من قبل

واستكمالاً لدراسة تاريخ نشر رسائل الجاحظ أشير هنا إلى مجموعات من رسائل نشرت من قبل ، وبعضها يتضمن شيئاً مما في هذه المجموعة ، أعني مجموعة داماد .

أولاً :

مجموعة فان فلوتن . وعنوانها (ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري) . طبعت بمطبعة بريل بمدينة ليدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م . وتشمل :

١ — رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جنود الخلافة

ص ١ — ٥٦

٢ — كتاب نحر السودان على البيضان

ص ٥٧ — ٨٥

٣ — كتاب التربيع والتدوير

ص ٨٦ — ١٥٦

وقد قام بإكمال العمل في هذه المجموعة وتنقيحها ونشرها المستشرق

دي جويه : M. J. de Goeje

ثانياً :

مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبید الله بن حسان . طبعت على هامش كامل المبرد سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ في جزأين :

١ — من كتابه في الحاسد والمحسود

٢ : ١

٢ — من كتابه في المعلمين

١٧ : ١

٣ — من رسالته إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وأصحابه

٩٧ : ١

٤ — من كتابه في طبقات المغنين

١٢٠ : ١

٥ — من كتابه في النساء

١٣٠ : ١

- ٦ — من رسالته إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك ١ : ١٦٦
 - ٧ — من كتابه في حجج النبوة ١ : ٢٧٥ إلى ٢ : ١١٧
 - ٨ — من كتابه في خلق القرآن ٢ : ١١٧
 - ٩ — من كتابه في الرد على النصارى ٢ : ١٤٨
 - ١٠ — رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلاعة ٢ : ١٩٩
 - ١١ — من كتابه في استحقاق الإمامة^(١) ٢ : ٢١٢
 - ١٢ — من رسالته في استنجاز الوعد ٢ : ٢٢٠
 - ١٣ — من رسالته في تفضيل النطق على الصمت ٢ : ٢٢٧
 - ١٤ — من كتابه في صناعة الكلام ٢ : ٢٣٨
 - ١٥ — من رسالته في مدح التجارة وذم عمل السلطان ٢ : ٢٤٦
 - ١٦ — صفات الشارب والمشروب ٢ : ٢٥١
 - ١٧ — من رسالته في استحقاق الإمامة ٢ : ٢٦٩
 - ١٨ — من مقالة الزيدية والرافضة ٢ : ٢٩١
- وهذه النسخة ينقصها كثير مما في النسخة التيمورية ، ونسخة المتحف البريطاني ، فهي مجموعة من الاختيار مبتورة .

ثانياً :

مجموعة محمد ساسي ، وعنوانها (مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ) . طبع في مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ .

وقد أعاد فيها ما طبع في مجموعة فان قنوتن ، وضم إليها ثمانى رسائل أخرى فصارت كلها على الوضع التالي :

(١) كذا . ويبدو أنه كتاب آخر .

- ١ — رسالة في الحاسد والمحسود
- ٢ — رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ٢ — ٥٣
- ٣ — كتاب نحر السودان على البيضان ص ٥٤ — ٨١
- ٤ — كتاب الترييع والتدوير ص ٨٢ — ١٤٧
- ٥ — في تفضيل النطق على الصمت ص ١٤٨ — ١٥٤
- ٦ — في مدح التجار وذم عمل السلطان ص ١٥٥ — ١٦٠
- ٧ — في العشق والنساء ص ١٦١ — ١٦٩
- ٩ — في استنجاز الوعد ص ١٧٣ — ١٧٧
- ١٠ — في بيان مذهب الشيعة ص ١٧٨ — ١٨٥
- ١١ — في طبقات المغنين ص ١٨٦ — ١٨٩

رابعاً :

مجموعة يُوشع فينكل : J. Finckel

وعنوانها : (ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)
وهو موافق لعنوان مجموعة فان فلوطن . طبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ
وقد جعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء ، التي كان يصدرها الأستاذ
محب الدين الخطيب ، إلى قرائها في سنتها الثانية . وتشمل هذه المجموعة ثلاث
رسائل :

- ١ — المختار من كتاب الرد على النصارى^(٢) من ص ٩ — ٣٨
- ٢ — ذم أخلاق الكتاب من ص ٣٩ — ١٥
- ٣ — رسالة القيان من ص ٥٢ — ٧٥

(١) هكذا بأرقام صفحات مستقلة .

(٢) وهي من اختيارات عبيد الله بن حسان .

والرسالتان الأخيرتان منشورتان عن أصل بمكتبة نور الدين مصطفى
برقم ١٠٠ وهو أصل يعد الآن مفقوداً .

خامساً :

مجموعة ريشر : Rescher نشرت في مدينة شتوتجارت سنة ١٩٣١
وهي مقتطفات وترجمات من آثار الجاحظ إلى جانب نصوص أصيلة أخرى له
لم تنشر من قبل ، كما ذكر بروكلمان ٣ : ١١٠ من الترجمة العربية .
ولم يتيسر لي الوقوف عليها لأنى لم أعثر عليها في المكتبات العامة بمصر ،
وقد أمكننى أن أتعقب ترتيبها وجمعها من مواضع متفرقة متشعبة من كتاب
بروكلمان على الوضع التالى :

- | | |
|------------------------------------|-------------|
| ١ — دراسة لمحتويات البيان والتبيين | ص ٢٢ — ٤٠ |
| ٢ — الرد على النصارى | ص ٤٠ — ٦٧ |
| ٣ — ذم أخلاق الكتاب | ص ٦٧ — ٧٨ |
| ٤ — رسالة القيان | ص ٧٨ — ١٠٠ |
| ٥ — رسالة فى المعلمين | ص ١٠١ — ١٠٨ |
| ٦ — فى ذم اللواط | ص ١٠٨ |
| ٧ — فى مدح النبىذ وصفة أصحابه | ص ١١١ |
| ٨ — حجج النبوة | ص ١١٢ — ١٥٩ |
| ٩ — صناعة الكلام | ص ١٥٩ — ١٦٣ |
| ١٠ — الشارب والمشروب | ص ١٦٣ — ١٦٨ |
| ١١ — استحقاق الإمامة | ص ١٦٨ — ١٧٩ |
| ١٢ — الحاسد والمحسود | ص ١٨٠ — ١٨٢ |
| ١٣ — تفضيل النطق على الصمت | ص ١٨٢ — ١٨٦ |

ص ١٨٦ — ١٨٨	١٤ — مدح التجارة وذم عمل السلطان
ص ١٨٨ — ١٩٤	١٥ — العشق والنساء
ص ١٩٤ — ١٩٥	١٦ — الوكلاء
ص ١٩٥ — ١٩٦	١٧ — في استنجاز الوعد
ص ١٩٧ — ٢٠٤	١٨ — مذاهب الشيعة
ص ٢٠٤ — ٢٠٦	١٩ — طبقات المغنين
ص ٢٠٧ — ٢١٠	٢٠ — فضائل الأتراك (محتوياته)
ص ٢١٠ — ٢١٢	٢١ — نجر السودان
ص ٢١٢ — ٢٥٥	٢٢ — التربيع والتدوير
ص ٢٥٧	٢٣ — تهذيب الأخلاق
ص ٢٦٧ — ٤٨٤	٢٤ — قطعة من البخلاء
ص ٤٨٨	٢٥ — الحنين إلى الأوطان
ص ٥٢٧	٢٦ — في ذم القواد
ص ٥٣٣ — ٥٥٠	٢٧ — الحجاب وذمه
ص ٥٥٠	٢٨ — في وصف العوام
ص ٥٥٢ وما بعدها	٣٩ — الأخبار

ساراً :

مجموعة حسن السفدوي بعنوان (رسائل الجاحظ) طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ : ١٩٣٣ م . ذكر في مقدمتها أنها « منتقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكرها في متناول الأيدي . وهذه الرسائل في التاريخ والأدب

والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التي يسميها
العرف الإخوانيات .

ولم يشر الأستاذ السندوبى إلى أصل ما مما نشر عنه هذه المجموعة ،
وتشتمل مجموعته على :

- ١ — خلاصة كتاب العثمانية ص ١ - ١٢ . وقد أتبعها بخلاصة نقض العثمانية
للأبى جعفر الإسكافى ص ١٣-٦٦ . وقد كتبت عنها فى مقدمة العثمانية .
- ٢ — من كتاب فضل هاشم على عبد شمس ٦٧ — ١١٦
- ٣ — » » حجج النبوة ١١٧ — ١٥٤
- ٤ — » » الحجاب ١٥٥ — ١٨٦
- ٥ — » » الترييع والتدوير ١٨٧ — ٢٤٠
- ٦ — » » استحقاق الإمامة ٢٤١ — ٢٥٩
- ٧ — » » رسالته فى صناعة القواد ٢٦٠ — ٢٦٥
- ٨ — » » كتابه فى النساء ٢٦٦ — ٢٧٥
- ٩ — » » رسالته فى الشارب والمشروب ٢٧٦ — ٢٨٤
- ١٠ — » » فى مدح النبىذ ٢٨٥ — ٢٩١
- ١١ — » » فى بنى أمية ٢٩٢ — ٣٠٠
- ١٢ — » » كتابه فى العباسية ٣٠٠ — ٣١٦
- ١٣ — » » رسائله الخاصة ٣٠٣ — ٣١٥

وهذه الرسائل الخاصة الأخيرة ست رسائل :

رسالة إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة ، وأخرى فى ذم الزمان ،
ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبى دؤاد ، وغيرها
لإبراهيم بن المدبر ، ورسالة أخيرة كتب بها معاتباً .

مجموعة بول كراوس وطه الحاجري ، وعنوانها (مجموع رسائل الجاحظ)
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣ . وهي نشرة علمية جيدة ، وبها :

- ١ — رسالة المعاد والمعاش ص ١ — ٣٦
- ٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ٣٧ — ٦٠
- ٣ — رسالة في الجذ والهزل ٦١ — ٩٨
- ٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ٩٩ — ١٢٤

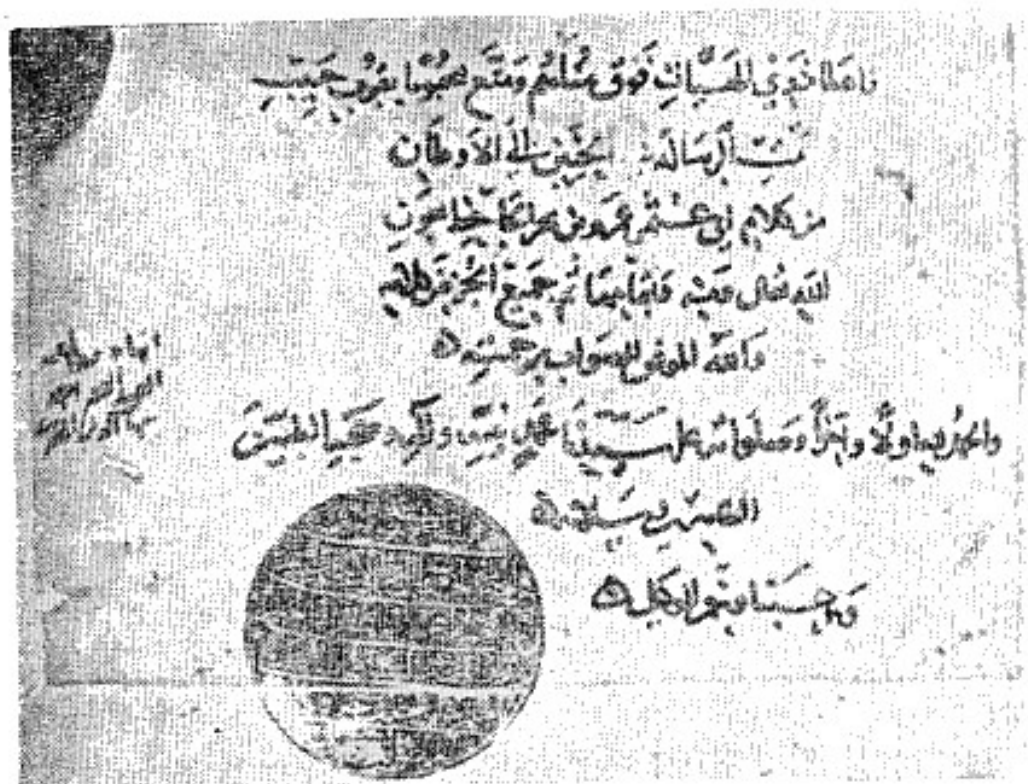
وإني لأزجي الشكر صادقاً إلى الأخ السيد (محمد نجيب أمين الخانجي)
لتيسيره نشر سلسلة هذه الرسائل وغيرها من نفائس التراث العربي ، مقتدياً
في ذلك بوالده المغفور له السيد (أمين الخانجي) ، الذي يحفظ له التاريخ سبقاً
مبكراً بارعاً إلى إحياء كثير من المخطوطات العربية التي أولاها عنايته وإخلاصه .

وأما بعد ، فإني أرجو أن أوفق - بعون الله - حينما أفرغ من نشر هذه
المجموعة (مجموعة داماد) محققة على النهج الذي جريت عليه في نشر الحيوان
والبيان والعثمانية - أن أتم نشر ما بقي من رسائل الجاحظ في أجزاء لاحقة .
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

مصر الجديدة { ٢٣ من جمادى الأولى ١٣٨٤
٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٤ } عبد السلام محمد هارون



صورة الصفحة الأولى من مجموعة داماد



الصفحة الأخيرة من مجموعة داماد

١ مَنَاقِبُ التُّرْكِ

رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه هي الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها في المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذي في سائر المراجع الرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان ، نسخة المتحف البريطاني
لأأخذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل المبرد
طبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر قان ثلوثن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسي .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل ما بين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبتت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيراً للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبية هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذي ورد في النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير التوكل العباسي ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً
بارع الذكاء ، وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ،
وكتاب الصيد والجراح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع التوكل سنة ٢٤٧ .
وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ - ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ - ١٥٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠ ظ

وَقَفَّكَ اللَّهُ لِرُشْدِكَ ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ،
وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [مِمَّا قَدْ يَصُدُّهُ
عَنْهُ ^(١)] ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْهُ ^(٢) الْوَصْفَ لَهُ وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ
وَالْإِقْطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكُشِفَ الْقِنَاعُ فِيهِ ، [وَإِصَالَهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْحَافِظَةِ
الَّتِي لَا يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثَبُّتَ فِي تَحْقِيقِهِ لَدَيْهِمْ ^(٣)] ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ
النَّاسَ لِيَكُونُوا عَامِلِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ
لِيَتَّقُوا التَّوَرُّطَ فِي وَسْطِ الْخَوْفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ ^(٤) ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .

[فَلِذَلِكَ ^(٥)] طَلَبَ النَّاسُ التَّبَيُّنَ ، وَلَحَبَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَالرَّغْبَةَ
فِي الْمَنْفَعَةِ ، احْتَمَلُوا ثِقَلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرُوهُ الْمَعَافَاةِ . وَلَقَلَّ الْعَامِلِينَ وَكَثُرَ
الْوَاصِفِينَ [قَالَ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالْوَاصِفُونَ أَكْثَرُ
مِنَ الْعَامِلِينَ . وَإِنَّمَا ^(٦)] كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ
الْعَمَلِ مُؤَجَّلٌ ، وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعَجَّلٌ .

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » ، وأثبت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « ليتقوا والخوف الوقوع في المضار » .

(٥) التكملة من م ، ف .

(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شَغَفِكَ بطاعة إمامك ، والحمامة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل وخلّة دخل على مُلكك وإن دق^(١) ، ونال سُلطانَه وإن صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره ؛ ومن تحوُّفك أن يجد المُتأوِّل إليه طريقا^(٢) والعدوُّ عليه متعلِّقا ؛ فإنَّ السُلطان لا يخلو من مُتأوِّل ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار^(٣) ، ومن متعطل متصفّح ، ومن مُعجَّب برأيه ذى خطل في بيانه ، مولع بتهجين الصَّواب ، وبالاغتراض على التدبير ، حتّى كأنّه رائدٌ لجميع الأُمّة ، ووكيلٌ لسكان جميع المملُكة ؛ يَضَع نفسه في موضع الرُّقباء ، وفي موضع التصفّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يَعْدِرُ وإن كان تجازُ العذر واضحًا ، ولا يقف فيما يكون للشكِّ محتملا ، ولا يُصدِّق بأنَّ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنّه لا يعرف مَصادر^(٤) الرّأى من لم يشهد مَوَارِدَه ، ومُسْتدْبِرَه من لم يعرف مُسْتَقْبَلَه . ومن محرومٍ قد أضعفَه الحرمان^(٥) ، ومن لئيمٍ قد أفسدَه الإحسان . ومن مستبطلٍ قد أخذ أضعاف حقّه ، وهو لجهله بقدره ، ولِضيق ذُرْعِه وقلة شكره ، يظنُّ أن الذى بَقِيَ له أكثر ، وأنَّ حقّه أوجب . ومن مستزيدٍ

٢١ و

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالتأوِّل المتعلل الذى يتلمس علة وتأويلا لقيامه على السُلطان .

(٣) فى الأصل : « عن الحكمة » ، وأثبت ما فى ب . والزارى ، من قولهم : زرى عليه زرى زريا وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) فى الأصل : « مصداق » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) أضعفه : حمّله على الضعن والحد . وفى الأصل : « أضعفه » ، صوابه فى سائر النسخ .

لو ارتجع السلطان^(١) سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفه عليه ، لكان
لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غره الإملاء^(٢) ، وأبطره دوام الكفاية ،
وأفسده طول الفراغ . ومن^(٣) صاحب فتنة خامل في الجماعة ، رئيس
في الفرقة ، نعاق في الهرج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صنوه ثفاف الأدب^(٤) ،
وأذله الحكم بالحق ، فهو مغني لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشنى بغير الإرجاف ،
ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون
مرتاب ، وخارص لا خير فيه^(٥) ، وخالف لا غناء عنده ، يريد أن يسوى
بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ؛ لأمر [ما] سلف له ، وإحسان كان من غيره ،
وليس ممن يرب قديماً بحديث^(٦) ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين
ثواب المحسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرق ما بين حق الدمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف
طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها .

(١) في الأصل : « لو ارتجع للسلطان » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل و ف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل ون و س .

(٤) الصفو . الميل في الأصل : « صغره » م ، ف : « صغره » . وأثبت ما في
س ، ن .

(٥) الخارص : الكاذب ، يقال خرس وتخرس واخترس . ورجل خراص :
كذاب . وفي التزويل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن . « خارص »
بالمهمله ، تحريف .

(٦) ربه به : أصله وطيبه .

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب
أنصار خليفتك ، وإيّاها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه .
ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ،
والمكافئة لأهل الحق ^(١) .

وقد استدلت بالذي أرى من شدة عنايتك ، وفرط اكتراثك ، وتفقدك
لأخاير الأعداء ^(٢) وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أن ما ظهر من نصحك
أمم ^(٣) ، في جنب ما بطن من إخلاصك .

فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك بحبته ^(٤) ، وأعاذنا وإياك من قول
الزور ^(٥) ، والتقرّب بالباطل ، إنه حميد مجيد ، فقال لما يريد .

وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاطاً من جند الخلافة ، وجماعة من
أبناء الدعوة ، وشيوخاً من جلة الشيعة ، وكهولاً من أبناء رجال الدولة ،
والمنسويين إلى الطاعة والمناصرة ، [والمحبة ^(٦)] الدينية ، دون محبة الرغبة
والرهبة ، وأن رجلاً من عرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجلة ^(٧) ارتحل

٢١ ظ

(١) المكافئة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : الشيء اليسير .

(٤) في الأصل : « نخبة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في الأصل و ن : « قبول الزور » .

(٦) التكملة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلاً من عرض تلك الجملة » .

الكلام ارتجال مستبد^(١) ، وتفرّد به تفرّد مُعْجَب^(٢) ، وأنّه لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنّه تعسّف المعاني وتهجّم على الألفاظ ، وزعم أن جُند الخلافة اليوم على خمسة أقسام : خراساني ، وتركي ، وموّلّ ، وعربي ، وبنوئ . وأنّه أكثر من حمد الله وشكره على إحسانه ومنّنه ، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألّف على الطاعة هذه القلوب المختلفة ، والأجناس المتباينة ، والأهواء المتفرّقة . وأنك اعترضت على^(٣) هذا التكلم المستبد ، وعلى هذا القائل المتكلف ، الذي قسّم هذه الأقسام ، وخالف [بين^(٤)] هذه الأركان ، وفصل بين أنسابهم^(٥) ، وفرّق بين أجناسهم ، وباعد بين أسبَابهم^(٦) . وأنك أنكرت ذلك عليه أشدّ الإنكار ، وقذعته أشدّ القذع^(٧) ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شيء يقرب من الاتفاق . وأنك أنكرت التباعد في النسب ، والتباين في السبب . وقلت : بل أزعّم أنّ الخراساني والتركي أخوان ، وأن الحيز واحد ، وأن [حكم ذلك الشرق ، والقضيّة على^(٧)] ذلك الضقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت . وأنّ الأعراق في الأصل إن لا تكن [كانت^(٧)] راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتعلة عليهم إن

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) في الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم » . وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط

من ف ، م .

(٥) في الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ما أثبت .

(٦) قذعه قذعنا : رماه بالفحش وسوء القول .

(٧) ما بين المعقفين ثابت في جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا تكن متساوية فإنها متناسبة ؛ وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلاً عما هو أبعد جوهرًا وأشدَّ خلافاً . بل كاختلاف ما بين المكي والمدني ، والبدوي والحضري ، والشهلي والجلبي ، وكاختلاف ما بين الطائي والجلبي والطائي الشهلي ، وكما يقال : أن هذيلًا أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار . وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً

في بعض الصور ، فقد تخالفت عليها تميم ، وسفلى قيس ، وعجزة هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان تخاليف اليمن ، وكذلك في الصورة والصورة ، والشمائل والأخلاق^(١) . وكلهم مع ذلك عربي خالص ، غير مشوب ولا معلج^(٢) ولا مذرّع^(٣) ولا مزليج^(٤) . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل^(٥) ما طبع الله

٢٢ و

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشمائل والشمائل ، والأخلاق والأخلاق » .

(٢) المعالج : المهجين . وهو العربي ولد من أمة

(٣) المذرّع : الذي أمه عربية وأبوه غير عربي . وأنشد :

إذا باهلي عنده حظلية لها ولد منه فذاك المذرّع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزليج : الدعي ، والمزلق بالقوم وليس منهم .

(٥) في الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه في سائر النسخ .

عليه تلك البرية من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جزيرة^(١) من الشكل والصورة^(٢) ومن الأخلاق واللغة .

فإن قلت : فكيف كان أولادهما جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب^(٣) لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة ، والشماثل والهيئة ، وفي الأنف والهيئة^(٤) ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القلب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاق ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة^(٥) من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، وتظاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من منازحة بنى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبنى قحطان - وهو ابن عابر^(٦) - ففي إجماع^(٧) الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة .

(١) الجزيرة ، بالكسر : الناحية ، كما في القاموس . ف ، ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) في الأصل : « الصور » مع سقوط الواو بعدها ، ووجه من سائر النسخ .

(٣) م ، ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنف ، بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م ، ف : « وفي البلية » . وفي الأصل : « المشية » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٦) في الأمصاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد .

(٧) في الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمت أنه أراد الفرقة والتَّحْزِيب^(١) ، وأنت أردت الألفة والتَّقْرِيب .
 وزعمت أيضاً أن البَنَوِيَّ خُراساني ، وأنَّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ،
 وأنَّ حُسنَ صنيعِ الآباء ، وقديمَ فعالِ الأجداد ، هو حسبُ الأبناء . وأنَّ
 الموالى بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أَمْسٌ ؛ لأنَّ السُّنَّةَ جعلتهم منهم .
 فقلت : إنَّ الموالى أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنَّهم عربٌ
 في المدعى^(٢) ، وفي العاقلة^(٣) ، وفي الوراثة^(٤) . وهذا تأويل قوله « مولى
 القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم »^(٥) ، و « الولاء لحمة كلِّ حمة
 النِّسب »^(٦) . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار
 الأحنس بن شريق^(٧) وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يعلى بن مُنيّة^(٨)
 وهو رجلٌ من بَلْعَدَوِيَّةَ ، وكذلك خالد بن عُرْفُطَةَ^(٩) وهو رجلٌ من عُذْرَةَ

٢٢ ظ

-
- (١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . في الأصل : « التخويف » صوابه
 في سائر النسخ .
 (٢) في الأصل فقط : « النسب » .
 (٣) العاقلة : العصبية التي تعقل عن القاتل دية .
 (٤) م ، ف : الرأية .
 (٥) أخرجه البخاري عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .
 (٦) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى ، والحاكم والبيهقي عن ابن
 عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .
 (٧) ترجم له في الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف في إسلامه .
 (٨) في الأصل : « منبه » ، صوابه في سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ،
 ٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان .
 اسم أیه أمية بن عبدة » .
 (٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمَت الصَّدَقَةُ عَلَى مَوَالِي بَنِي هَاشِمٍ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْرَاهُمْ فِي بَابِ التَّنْزِيهِ وَالتَّطْهِيرِ تَجْرِي مَوَالِيهِمْ . وبذلك السَّبَبُ قَدَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ عَلَى بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وَقَرَابَتُهُمْ سِوَا ، وَنَسَبُهُمْ وَاحِدٌ ، لِأَمَقْدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَلِلْأَيْدِي الْمُتَّفِقَةِ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنَا خَيْرُ فَارِسٍ فِي الْعَرَبِ : عُكَاشَةُ ابْنُ مِحْصَنٍ ^(١) » ، فَقَالَ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوََرِ الْأَسَدِيُّ : ذَاكَ رَجُلٌ مَنَا يَارَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « بَلْ هُوَ مَنَا بِالْحِلْفِ » . فَجَعَلَ حَلِيفَ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، كَمَا جَعَلَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ .

ثُمَّ زَعَمَتْ أَنَّ الْأَتْرَاكَ قَدْ شَارَكُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي هَذَا النَّسَبِ ، وَصَارُوا مِنَ الْعَرَبِ بِهَذَا السَّبَبِ ، مَعَ الَّذِي بَاتُوا بِهِ مِنَ الْخِلَالِ ، وَحُبُّوْا بِهِ مِنْ شَرَفِ الْخِلَالِ .

عَلَى أَنَّ وِلَاءَ الْأَتْرَاكَ لِلْبَابِ قُرَيْشٍ ، وَلِلْمَصَاصِ عَبْدِ مَنْفٍ ، وَ[هَمْ] فِي سِرِّ بَنِي هَاشِمٍ ، [وَهَاشِمٌ ^(٢)] مَوْضِعُ الْعِذَارِ مِنْ خَدِّ الْفَرَسِ ، وَالْعِقْدِ مِنْ لَبَّةِ السَّكَاعِبِ ، وَالْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ ، وَالذَّهَبِ الْمَصْفَى ، وَمَوْضِعُ الْمُحَّةِ مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَالْعَيْنِ فِي الرَّأْسِ ، وَالرُّوْحِ مِنَ الْبَدَنِ ؛ وَهَمْ الْأَنْفِ الْمَقْدَمِ ، وَالسَّنَامِ الْأَكْبَرِ ^(٣) ، وَالذَّرَّةَ الزَّهْرَاءَ ، وَالرَّوْضَةَ الْخَضْرَاءَ ، وَالذَّهَبَ الْأَحْمَرَ . فَقَدْ شَارَكُوا الْعَرَبَ فِي أَنْسَابِهِمْ ، وَالْمَوَالِي فِي أَسْبَابِهِمْ ، وَفَضْلُوهُمْ

(١) الإصابة ٥٦٢٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٣) في سائر النسخ : « الأكوم » .

بهذا الفضل الذي لا يبلغه فضل وإن برع ، بل لا يعشّره شرف وإن عظم ، ولا مجد وإن قدم .

فزعمت أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والمناحاة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكر جُملاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصفاء ، وأنه جمع ذلك وفصله^(١) وفستره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحا ، يخبر عنهم كما أخبر عن حجة كل جيل ، وعن برهان كل صنف ؛ وذكر أن الخراساني يقول : نحن النقباء وأبناء النقباء ، ونحن النجباء وأبناء النجباء ، ومنا الدعاة ، قبل أن تظهر نقابة^(٢) ، أو تعرف نقابة ، وقبل المغالبة والمباراة ، وقبل كشف القناع وزوال التقيّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقرّه ، وثبات ملك أوليائنا في نصابه . وبين ذلك ما قتلنا وشردنا ، ونهكنا ضرباً^(٣) وبضعنا بالسيف الحداد^(٤) ، وعذبنا بألوان العذاب .

و ٢٣

وبنا شفى الله الصدور ، وأدرك الثار . ومنا الاثناعشر النقباء ، والسبعون النجباء . ونحن الخندقية^(٥) ، ونحن الكفّية وأبناء الكفّية^(٦) ،

(١) بعده في معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والنقيب : العريف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم .

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهقة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتي .

(٦) م ، ف : « الكفّية وأبناء الكفّية » .

وفينا المستجيبة ومن يهرج التيمية^(١) ومنا نيم خزان^(٢) وأصحاب الجوربين^(٣)
ومنا الرغندية^(٤) والآذمردية^(٥).

ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد ، وأبدنا العدو بكل وادٍ . ونحن أهل هذه
الدولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومندبت هذه الشجرة . ومن عندنا هبت
هذه الرياح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرج نصر والنبي صلى الله عليه وسلم
أول الزمان ، وأهل خراسان نصر وأورثته في آخر الزمان . غذانا بذلك
الهاؤنا وغذونا به أبناءنا ، وصار لنا نسباً لا نعرف إلا به ، وديننا لا نوالى
إلا عليه .

ثم نحن على وتيرة واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نعرف بالشيعة ،
بدين بالطاعة ، ونقتل فيها ونموت عليها . سيماناً موصوف ، ولباسنا معروف .
نحن أصحاب الرأيات السود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث الماثورة ،
والذين يهدمون مدن الجبابرة ، وينزعون الملك من أيدي الظلمة . وفينا

(١) ن ، س : « يمرج » . م : « النيمية » .

(٢) ف : « تيم » بدل « نيم » .

(٣) الجوربين مهلة في الأصل وإعجمها من س ، ن . وفي ف : « الحوزتين »
م : « الجوزتين » .

(٤) زغند ، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي . في الأصل : « الدعيدية »
أثبت ما في سائر النسخ . وسيأتي قوله : « ولنا الأصوات التي تسقط منها الجبال » :

(٥) الآذامردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال

الله نور كراوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقَدَّمَ الْخَبَرُ ، وَصَحَّ الْأَثَرُ . وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ صِفَةُ الَّذِينَ يَفْتَحُونَ عَمُورِيَّةَ^(١) وَيُظْهِرُونَ عَلَيْهَا ، وَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلِيهَا وَيَسْبُونَ ذُرَارِيَهَا ، حَيْثُ قَالُوا فِي نَعْتِهِمْ : « شُعُومُ شُعُورِ النِّسَاءِ ، وَثِيَابُهُمْ ثِيَابُ الرِّهْبَانِ » . فَصَدَّقَ الْفِعْلُ الْقَوْلَ ، وَحَقَّقَ الْخَبَرُ الْعِيَانَ .

وَنَحْنُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا وَذَكَرَ بَلَاءُنَا أَمَامُ الْأُمَّةِ ، وَأَبُو الْخَلَائِقِ الْعَشْرَةِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ^(٢) ، حِينَ أَرَادَ تَوْجِيَةَ الدُّعَاةِ إِلَى الْآفَاقِ ، وَتَفْرِيقَ شِيعَتِهِ فِي الْبِلَادِ ، أَنْ قَالَ :

أَمَّا الْبَصْرَةُ وَسَوَادُهَا فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ وَصَنَائِعُ عُثْمَانَ ، فَلَيْسَ بِهَا مِنْ شِيعَتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُ . وَأَمَّا الشَّامُ فَشِيعَةُ بَنِي مَرْوَانَ وَآلِ أَبِي سُفْيَانَ . وَأَمَّا الْجَزِيرَةُ فَحَرُورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ^(٣) ، وَخَارِجَةٌ مَارِقَةٌ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الشَّرِّقِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ صَدُورًا سَلِيمَةً وَقُلُوبًا بَاسِلَةً ، لَمْ تُفْسِدْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَخَامِرْهَا الْأَدْوَاءُ ، وَلَمْ تَعْتَقِبْهَا الْبِدْعُ ، وَهُمْ مَغِيظُونَ مَوْتُورُونَ . وَهُنَاكَ الْعَدَدُ [وَالْعُدَّةُ^(٤)] ، وَالْعَتَادُ وَالنَّجْدَةُ .

ظ ٢٣

(١) عمورية : بلد في بلاد الروم ، فتحها المعتصم العباسي سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة في كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والمنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفي سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذين شروا أنفسهم أي باعوها في سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

ثم قال : [وأنا أتفاءل^(١)] إلى حيث يطلع منه النهار^(٢) . فكنا خير جُندِ
الخير إمام ؛ فصدقنا ظنه ، وثبتنا رأيه ، وصوبنا فراسته .

وقال مرةً أخرى :

أمرنا هذا شرقاً لا غرباً ، ومُقبل لا مدبر^(٣) ، يطلع كطلوع الشمس ،
ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يبلغ حيث تبلغه الأخفاف^(٤) ، وتناله
الحوافر .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحَّصَحِيَّةَ^(٥) ، والدَّالِقِيَّةَ ، والدَّكوانِيَّةَ ، والراشدية^(٦) .
ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيتام نصر بن سيار ، وابن جُدَيْعِ الكرماني^(٧) ،
وشيبان بن سلمة الخارجي . ونحن أصحاب نبأته بن حنظلة^(٨) ، وعامر بن
ضُبارة^(٩) ، وأصحاب ابن هبيرة . قلنا قديم هذا الأمر وحديثه ، وأوله وآخره

(١) موضعها يابض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » فقط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيثما تبلغه الأخفاف » .

(٥) في الأصل ، م ، ف : « الصححية » صوابه في ن ، س .

(٦) الصححية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد التكلمين . انظر الحيوان
٣٩٥ : ٣ والبلاء ٤ والطبري ٩ : ١٣١ في حوادث سنة ١٣٢ . والدالقية ، بدلها في
الطبري : « الدوكانية » . والراشدية ذكرهم الطبري في الموضع الذي أشرت إليه .

(٧) هو علي بن جديع الكرماني . الطبري ٩ : ٩١ ، ٩٧ والاشتقاق ٢٩٥

١ « أدر المخطوطات ٢ : ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧ .

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ . وهو من بني كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ والجمهرة ٢٥٤ ، وكان من قواد ابن هبيرة .

(٢ - رسائل الجاحظ)

ومنا قاتل مروان^(١) .

ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ،
وجباه عراض ، وقصر غلاظ^(٢) ، وسواعد طوال .

ونحن أولد للذكورة ، وأنسل بعولة ، وأقل ضوى وضؤولة ، وأقل
إتاما وأتق أرحاما^(٣) ، وأشد عسبا وأتم عظاما ، وأبداننا أحمّل للسلاح ،
وتجفأفنا^(٤) أملا للعيون .

ونحن أكثر مادة ، وأكثر عددا وعدة .

ولو أن ياجوج وماجوج كثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد .
فأما الأيد وشدة الأسر ، فليس لأحد بعد عاد وثمود والعمالق والكنعانيين
مثل أيدنا وأسرننا .

(١) في الطبري ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل
البصرة يقال له « المغود » . في الأصل : « وبنا قاتل من ولي » ، صوابه في سائر النسخ .
(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهي أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس
قوله تعالى : « إنها ترمي بشرر كالقصر » في قراءته بفتح الصاد . في الأصل : « قصص »
وفي ن ، س : « قصص » صوابه في م ، ف .

(٣) هذا ما في م ، ف . والإتام : أن تلد اثنين في بطن . وأتق أرحاما :
أكثر ولادة . وفي الأصل : « وأجل أحسابا وأوثق أبدانا » وفي ن ، س :
« وأقل أيامي وأتق أرحاما » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح في الحرب .
وفي الأصل : « وخفأفنا » وفي سائر الأصول : « وأخفأفنا » ، والوجه ما أثبت .
وفي البيان ٣ : ١٨ في قول الشعوية : « ولا تعرفون الأقية ولا السراويلات ،
ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف » وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيول الأرض وفُرسان جميع الأطراف جُمعوا في حَلَبَةٍ واحدة ،
لَكُنَّا أَكْثَرَ فِي الْعِيُون ، وَأَهْوَلَ فِي الصُّدُور .

ومتى رأيتَ مواكِبنا وفُرساننا ، وبنودنا التي لا يحملها غيرُنا ، علمتَ
أننا لم نُخْلَقْ إِلَّا نَقْلِبَ الدُّوَل ، وطاعة الخلفاء ، وتأيد السلطان .

٢٤ و

ولو أن أهل الثَّبَتِ ورجال الزَّابِج^(١) ، وفُرسان الهند ، وحَلَبَةُ الرُّوم ، هَجَمَ
عليهم هاشم بن أَشْتَاخَنج^(٢) لما امتنعوا من طَرْحِ السِّلَاحِ والهَرَبِ في البلاد .
ونحنُ أَصْحَابُ اللَّحَى وأرباب النُّهَى ، وأهل الحِلْمِ والحِجَا ، وأهل
الثَّخَانَةِ^(٣) في الرَّأْيِ ، والبُعْدِ مِنَ الطَّلِيشِ . ولسنا كَجُنْدِ الشَّامِ الْمُتَعَرِّضِينَ لِلْحَرَمِ ،
والمُنْتَهَكِينَ لِكُلِّ مُحَرَّم .

ونحنُ ناسٌ لَنَا أَمَانَةٌ وَفِينَا عِفَّةٌ . ونحنُ نَجْمَعُ بَيْنَ النَّزَاهَةِ وَالْقَنَاعَةِ وَالصَّبْرِ
عَلَى الْخِدْمَةِ ، وَالتَّجْمِيرِ عِنْدَ بَعْدِ الشُّقَّةِ^(٤) . ولنا الطُّبُولُ الْمَهُولَةُ الْعِظَامُ وَالْبُنُودُ ،
ونحنُ أَصْحَابُ التَّجَافِيفِ وَالْأَجْرَاسِ ، وَالبَازِيكَندِ^(٥) وَاللُّبُودِ الطَّوَالِ ، وَالْأَغْمَادِ

(١) الزابج بفتح الباء وكسر ها : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين .
وفي الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م :
« الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ والطبرى
٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) في الأصل : « النجابة » ، وفي م ، س : « الثجانة » ، وأثبت
ما في سائر النسخ . والمراد قوة الرأي وجزالته .

(٤) تجمير الجيش : إبقاؤه في ثغر العدو .

(٥) البازيكند ، يبدو أنه كساء يلقي على الكتف . و « باز » في الفارسية =

المعققة^(١) والشَّوَّارِبُ المعقَّرة ، والقلائس الشاشية ، والخيول الشهرية^(٢) ،
والكافر كوبات^(٣) والطَّبْرَزِينات^(٤) [في الأَكْف] ، والخناجر في الأوساط .
ولنا حُسْنُ الجِلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصواتُ التي تُسَقِطُ منها الحَبَالُ .
وليس في الأرض صِنَاعَةٌ غريبةٌ من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ،
وإيقاعٍ وصنعة^(٥) ، وفقهٍ ورواية ، نظَّرتُ فيها الخراسانية إلا فرَّعت فيها
الرُّؤساء^(٦) ، وبرَّرت فيها العلماء .

ولنا صِنعة السِّلَاح من لِبْدٍ وِرْكَابٍ وِدِرْع . ولنا مما جعلناه رياضةً
وتمرينًا ، وإرهاصًا للحرب ، وتنقيفًا ودُرْبَةً المجاورة والمُساوَلَة ، [و] للكرِّ

= بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « البار كند »
وفي سائر النسخ : « البار فكند » .

(١) المعققة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف :
« والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة والمعققة » .

(٢) في البيان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والقرف
من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافر كوب ، وهي المقرعة . انظر حواشي البيان
١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطَّبْرَزِينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس ،
مركب من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سمي بذلك للترام
وضعه بجانب السرج . امستينجاس ٢٧٠ والمغرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ .
وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرَّاعه : علاه وطاله .

بعد الكر : مثل الدَّبُوق^(١) ، والنَزْو على الخيل صغارًا ، ومثل الطَّبْطَاب^(٢) والصَّوَالِجَةِ الكبار ، ثم رمى الجُمَّة^(٣) ، والبرجاس^(٤) والطائر الخَطَاف .
فنحن أحقُّ بالأثرة^(٥) ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزعم أن القُرْبَةَ^(٦) تُسْتَحَقُّ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشائكة ، وبالقدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافي^(٧) بالشعر الموزون الذي يبقى بقاء الدهر ، ويلوح ملاح نجم ، ويُشَدُّ ما أهل بالحج ، وما هبَّت الصَّبَا ، وما كان للزيت عاصر ؛ وبالكلام المنشور والقول الماثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذ لم يكن [ذلك من^(٨)] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفًا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفى ، ونصلها بحفظ الأميين^(٩) . [الذين

٢٤ ظ

(١) في اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) الجُمَّة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل ،

(٤) البرجاس : غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية

١٨ . في الأصل وم : « البرجاسب » وفي ف : « البرجاسبار » ، وأثبتت ما في سائر النسخ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤ .

(٦) القربة : القرابة . م : « إن تسكن القربة » ف « إن تسكن القربي » :

(٧) م ، ف : « والمدح الباقي » ولعلها : « والمدح الباقي » .

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) في الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير

ينتهي في ص ٢٥ أثبتته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتكلمون على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة . ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازع في الشرف ، والتحاكم إلى كل حكم مقنع وكاهن سجاج ولنا التعاير بالمثالب ، والتفاخر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمشور المرسل ، بعد الموزون المعدل ، بلسان أمضى من السنان ، وأرهف من السياف الحسام ، حتى نذكرهم ما قد درس رسمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس المعرق في الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا باب يتقدم فيه التالذ القديم الطارف الحديث .

وطلاب الطوائل رجالان : سجستاني وأعرابي . وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كأبي عبد الحميد قحطبة ابن شبيب الطائي ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك ابن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن إبراهيم الدهلي ، وكأبي عمرو لاهز ابن قريظ المرئي^(١) ، وأبي عتيبة موسى بن كعب المراني^(٢) ، وأبي سهل القاسم ابن مجاشع المزني ، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطواف المرئي .

وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان^(٣) ، ومن هزم ابن هبيرة ، ومن

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : « كان من وجوه أهل دعوة بني العباس » وفي الأصول : « المزني » ،

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفي بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ . والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ما سبق في ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وغيرهم .

قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عَرَبُ الدَّعوة ، والصَّميمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السُّند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد ابن الأشعث ؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعالم المولى ^(١) من تحت موجبة لمحبة المولى من فوق ، لأنَّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائد في كرمه ، وخوله سقط لقدره . وبودّه أن خصال الكرام كلّها اجتمعت فيه ؛ لأنّه كلّما كان . ولأه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرف وأنبى . ومولاك أسلم لك مدبراً ، وأردُّ ضميراً ، وأقلُّ حسداً .

وبعدُ فالولاء لجهة كلحمة النسب ^(٢) ، فقد صار لنا النسب الذى يصوبه العربى ، ولنا الأصل الذى يفتخر به العجمى .

قال : والصَّبر ضرور ، فأكرمها كلها الصَّبر على إفشاء السرِّ . وللمولى هذه المكربة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مدخلاً ، وألطف فى الخدمة مسلماً . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية ، خدمة الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، ومواليهم آانس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفائتهم أسرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن على ، وعلى بن عبد الله ، يخصّون مواليتهم بالموالاة والبسط والإيناس ، لا يهرجون الأسود لسواده ^(٣) ، ولا الدميم

(١) م : « الموتى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ما سبق فى ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج الشيء : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لا يضعون من قدره .

لدامته ، ولا الصناعة الدنيئة لدنائتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ،
ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنازتهم ، وذلك بحضرة من العمومة
وبني الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة
مولاه ، حين عقد له يوم مؤتة على جلة بني هاشم ، وجعله أمير كل بلدة
يطؤها^(١) .

ويتذاكرون حبه لأسامة بن زيد ، وهو الحب ابن الحب^(٢) . وعقد له
على عطاء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه ، كأبي أنسة^(٣) ، وشقران^(٤) ،
وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رءوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

(١) أى يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف في الطبع .

(٣) اختلف في اسم فقيل أنسة أيضا كما في الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما في
جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومات
في خلافة أبي بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهده عبد الرحمن بن
عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
في قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب
الماء عليه في غسله .

أبى مُعَيْط . فلنا مناقب الخراسانية ، ولنا مناقب الموالي فى هذه الدعوة ،
ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ،
خدمناهم كباراً وحملاًهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حق الرضاع والخوالة ،
والنشوء فى الكتاب ، والتقارب فى تلك العراص التى لم يبلغها إلا كل
سعيد الجدد ، وجيه فى الملوك . فقد شاركنا العربى فى نغره ، والخراسانى
فى مجده ، والبنوى فى فضله ، ثم تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه .
قالوا : ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الدّهاء ؛ وهم بنا آنس
وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحن ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم
أشبه . فمن أحق بالأثرة ، وأولى بحسن المنزلة ممن هذه الخصال له ، وهذه
الخلال فيه .

وقلت وذكرت أن البنوى قال :

أنا أصلى خراسان ، وهى تخرج الدّولة ومطلع الدّعوة ؛ ومنها نجم هذا
القرن ، وصبا هذا النّاب^(١) ، وتفجّر هذا الينبوع ، واستفاض هذا البحر ،
حتى ضرب الحقّ بجراحه^(٢) ، وطبق الآفاق بضيائه ، فأبرأ من الشّقم القديم ،
وشفى من الداء العُضال ، وأغنى من العيلة^(٣) ، وبصّر من العمى^(٤) .

(١) صبا النّاب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجراحه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير ، فإذا
برك البعير واستقر قيل : ألقى جراحه . وفى حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق
بجراحه » .

(٣) أى بعد العيلة وهى الفقر .

(٤) هنا ينتهى السقط الذى بدأ فى ص ٢١ ، وأثبتته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغداد ، وهى مستقرُّ الخلافة ، والقرار بعد الحولة^(١) ،
وفيهما بقيّة رجال الدعوة ، وأبناء الشيعة ، وهى خراسان العراق ، وبيت
الخلافة ، وموضع المادّة .

قال : وأنا أعرقُ فى هذا الأمر من أبى ، وأكثرتُ تردداً فيه من جدّى^(٢) ،
وأحقُّ فى هذا الفضل^(٣) من المولى والعربى . ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا يُنكر من
الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال^(٤) . [ولنا معانقة الأبطال
عند تحطّم القنا واقطاع الصفائح^(٥) . ولنا المواجهة بالسكاكين ، وتلقّى الخناجر
بالعيون ، ونحن حُماة المستاحم ، وأبناء المضايق . ونحن أهل الثبات عند
الجولة ، والمعرفة عند الحيرة^(٦) ، وأصحاب المشهّرات ، وزينة العساكر
وحلّى الجيوش ، ومن يمشى فى الرّمح ، ويختال بين الصّقّين . ونحن أصحاب
الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّق ، ونقب المدن ، والتفخّم على ظلمات
السيوف وأطراف الرماح ، ورضخ الجندل ، وهشم العمد ، والصبر على
الجراح وعلى جرّ السّلاح^(٧) إذا طار قلب الأعرابى ، وساء ظنُّ الخراسانى .
ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واجتماع العقل ، وصحة

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتقل .

(٢) فى الأصل ون ، س : « وأكثرتُ تردداً من جدّى » ، وأثبت ما فى م ، ف .

(٣) ج ، ف : « وأحقُّ بهذا الفضل »

(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩ .

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » ، وفى سائر النسخ : « الحبرة » ،

والوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجره الرمح ، إذا طعنه به فمضى وهو يجره .

الطُّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلةُ التَّكْفِي بِجِلِّ الْعُقَابِينَ ^(١) ، والبعد من الإقرار ^(٢) ، وقلةُ الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزَّوَار ^(٣) وجفاء الأُقارب والإخوان .

ولنا القتالُ عند أبواب الخنادق ، ورؤوسِ القناطر . ونحن الموتُ الأحمر عند أبواب الثُّقَب . ولنا المواجهةُ في الأزقة ، والصَّبْرُ على قتال الشُّجُون . فسَلْ عن ذلك الخُمَيْدِيَّة ^(٤) ، والكُتَيْفِيَّة ، والبلاليَّة ، والخُرَيْبِيَّة ^(٥) . ونحن أصحاب المكابِدات ^(٦) وأرباب البَيَّات ، وقتل الناسِ جِهَاراً في الأسواق والطُّقات .

ونحن نجتمع بين السِّلَّة والمزاحفة ^(٧) . ونحن أصحاب القنا الطَّوَال ما كنَّا رَجَالَةً ، والمطارِدِ القصارِ ما كنَّا فُرسانا ^(٨) . فإن صِرْنَا كُفْمًا ^(٩) فالحُتْف

(١) التَّكْفِي : التَّيْل والتَّغْلِب . والعُقَابَان : خشبتان يشبع بينهما الرجل فيجلد . اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) في معظم الأصول : « حفوة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خَليد ، وجاء في البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « سل عن الكُتَيْفِيَّة والخُلَيْدِيَّة والخُرَيْبِيَّة والبلاليَّة » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشعب والفوضى .

(٥) الخُرَيْبِيَّة : نسبة إلى الخُرَيْبَة ، بالتصغير ، وهي موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان مأوى للشطار .

(٦) هذا ما في ف . وفي سائر الأصول : « المكابرات » .

(٧) السِّلَّة : الدفعة في السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويخفون في الحرب .

القاضي ، والسَّمُ الذُّعَاف . وإنْ كُنَّا طلائعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أمير الجيش ،
نقاتل بالليل كما نقاتل بالنَّهار ، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل
في القرية كما نقاتل في الحلة .

ونحن أفتك وأخشب^(١) ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الثُّغور ،
مع حُسن القدود وجودة الخراط ومقادير اللِّحَى ، وحُسن العِمَّة ، والنفس المُرَّة .
وأصحابُ الباطل والفتوة^(٢) ، ثم الخطَّ والكتابة ، والفقہ والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأسرها ، تسكن ما سكننا ، وتتحرك ما تحركنا . والدُّنيا
كلُّها معلَّقة بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها لجميع
الدُّنيا تبع لها^(٣) . وكذلك أهلها لأهلها ، وفُتَّاكها لفتَّاكها ، وخُلَّاعها
لخُلَّاعها^(٤) ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء ، وجيران الوُزراء ، ولِدنا في أفنية مُلوكننا ،
ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخذنا بآثارهم ، واحتدِّيناه على مثالهم ، فلسنا نعرف
سواهم ، ولا نعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خطَّاب مُلكهم ،
وممن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمن أحقُّ بالأثرة ، وأولى بالقرب في المنزلة
مَنْ هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهى سقط الأصل الذى بدأ فى ص ٢٦ س ٦ وإثباته من سائر النسخ .

(٤) كذا فى جميع النسخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْ ذَهَبْنَا حِفْظُكَ اللَّهُ بِعَقَبِ هَذِهِ الْاِحتِجَاجَاتِ ، وَعِنْدَ مَقْطَعِ هَذِهِ
الِاسْتِدْلَالَاتِ ، نَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْمَعَارِضَةَ ^(١) بِمَنَاقِبِ الْأَتْرَاكِ ، وَالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ
خِصَالِهِمْ وَخِصَالِ كُلِّ صَنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، سَلَكْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ
سَبِيلَ أَصْحَابِ الْخِصُومَاتِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَطَرِيقَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ فِي الْاِخْتِلَافِ
الَّذِي بَيْنَهُمْ .

وَكِتَابُنَا هَذَا إِنَّمَا تَكَلَّفْنَاهُ لِنُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ الَّتِي كَانَتْ مُخْتَلِفَةً ، وَلِنُزِيدَ
الْأَلْفَةَ إِنْ كَانَتْ مُؤْتَلِفَةً ، وَلِنُخْبِرَ عَنْ اتِّفَاقِ أَسْبَابِهِمْ لِتَجْمَعُ كُلُّهُمْ ، وَلِنَقْلَمَ
صُدُورَهُمْ ، وَلِنَعْرِفَ مَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ مَوْضِعَ التَّفَاوُتِ فِي النَّسَبِ ،
وَكَمْ مَقْدَارُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْحِسْبِ ^(٢) ، فَلَا يُغَيِّرُ بَعْضُهُمْ مَغْيِرًا ، وَلَا يَفْسِدُهُ عَدُوٌّ
بِأَبَاطِيلِ مُمَوَّهَةٍ وَشُبُهَاتِ مَزُورَةٍ ؛ فَإِنَّ الْمَنَافِقَ الْعَلِيمَ ، وَالْعَدُوَّ ذَا الْكَيْدِ الْعَظِيمَ ،
قَدْ يَصُورُ لَهُمُ الْبَاطِلُ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَيُلْبِسُ الْإِضَاعَةَ ثِيَابَ الْحَزْمِ .
إِلَّا أَنَّ عَلَى حَالِ سَنَدِ كَرَجُلًا مِنْ أَحَادِيثِ رَوَيْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَأُمُورٍ رَأَيْنَاهَا
وَشَاهَدْنَاهَا ، وَفَضَائِلَ تَلَقَّفْنَاهَا ^(٣) مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَسَمِعْنَاهَا .

٢٥

وَسَنَدُ كَرَجْمِيعٍ مَا فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ ^(٤) مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، ثُمَّ نَنْظُرُ
أَيُّهُمْ لَهَا أَشَدُّ اسْتِعْمَالًا ، وَبِهَا أَشَدُّ اسْتِقْلَالًا ، وَمَنْ أَثْقَبُ كَيْسًا وَأَفْتَحَ عَيْنًا

(١) مَا عِدَا الْأَصْلَ وَبَعْضُ أَصُولِ ن : « الْمَعَارِضَةُ » ، وَالْوَجْهَ مَا أَثَبَتْ .

(٢) م ، ف : « كَمْ مَقْدَارُ » بِدُونِ وَاو .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « تَلَقَّفْنَاهَا » ، وَأَثَبَتْ مَا فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٤) فِي سَائِرِ النُّسخِ : « مَا حَفِظَ لِجَمِيعِ الْأَصْنَافِ » .

وأذكى يقيناً ، وأبعدُ غوراً وأجمعُ أمراً ، وأعمُّ خواطرَ وأكثرُ غرائبَ ،
وأبداعَ طريقاً ، وأدومُ نفعاً في الحروب ، وأضرى وأدربُ دربةً ، وأغمضُ
مكيدهً^(١) ، وأشدُّ احتراساً وألطفُ احتيلاً ؛ حتَّى يكون الخيار في يد الناظر
للمتصفحِ لمعانيه ، والمقلبُ لوجوهه ، والمفسرُ في أبوابه ، والمقابل بين أوله
 وآخره ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيلَ بعضٍ
على بعض ، بل [لعلنا أن لا^(٢)] نُخبرَ عن خاصّة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا دبّرنا كتابنا هذا التدبيرَ ، وكان موضوعه على هذه الصّفة ، كان
أبعدَ له من مذاهبِ الجدالِ والمراء ، واستعمالِ الهوى .

وقد ظنَّ ناسٌ أن أسماءَ أصنافِ الأجناس كما اختلفت في الصّورة
والخطِّ والهجاء ، أن حقائقها^(٣) ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمرُ
على حسب ما توهمه ؛ ألا ترى أن اسمَ الشّاكرية^(٤) وإن خالف في الصّورة
والهجاء اسمَ الجنّند ، فإنَّ المعنى فيهما ليس ببعيدٍ ؛ لأنَّهم يرجعون إلى معنَى
واحدٍ وعمل واحد . والذي إليه يرجعون طاعةُ الخلفاء ، وتأيدُ السلاطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ، ومجموعاً منهم في عامّة

(١) بعده في الأصل : « وأبداع طريقاً وأدوم نفعاً في الحروب » ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشّاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشّاكرى : الأجير

المستخدم ، معرب چاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجب ممن جعل الخال والدًا ، والحليف من الصميم ، وابن الأخت من القوم .

وقد جعل ابن الملائعة^(١) المولود على فراش البعل منسوبًا إلى أمه .

وقد جعلوا إسماعيل وهو ابن عجميين عربيًا ؛ لأن الله تعالى فتق لهاته بالعربية المينة على غير التافين والترتيب ، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشو والتقدير^(٢) ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، [وركبه اختراعاً^(٣)] على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة^(٤) ، ثم حباه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقيهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتحهم وهمهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوته ؛ فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جعل إبراهيم أباً لمن لم يلد ، فالبنوي خراساني من جهة الولادة ، والمولى عربي من جهة المدعى والعاقلة^(٥) . وإن أحاط علمنا بأن زيداً لم يخلق من نجل عمرو إلا عياراً لنفيناه عنه^(٦) ، وإن وثقنا^(٧) أنه لم يخلق من صلبه .

(١) الملائعة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التكملة من سائر النسخ .

(٤) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « الصيغة » .

(٥) انظر ما سبق في ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .

(٧) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكما جعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أمهات المؤمنين وهن لم يلدنهم ولا أرضعنهم ، وفي بعض القراءات ^(١) : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ ﴾ ، على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٢) . وجعل للمرأة من جهة الرضاع أمًا ، وجعل [امرأة] البعل أم ولد البعل من غيرها ، [وجعل] الراب والدًا ، وجعل العم أبًا [في كتاب الله] ^(٣) . وهم عبيده لا يتقلبون إلا فيما قلبهم فيه . وله أن يجعل من عباده من شاء عربيًا ومن شاء عجميًا ، ومن شاء قرشيًا ، ومن شاء زنجيًّا ؛ كما له أن يجعل من شاء ذكرًا ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى] ^(٤) ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكرًا ولا أنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليقة . وخلق آدم فلم يجعل له أبًا ولا أمًا ، وخلق من طين ونسبه إليه ، وخلق حواء من ضلع آدم وجعلها له زوجًا وسكنًا . وخلق عيسى من غير ذكر ونسبه إلى أمه التي خلقه منها . وخلق الجان من نار السموم ، وآدم من طين ، وعيسى من غير نطفة . وخلق السماء من دخان ، والأرض من الماء ، وخلق إسحاق من عاقرة . وأنطق عيسى في المهد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلم سليمان منطق الطير ، وكلام النمل ، وعلم الحفظة من الملائكة جميع الألسنة حتى كتبوا بكل خط ، ونطقوا بكل لسان . وأنطق ذئب أهبان بن أوس ^(٥) .

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب .

تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التكملة واللذان قبلها من سائر النسخ .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كله ثم بشره بالرسول ، =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والجانين
 [منهم ^(١)] ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب
 والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتعجب الجاهلون من
 إنطلاق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الخواضن ؟ !
 وهذه المسألة ربّما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض العدنانية ،
 وهي على القحطاني أشدُّ . فأمّا جواب العدناني فليس النظام سهل المخرج ،
 قريب المعنى ؛ لأنّ بني قحطان لا يدعون لقحطان نبوة ^(٢) فيعطيه الله مثل
 هذه الأعجوبة .

وما الذي قسّم الله - عزّ اسمه - بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع في طينة
 الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ، وبعضه
 نحاساً ، وبعضه رصاصاً ، وبعضه حديدًا ، وبعضه ترابًا ، وبعضه فخارًا .
 وكذلك الزّاج ^(٣) ، والمغرة ، والزّرنبيخ ، والمرّتك ، والكبريت ^(٤) ، والقار ^(٥)

= انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣
 ٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : « لهيار » ،
 صوابه في سائر النسخ والمراجع المتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والقار » تحريف . والقار : الزفت .

والثوتيا، والثوشادر^(١)، والمرقشيثا، والمغنطيس .

ومن يَحْصِي عددَ أجزاء الأرض^(٢)، وأصناف الفلز؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصَفْنَا فالبَنَوِيُّ خراساني . وإذا كان الخراسانيُّ

مولي، والموليُّ عربيٌّ - فقد صار الخراسانيُّ والبَنَوِيُّ والموليُّ والعربيُّ واحداً

وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الوفاق غامراً ما معهم من

خِصالِ الخِلاف، بل هم في معظم الأمر وفي كُبر الشأن^(٣) وعمود النسب

مُتَّفَقُونَ . والأثرُ الخراسانيُّ وموالي الخلفاء قُصرة^(٤)، فقد صار التركيُّ

إلى الجميع راجعاً، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائرُ ذلك ساحتِ النفوس، وذهب التعقيد^(٥)، ومات الضغن،

وانقطع سبب الاستئفال؛ فلم يبقَ إلا التحاسدُ والتنافسُ الذي لا يزال يكون

بين المتقاربين في القرابة وفي المجاورة .

على أن التَّوَازَرَ والنَّسَالِمَ^(٦) في القربات وفي بني الأعمام والعشائر، أفشى

وأعمُّ من البُعداء .

(١) انظر حواشي الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى :

« والذي تولى كبره منهم » .

(٤) قُصرة، بالضم، أي أدنى إليهم، كما يقال هو ابن عمي قُصرة، أي داني

النسب . وفي الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة المعقودة، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد

تحللت عقده . وفي الأصل وبعض أصول ن : « التعقل »، تحريف .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن في الفساد »، صوابه في

سائر النسخ .

وَلَحُوفِ التَّخَاذُلِ وَلِحُبِّ التَّنَاصُرِ ، وَالْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ - انْضَمَّ بَعْضُ
الْقَبَائِلِ فِي الْبُوَادِي إِلَى بَعْضٍ ، يَنْزِلُونَ مَعًا وَيُظْعَنُونَ مَعًا . وَمَنْ فَارَقَ
أَصْحَابَهُ أَقَلَّ^(١) ، [و] مِنْ نَصْرِ ابْنِ عَمِّهِ أَكْثَرُ . وَمَنْ اغْتَبَطَ بِنِعْمَتِهِ وَتَمَنَّى بَقَاءَهَا
وَالزِّيَادَةَ فِيهَا أَكْثَرُ تَمَنَّى بَقَاهَا الْغَوَائِلُ^(٢) ، وَطَلَبَ اقْطَاعَهَا وَزَوَالَهَا . وَلَا بَدَّ
فِي أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ التَّنَافُسِ وَالتَّخَاذُلِ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ .
وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ تَصْفُوَ الدُّنْيَا وَتَنْقَى مِنَ الْفَسَادِ وَالْمَكْرُوهِ^(٣) حَتَّى يَمُوتَ
جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، وَتَسْتَوِيَ لِأَهْلِهَا ، وَتَتَمَهَّدَ لِسُكَّانِهَا عَلَى مَا يَشْتَهُونَ وَيَهْوُونَ ؛
لَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ دَارِ الْجَزَاءِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ صِفَةُ دَارِ الْعَمَلِ .

ظ ٢٦

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْلَى » .

(٢) الْغَوَائِلُ : الْمَهْلَكَاتُ . وَيُقَالُ بَغَيْتُكَ الشَّيْءَ : طَلَبْتَهُ لَكَ وَتَمَنَيْتَهُ . وَفِي التَّنْزِيلِ

الْعَزِيزِ : « يَبْغُونَكَ الْفِتْنَةَ » ، أَيْ يَبْغُونَ لَكَ .

(٣) نَقَى الشَّيْءَ يَنْقَى : صَارَ نَقِيًّا خَالِصًا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب كنتُ كتبته أيامَ المعتصم بالله^(١)، رضى الله عنه، فلم يصل إليه، لأسبابٍ يطول شرحها، فذلك لم أعرض للإخبار عنها. وأحببتُ أن يكونَ كتاباً قَصِداً، ومذهباً عدلاً، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ في مديح قوم، وإغراقٍ في هجاء آخرين. وإن كان الكتابُ كذلك شابهَ الكذب، وخالطه التزَيُّدُ، وبُنِيَ أساسُه على التكلُّف، وخرج كلامُه مخرجَ الاستكراه والتغليق^(٢).

وأَنفَعُ المدائح^(٣) للمادح وأجداها على المدوح، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً: أن يكونَ للمديحُ صدقاً، وللظاهر^(٤) من حالِ المدوح موافقاً، وبه لا ثَقاً، حتَّى لا يكونَ من المعبر عنه والواصفِ [له^(٥)] إلاَّ الإشارةُ إليه، والتنبيهُ عليه.

وأنا أقول: إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراكِ إلاَّ بذكر مثالب سائر الأجناد، فتركُ ذكرِ الجميعِ أضوب، وإلاضرابُ عن [هذا الكتاب

(١) بويق المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨. وتوفى بسرمن رأى سنة ٢٢٧. وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق.

(٢) التغليق، المراد به العسر، كما يغلُق الباب تغليقاً. وفي جميع الأصول: «التعليق» بعين مهملة.

(٣) في الأصل وبعض أصول ن: «المدح»، ولا تساوق سائر الكلام.

(٤) في الأصل وبعض أصول ن: «والظاهر»، والوجه من سائر النسخ التي سقطت منها كلمة «من» بعدها.

(٥) التكملة من سائر النسخ، وقد سقطت من بعض أصول ن.

أحزم ، وذكر الكثير من ^(١) [هذه الأصناف بالجميل ^(٢)] ، لا يقوم بالقليل ^(٣) من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب . وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع .

ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ؛ وإنما يتفاضل الناس بكثرة الحسن وقلة المساوى . فأما الاشتغال على جميع الحسن ، والسلامة من جميع المساوى دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف .

وقد قال النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب
وقال حرير السعدى ^(٤) :

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه تلون ألواناً على خطوبها
إذا عبت منه خلّة فتركته دعنى إليه خلّة لأعيها
وقال بشار ^(٥) :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً خليلك لم تلق الذى لا تعاتبه

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « أجمل » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) فى الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه

العبارة من باقى النسخ .

(٤) فى الأصل : « مرس السعدى » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . والبيتان

بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحامسة البحرى ١٠٠ وحامسة ابن الشجرى ١٤٣

والأغاني ٣ : ٤٧ والتمثيل والمحاضرة للثعالبي ٧٤ .

فِعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَدَى ظَمِيتَ وأَيُّ الناسَ تَصْفُو مِشَارِبُهُ
وقال مطيع بن إياس الليثي :

ولئن كنتَ لا تصاحبُ إلاَّ صاحباً لا تَزِلُّ ، ما عاشَ ، نَعْلُهُ
لم تجذهُ ولو جَهِدْتَ وأَنْتَ بالذي لا يَكُونُ يُوجَدُ مثْلُهُ
إنما صاحبي الذي يَغْفِرُ الذَّنْبَ بَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقْلُهُ

وقال محمد بن سعيد^(١) ، وهو رجل من الجُند :

سأشكرَ عَمراً إن تراختَ مَنِيَّتِي أيادي لم تُمَنِّ وإنْ هِيَ جَلَّتْ
فَتِي غيرَ محبوبِ الغِنَى عن صَدِيقِهِ
ولا مُظْهِرِ الشَّكْوَى إذا النَعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) في معجم الشعراء للمعزبانى ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التميمي ، وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فيينا هو يحدث إذ ظهر كم قبضه من تحت جيبه وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدى ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى فى مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوت وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمر بن كميل يمدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص فتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب فى ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشرف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قبضه من تحت جيبه . شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بدون نسبة فى الحماسة ١٥٨٩ بشرح الرزوق وحماسة البهترى ١٥٩ والسكامل ١٢٣ .

فإذا كان الخطاء^(١) من جمهور الناس، وأصحاب المعاش من ذمهم الجماعة،
 يرون ذلك واجباً وتديراً في التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ
 للصواب، وامتزاج الضعف بالقوة، فلسنا نشك أن الإمام الأكبر والرئيس
 الأعظم، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتّمام في الحلم والعلم،
 والكمال في الحزم والعزم، مع التمكن والقُدرة، والفضيلة والرئاسة
 [والسيادة^(٢)]، والخصائص التي معه من التّوفيق والعصمة، والتأييد
 وحسن المعونة، أن الله^(٣) جلّ اسمه لم يكن ليجلّله باسم الخلافة، ويحبّوه
 بتاج الإمامة، وبأعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسنّاها، ثم وصل
 طاعته بطاعته، ومعصيته بمعصيته، إلّا ومعه من الحلم في موضع الحلم،
 والعفو في موضع العفو، والتّغافل في موضع التّغافل، ما لا يبلغه فضل
 ذي فضل، ولا حلم ذي حلم.

ونحن قائلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فيما انتهى إلينا في أمر الأتراك:

زعم محمد بن الجهم، وثمّامة بن أشرس، والقاسم بن سيار، في جماعة^{٢٧} ظ
 ممن يغشّى دار الخلافة، وهي دار العامة^(٤)، قالوا جميعاً:

بيننا حميد بن عبد الحميد جالساً ومعه بخشاد الصفدي^(٥)، وأبو شجاع

(١) في الأصل وبعض أصول ن: «الخطاء»، صوابه في سائر النسخ.

(٢) التكملة من سائر النسخ.

(٣) في الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله»، وفي سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف فقط: «الإمامة».

(٥) ن، س: «بخشاد» ج، ف: «إخشيد الصفدي».

[شيب^(١)] بن بخار اخداى الباخى ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدمين فى العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة^(٢)] فى صناعات الحرب^(٣) ، إذ خرج رسول المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرقين^(٤) ومُجتمعين : ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل أيما أحب إلى [كل^(٥)] قائد منكم إذا كان فى عدته من صحبه وثقاته : أن يلتقى مائة تركيٍّ أو مائة خارجيٍّ ؟ فقال القوم جميعاً : [لأن^(٥)] نلتقى مائة تركيٍّ أحب إلينا من أن نلتقى مائة خارجيٍّ ! وحميد^(٦) ساكت .

فلما فرغ القوم [جميعاً] من حُججهم^(٧) ، قال الرسول : قد قال القوم فقل

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفترقين » .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) التكملة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمة لإبراهيم بن المهدي . وكان لأبي العتاهية وعلى بن جبلة وأبي تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنيه محمداً وقحطبة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض مأوها غدر

وقد قتل بشربة صنعها له جبريل بن بختيشوع سنة ٢١٠ . الأغاني ١٩ :

١٠٠ - ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ - ٢٥٤ وأسماء المغتالين من نواذر المخطوطات

٢ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حججهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

وكلمة « جميعاً » قبله تكملة من ف وبعض أصول ن .

واكتب قولك ، وليكن حجة لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجي أحب إلي ؛ لأنني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها تامة في التركي . ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة ، ثم بان التركي عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بان بها التركي عن الخارجي ، أعظم خطراً وأكثر نفعاً ، مما شاركه الخارجي في بعضها^(١) .

ثم قال حميد : والخصال التي يصول بها الخارجي على سائر الناس صدق الشدة عن أول وهلة ، وهي الدفعة التي يبلغون بها ما أرادوا ، وينالون الذي أمثلوا^(٢) .

والثانية : الصبر على الخلب وعلى طول الشرى ، حتى يصبح القوم [الذين مرقوا بهم^(٣)] غارين^(٤) فيهمجموا عليهم وهم بسوء^(٥) ، ولحم على وضهم^(٦) ، يتعجلونهم عن الروية ، وعن رد النفس عن النزوة والجمولة ؛ لا يظنون أن أحداً يقطع في ذلك المقدار من الزمان ذلك المقدار من البلاد .

(١) ج ، ف : « في بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أمثلوا » .

(٣) التكملة من سائر النسخ . والمروق : المرور بسرعة ، كما يعرق السهم من الرمية .

(٤) غارين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شيء يوضع عليه الحشب من خشب أو حصير يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أنَّ الخارجىَّ موصوفٌ عند^(١) الناس بأنَّه إن طَلَبَ أدركَ ،
وإن طَلَبَ فات .

والرابعة : خِفَّةُ الأزوادِ وقِلَّةُ الأمتعة ، وأنها تَجُنُبُ الخيلَ^(٢) وتركبُ
البغالَ ، وإن احتاجت أَمَسَتْ بأرضٍ وأصبحتْ بأخرى ، وأنهم قوم حين
خَرَجُوا لم يَحْتَفُوا بالأموالَ الكثيرة ، والجِنَانِ الملتفَّة ، والدُّورِ المشيدة ،
ولا ضياعاً ولا مُسْتَغَلَّات ، ولا جوارى مطهَّمت^(٣) ، و [أنهم^(٤)] لا سَلَبَ
لهم ولا مالَ معهم فيرغبُ الجندُ في لقائهم ، وإنما هم كالطير لا تدَّخر ولا تهتمُّ
لغدٍ ، ولها في كُلِّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تنبَّغ به^(٥) ، وإن لم تجد ذلك
في بعض البلاد فأجنحتُها تُقَرِّبُ لها البعيد ، وتسهِّلُ لها الحزون . وكذلك
الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والمطعم ، وإن تمنَّع عليهم ففي بنات شَحَّاج
وبنات صَهَّال^(٦) ، وخِفَّةُ الأثقال على طول الخَبِّ ، ما يسهِّلُ أقواتها ، ويكثرُ
من أرزاقها .

٢٨ و

(١) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) المطهَّمت من الناس والخيل : الحسن التام كل شيء منه على حدته ، فهو
بارع الجمال .

(٤) التكملة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه والبرور ما يقوتها » .

(٦) بنات شَحَّاج ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وبنات صَهَّال ، هى
الأفراس ، فللفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صهال لم ترد في
اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت في الزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم^(١) وأثقالهم ، وليقوؤا على التنقل كقوتهم ، لم يقوؤا عليهم ؛ لأن مائة من الجنود لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالعدد^(٢)] ثقلوا عن طلبهم ، وعن الفوت إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء الخارجى أن يقرب منهم ليتطرقهم^(٣) أو ليصيب الغيرة منهم ، أو ليسلبهم ، ففعل ذلك ثقة بأنه يغتم عند الفرصة^(٤) ورؤية العورة ، ويمكنه الهرب عند الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع^(٥) القطعة منهم .

قال حميد : فهذه هي مفاخرهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .

قال قاسم بن سيار : وخصلة أخرى ، وهي التي رعبت القلوب وخلعتها ، ونقضت العزائم وفسختها ، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام ، من ضرب المثال بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخیلُ والمحاذِرُ للقري

رأى الضيفَ مثل الأزرقِ المجفف^(٦)

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .

(٤) في الأصل : « وليعلم ذلك فإنه يغتم عن الفرصة » ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) المجفف : الذي جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلى به من سلاح وآلة تقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وَقَلْبٍ وَدٌّ حَالٌ عَنْ عَهْدِهِ وَالسَّيْفُ يَنْبُو بِيَدِ الشَّارِي

وكقول الآخر :

لِقَاءِ الْأَسَدِ أَهْوَى مِنْ لِقَاءِهِ إِذَا التَّحْكِيمُ يَسْهَرُ بِالْأَصِيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيار .

فأما حميد فإنه قال :

الشَّدَّةُ الْأُولَى التَّرَكِيُّ فِيهَا أَحَدٌ [أثراً، وأجمع^(١)] أمراً، وأحكم شأننا ؛
لأنَّ التَّرَكِيَّ مَنْ أَجَلَ أَنْ تَصْدُقَ شِدَّتُهُ وَيَتِمَكَّنَ عَزْمُهُ ، وَلَا يَكُونُ مَشْتَرِكُ الْعَزْمِ
وَلَا مُنْقَسِمِ الْخَوَاطِرِ ، قَدْ عَوَّدَ بِرِذْوَنِهِ إِلَّا يَنْثَنِي وَإِنْ ثَنَاهُ ، أَنْ يَمْلَأَ فَرْجَهُ^(٢)
لِلْأَمْرِ يَدِيرُهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَا يَدْعُ سَنَنَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ رِكْضَهُ . وَإِنَّمَا
أَرَادَ التَّرَكِيَّ أَنْ يُوَسَّسَ نَفْسَهُ مِنَ الْبَدَوَاتِ^(٣) ، وَمَنْ أَنْ يَعْتَرِيهِ التَّكْذِيبُ بَعْدَ
الْإِعْتِزَامِ ، لَهْوُلِ [اللقاء^(٤)] ، وَحُبِّ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ صَيَّرَ بِرِذْوَنِهِ
إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ حَتَّى لَا يَنْثَنِي وَلَا يُجْبِيهِ إِلَى التَّصَرُّفِ مَعَهُ إِلَّا بَأَنْ يَصْنَعَ شَيْئاً بَيْنَ
الصَّفَقَيْنِ فِيهِ عَطْبُهُ ، لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى الشَّدَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِ الْأَمْرِ ، وَالْبَصَرِ

٢٨ ظ

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : ما بين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لا تكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة بياض في الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفي الأصل : « لظول » ، تحريف .

بالعورة^(١) . وإنما يريد أن يُشَبِّه نفسه بالمُحَرَّج الذي إذا رأى أشدَّ القتال^(٢) لم يدعْ جهدا ولم يدخر حيلة ، ولينفى عن قلبه خواطر الفرار ، ودواعي الرجوع . وقال : الخارجىُّ عند الشدة إنما يعتمد على الطعان ، والأتراك تطعن طعن الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألف فارس فرموا رشقا واحدا صرعوا ألف فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النوع من الشدة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركي يرمى الوحشَ والطيرَ ، والبرجاس^(٣) ، والناس^(٤) ، والمجثمة ، والمثلَ الموضوعة ، ويرمى وقد ملأ فروجَ دابته مُدبراً ومُقبلاً ، وبِمنة وبِسرة ، وصُعدا وسُقلا ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجىُّ سهماً واحداً^(٥) ، ويركض دابته منحدراً من جبل ، أو مستغلاً إلى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجىُّ على بسيط الأرض .

وللتركي أربعة أعين^(٦) : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه . وللخارجىُّ

(١) في الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا في بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « إذا أثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره في ص ٢١ .

(٤) انظر ما سيأتى في ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقاً ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم في الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز في العربية مذكور في المطولات . انظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

عيبٌ في مُستدبرِ الحرب ، وللخراساني عيبٌ في مُستقبلِ الحرب . فعيب
الخراسانيّة أنّ لها جولةً عند أوّل الالتقاء^(١) ، وإن ركبوا [كُساءهم^(٢)]
كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يثوبون ، وذلك [بعد^(٣)] الخطار بالعسكر ،
وإطاع العدو في الشدة .

والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا وليس لهم بعد الفرّ كرّ ، إلّا ما لا يُعدّ .
والتركيّ ليست له جولةُ الخراسانيّ ، وإذا أدبرَ فهو السّمّ الناقع ، والحتف
القاضي ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقبل ، ولا يُؤمن
وهقه^(٤) ، ولا انتسافُ الفرس^(٥) ، واختطافُ الفارس بتلك الرّكضة .

٢٩ و

ولم يُقلّت من الوهق في جميع الدّهر إلّا المهلب بن أبي صفرة ، والحريش
ابن هلال^(٦) ، وعباد بن الحصين^(٧) . ورُبّما رمى بالوهق وله فيه تدبير آخر

(١) في الأصل : « بين أول الالتقاء » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٢) موضعها يابض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، ففيها :
« أ كساءهم » بالجمع . ويقال ركب كساءه : وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتقهقروا .
وكسء كل شيء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .

(٤) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد القتل يرمى وفيه أنشوطه . فتؤخذ فيه
الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « المرمى » ساقط من
ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشيء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الجالب من أندابه إغباطنا ليس على أصلابه

(٦) في الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان
بني تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمي ، كان شجاعاً رئيساً . جمهرة ابن حزم

٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجُنَّب المرمى معه ، يوم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركي^(١) ،
أو لحِذْق المرمى .

قال : وهم علّموا الفُرسانَ حَمَلَ قوسَيْنِ وثلاثة قِستَى ، ومن الأوتار
على حسب ذلك .

قال : والتركيُّ في حال شدّته ، معه كلُّ شَيْءٍ يحتاج إليه لنفسه وسلاحه
ودابّته وأداة دابّته . فأَمَّا الصَّبْر على الخَبَبِ وعلى مواصلة السَّفَر ، وعلى طُول
الشَّرَى وقَطْع البلاد ، فعجيبٌ جداً .

فواحدةٌ : أن فرسَ الخارجيّ لا يصبر صَبْرَ برذونِ التركي .

والخارجيّ لا يُحَسِّن أن يعالج فرسه إلا معالجةَ الفُرسانِ لخيولهم ،
والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبرذونه على ما يريد من الرّاضة^(٢)
[وهو استنتجته^(٣)] ، وهو ربّاه فِلَوْأ ، وتتّبعه إن سَمَاهُ^(٤) ، وإن ركضَ
ركض خلفه . وقد عوّده ذلك حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدم^(٥) ،

(١) في الأصل : «لحذق» صوابه في ن ، س . والخرق ، بالضم : الجهل والحق ،
وتقيض الرفق .

(٢) الراضة : جمع راض . وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذلّها .
وفي الأصل وبعض أصول ن : «الرياضة» ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض في الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : «وثبته» ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدم : زجر للفرس ، وكذا أقدم . ومثله أجدم وهجدم ، كلها زجر

للفرس . في معظم النسخ : «اجدم» بالجيم ، وهذه بوصل الهمزة وفتح الدال .

وَالنَّاقَةُ حَلَّ^(١) ، وَالْجَمَلُ جَاهٍ ، وَالْبَغْلُ عَدَسٌ ، وَالْجَمَارُ سَاسَا ، وَكَمَا يَعْرِفُ
الْمَجْنُونُ لِقَبِّهِ وَالصَّبِيُّ اسْمَهُ .

وَلَوْ حَصَلَتْ عُمرُ التُّرْكِيِّ وَحَسِبَتْ أَيَّامَهُ لَوَجَدَتْ جُلُوسَهُ عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ
أَكْثَرَ مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ . وَالتُّرْكِيُّ يَرْكَبُ فَحَلًا أَوْ رَمَكَةً ، وَيَخْرُجُ
غَازِيًا أَوْ مُسَافِرًا ، أَوْ مُتَبَاعِدًا فِي طَلَبِ صَيْدٍ ، أَوْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَتَتَّبِعُهُ
الرَّمَكَةُ وَأَفْلَاوُهَا ، إِنْ أَعْيَاهُ اصْطِيَادُ النَّاسِ اصْطَادَ الْوَحْشِ ، وَإِنْ أَخْفَقَ مِنْهَا
أَوْ احْتِاجَ إِلَى طَعَامٍ فَصَدَّ دَابَّةً مِنْ دَوَابِّهِ ، وَإِنْ عَطِشَ حَلَبَ رَمَكَةً مِنْ
رِمَاكِهِ ، وَإِنْ أَرَاكَ وَاحِدَةً تَحْتَهُ رَكَبَ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْأَرْضِ .
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَبَدَنُهُ يَنْتَقِضُ عَلَى اقْتِنَاتِ اللَّحْمِ وَحَدَهَ غَيْرُهُ ؛
وَكَذَلِكَ دَابَّتُهُ تَكْتَفِي بِالْعَنْقَرِ^(٢) وَالْعُشْبِ وَالشَّجَرِ ، لَا يَظْلُمُهَا مِنْ شَمْسٍ وَلَا يَكْنُهَا
مِنْ بَرْدٍ .

قَالَ : وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْخَبَبِ فَإِنَّ الثَّغْرِيَّيْنِ^(٣) وَالْفَرَانْقِيَّيْنِ^(٤) ، وَالْخُلَصِيَّانِ
وَالْخَوَارِجَ ، لَوْ اجْتَمَعَتْ قَوَائِمُ فِي شَخِصٍ وَاحِدٍ لَمَا وَفَوْا بِتُرْكِيِّ وَاحِدٍ^(٥) .

(١) وَيُقَالُ : « حَلَّى » أَيْضًا كَمَا فِي بَعْضِ النُّسخِ . وَقَالَ أَبُو النُّجُمِ :

* وَقَدْ حَدَوْنَاهَا بِحُوبٍ وَحَلَّ *

(٢) الْعَنْقَرُ ، بَضْمُ الْعَيْنِ وَالْقَافِ : أَوَّلُ الْبَقْلِ وَالْقَصْبِ وَالْبَرْدِ مَا دَامَ أَبْيَضَ
مُجْتَمِعًا . فِي الْأَصْلِ : « بِالْعَنْقَرِ » ، صَوَابُهُ مِنْ سَاءَ النَّسخِ .

(٣) الثَّغْرِيُّونَ : نَسَبَةٌ إِلَى الثَّغْرِ ، وَهُوَ وَاحِدٌ ثَغُورِ الشَّامِ ، وَمِنْ أَشْهُرِ مَدَنِهِ
أَنْطَاكِيَّةُ وَبَغْرَاسُ وَالْمَصِيصَةُ ، وَأَوَّلُ أَهْلِهَا مِنَ الرُّومِ .

(٤) نَسَبَةٌ إِلَى الْفَرَانِقِ ، يَعْنِي بِهِمْ عَمَالُ الْبَرِيدِ . وَيُودَوُ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ .
وَالْفَرَانِقُ : الَّذِي يَدُلُّ صَاحِبَ الْبَرِيدِ عَلَى الطَّرِيقِ ، مَعْرَبُ « پَرُوَانَك » .

(٥) يُقَالُ وَفَى الشَّيْءُ وَوَفَى بِهِ : عَادَلَهُ . وَفِي الْأَصْلِ وَبَعْضُ أَصُولِهِ :
« لَمْ يَوْفُوا » ، تَحْرِيفٌ .

والتركي لا يبقى معه على طول الغاية إِلَّا الصَّمِيمُ من دوابّه ^(١) . [و] الذي يقتله التركي بإتباعه له ، وينفيه ^(٢) عند غزاته ، هو الذي لا يصبر معه فرس الخارجى ، ولا يبقى معه كلُّ برذونٍ بخارى ^(٣) . ولو سائر خارجيًا لاستفرغ وسعته قبل أن يبلغ الخارجى عَفْوَه ^(٤) .

٢٩ ظ

والتركي هو الراعى ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو الدَّخَّاس ، وهو البيطار ، وهو الفارس . والتركي الواحدُ أُمَّةٌ على حدة .

قال : وإذا سار التركي في غير عساكر الترك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ سائر عشرين ميلًا ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، ويُسرِع في ذرى الجبال ، وَيَسْتَبِطنُ قُغُور الأودية في طلب الصيد ؛ وهو في ذلك يرمى [كُلَّ] ^(٥) ما دبَّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركي لم يَسِر في العساكر سِيرَ النَّاسِ قَطُّ ، ولا سارَ مستقيمًا قَطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّجَّة واشتدَّ السير ، وبُعِدَ المنزل ، وانتصف النهار ، واشتدَّ التعب ، وشغلَ الناس الكلال ^(٦) ، وصمَّت المتسايرون فلم ينطقوا ،

(١) الصميم : الخالص المحض . في الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في بعض أصول ن : « ويبقيه » .

(٣) نسبة إلى بخارى . وفي بعض أصول ن : « تخارى » .

(٤) العفو : ما يحىء بسهولة وبغير كلفة . في سائر النسخ : « لاستفرغ جهده » .

(٥) التكملة من سائر النسخ .

(٦) الكلال : التعب والإعياء . ج ، ف وبعض أصول ن : « الكلام » ،

تحرير

وقطعهم ما هم فيه عن التشاغل بالحديث ، وتفسخ كل شيء من شدة الحر ،
 وخذ كل شيء من شدة البرد^(١) ، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى^(٢)
 أن تطوى له الأرض ، وكلما رأى خيالاً أو أبصر علماً^(٣) سر به واستبشر ،
 وظن أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحج^(٤) كأنه صبي
 يحقون ، يثن أنين المريض ، ويستريح إلى التثاوب ، ويتداوى مما به بالتمطى
 والتضجع . وترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعف ما ساروا وقد أتعب
 منكبيه كثرة النزع^(٥) ، يرى قرب المنزل غيراً^(٦) أو ظبياً ، أو عرض له
 ثعلب أو أرنب ، فيركض ركض مبتدئ مستأنف ، كأن الذي سار ذلك
 السير وتعب ذلك التعب غيره .

وإن بلغ الناس وادياً فازدحموا على مسلكه أو [على^(٧)] قنطرتة ، بطن
 يرذونه فأفجمه^(٨) ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب . وإن اتهموا إلى
 عقبية صعبة ترك السنن^(٩) وذهب في الجبل صعداً ، ثم تدلى من موضع يعجز

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط .

(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفي الأصل : « عطاء » موضع « علماً » ، صوابه

من باقى النسخ .

(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .

(٥) النزع فى القوس : مد وترها للرمى بسهامها .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « عنزا » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٧) التكملة من سائر النسخ .

(٨) بطنه بطناً : ضرب بطنه .

(٩) السنن : نهج الطريق ومحجته . فى الأصل ، ف : « السير » ، صوابه فى

سائر النسخ .

عنه الويل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مظالمه . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجيُّ بأنه إذا طلب أدرك ، وإذا طلب لم يدرك . ٣١ و
والتركيُّ ليس يحوج إلى أن يفوت ؛ لأنه لا يطلب ولا يرام . ومن يروم
[ما لا يطمع فيه] ؟ !

فهذا . على أننا قد علمنا أن العلة التي عمّت الخوارج بالنجدة استواء حالاتهم في الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين ؛ لأننا حين وجدنا السجستانيَّ والخراسانيَّ والجزريَّ واليماميَّ والمغربىَّ والمماليَّ ، والأزرق منهم والنجدى^(١) والإباضىَّ والصفريَّ ، والمولى والعربىَّ ، والعجميَّ والأعرابيَّ ، والعبيد والنساء ، والحائك والفلّاح ، كلُّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان^(٢) - علمنا أن الديانة هي التي سوّت بينهم ، ووفقت بينهم في ذلك . كما أن كلَّ حجّام في الأرض من أى جنس كان ، ومن أى بلد كان ، فهو يحبُّ

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر - وقيل عاصم - الحنفى . وهم النجدات أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك في سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى ٧ : ٥٦ - ٥٧٠ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب الزبير بنحيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم تقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة في تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ . وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) في الأصل : « وسائر البلدان » ، صوابه من سائر النسخ .

النَّبِيذ ، وكما أَنَّ أَصْحَابَ الْخُلُقَانِ^(١) وَالنَّخَّاسِينَ وَالْحَاكَّةَ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ ، شَرَّارُ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْمُبَايَعَةِ وَالْمُعَامَلَةِ . فَعَامِلُنَا بِذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ خِاقَةٌ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ ، وَبِذْنِيَّةٍ فِي هَذِهِ التَّجَارَاتِ ، حِينَ صَارُوا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ النَّاسِ كَذَلِكَ .

قال : ورأينا التُّرْكِيَّ فِي بِلَادِهِ لَيْسَ يِقَاتِلُ عَلَى دِينٍ وَلَا عَلَى تَأْوِيلٍ ، وَلَا عَلَى مُلْكٍ وَلَا عَلَى خَرَّاجٍ ، وَلَا عَلَى عَصْبِيَّةٍ وَلَا عَلَى غَيْرَةٍ دُونَ الْحُرْمَةِ وَالْمَحْرَمِ^(٢) ، وَلَا عَلَى سَحْيَةٍ وَلَا عَلَى عَدَاوَةٍ ، وَلَا عَلَى وَطَنِ وَمَنْعِ دَارٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنَّمَا يِقَاتِلُ عَلَى السَّلْبِ وَالْخِيَارِ فِي يَدِهِ . وَلَيْسَ يَخَافُ الْوَعِيدَ إِنْ هَرَبَ ، وَلَا يَرْجُو الْوَعْدَ إِنْ أَبْلَى عِذْرًا . وَكَذَلِكَ هُمْ فِي بِلَادِهِمْ وَغَارَاتِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ . وَهُوَ الطَّالِبُ غَيْرُ الْمَطْلُوبِ ؛ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا يَأْخُذُ الْعَفْوَ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَلَا يَخْتَاجُ إِلَى [مَجْهُودِهِ^(٣)] . ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ وَلَا يَطْمَعُ فِيهِ أَحَدٌ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَنْ لَوْ اضْطَرَّه إِحْرَاجٌ أَوْ غَيْرَةٌ أَوْ غَضَبٌ أَوْ تَدْيُنٌ ، أَوْ عَرَضَ لَهُ بَعْضُ مَا يَصْحَبُ الْمُقَاتِلَ الْحَامِيَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

قال : وَقِنَاةُ الْخَارِجِيِّ طَوِيلَةٌ صَمَاءٌ ، وَقِنَاةُ التُّرْكِيِّ مِطْرَدٌ أَجُوفٌ^(٤) . وَالْقُنَى الْجَوْفَةُ الْقِصَارُ أَشَدُّ طَعْنَةً وَأَخْفُ فِي الْحِمْلِ . وَالْعَجَمُ تَجْعَلُ الْقُنَى

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالي . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمة ومحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن : « غير ذلك » صوابه فى مسأّر النسخ . (٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الطَّوَالِ لِلرَّجَالَةِ ، وهى قُنَى الأبناء^(١) ، على أبواب الخنادقِ والمضايق . ٣٠ ظ
والأبناء فى هذا الباب لا يَجْرُونَ مع الأتراك والخُرَاسَانِيَّة ؛ لأنَّ الغالبَ على
الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق وفى المضايق ، وهؤلاء أصحابُ الخيل والفرسانِ
وعلى الخيل والفرسانِ تدور الجيوش ، لهم الكُرُّ والفرُّ . والفارس هو الذى
يَطْوِي الجيشَ طَيَّ السَّجَلِ ، ويفرِّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمينُ
إلا منهم ولا الطليعة ولا السَّاقَة^(٢) . وهم أصحابُ الأيامِ المذكورة والحروبِ
الكبارِ والفتوحِ العظامِ^(٣) ، ولا تكون المقانِبِ والكتائبُ إلا منهم .
ومنهم من يحملُ البُنُودَ والرَّايَاتِ ، والطُّبولَ والتجافيف^(٤) والأجراس .
وهم أصحابُ الصَّهيلِ والقَتامِ^(٥) ، وزجرِ الخيلِ ، وقعقةِ الرِّيحِ فى الثَّيابِ^(٦)

(١) الأبناء ، قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء
يستجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها ، وتزوجوا فى العرب قليل
لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جلس آبائهم .
اللسان (بنو) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسى
ابن جاماسب أخى قباد بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز
إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب
كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين
ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . وسأنبه على
ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف ، بكسر التاء وفتحها ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد
وملاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : القبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع يياض بعدها ، وأثبت ما فى ن ، س .

والسلاح ووقع الخوافر، والإدراك إذا طلبوا، والغوث إذا طلبوا. ولم يجعل
النبي صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهمًا واحدًا
إلا لتضعيف الرد في القتل والفتوح، والنهبة والمغانم^(١).

ثم قال: ولعمري إنَّ للأبناء من القتال في السكك والشجون^(٢)
والمضايق ما ليس لغيرهم. ولكن الرجالة أبدأ أتباع ومأمورون ومنقادون،
وقائد الرجالة لا يكون [إلا^(٣)] فارسًا، وقائد الفرسان من الممتنع أن
يكون راجلًا. ومن تعود الطعان والضرب والرمي راكبًا إن اضطرَّ إلى
الطعن والضرب والرمي راجلًا كان على ذلك أدفع عن نفسه، وأردَّ عن
أصحابه، من الراجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارسًا. وعلى أنه ما أكثر
ما ينزلون ويقاتلون. وقد قال الشاعر^(٤):

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطلق النزولا
وقال الضبي^(٥):

* وعلام أركبه إذا لم أنزل^(٦) *

(١) الرد: النفع. والنهبة، بالضم الغنيمة، كالنهي. وفي الأصل: «الهيبة»،
صوابه في ن، س.

(٢) وكذا سبق في ص ٢٧ س ٦.

(٣) تسكلة ضرورية.

(٤) هو مهمل، كما في الأغاني ٤: ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة
٣: ٣٠٥. وانظر ما قيل في النزول في هذا الموضع من الخزانة.

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبي. الحماسة ص ٦٢ بشرح المرزوقي والخزانة
٣: ٣٠٥.

(٦) صدره: فدعوا نزال فكنت أول نازل

وقال آخر :

* فمناقب ومنـازل^(١) *

وقال حميد : وليس في الأرض قومٌ إلّا والتساند في الحروب ، والاشتراك في الرياسة ضارٌّ لهم ، إلّا الأتراك . على أن الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أن الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأي ، والتنافس في السرِّ^(٢) ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صافوا جيشاً إن^(٣) كان في القوم موضع عورةٍ فكلُّهم قد أبصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأي الانصراف ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر وتناشد ، وإنما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزوجة وفي الإمرة سواء .

قال حميد : فما ظنك بقوم إذا تساندوا لم يضرهم التساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

(١) لم أهتمد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « السير » .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، والنواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون^(١) قال : ليست بالترك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حميد ؛ فإنَّ حميداً قد مارسَ الفريقين ، وحميد خراسانيٌّ وحميد عربيٌّ ، فليس للثَّمة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليميني^(٢) طاهر بن الحسين فقال : ما أحسن ما قال حميد . أمّا إنه لم يقصّر ولم يفرط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحكم حميد ، وتصويب طاهر .

وخبّرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملأُ فروج دابّته منحدراً من جبَل ، أو مُصعداً في مقطعٍ عَفير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرّقاص الأبلّي^(٣) على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقبة بن سلّم الهنائي^(٤) ، وكان ذا رأيٍ في الحرب وابن ذى رأيٍ فيها^(٥) : فرّق ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قوماً قطّ ،

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س .

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصاً بالسيف في وقعته مع علي بن ماهان ، فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفي سنة ٢٠٧ . وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧ .

(٣) نسبة إلى الأبلّة ، وهي بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعي : جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلّة .

(٤) نسبة إلى بني هنة بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد والياً للمنصور على البحرين والبصرة .

ولا صاقت جيشاً ولا هجمت على عدو كانوا عرباً أو عجماً ، فأخرجوا إليهم أعدادهم ولقوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلا أن ينقادوا ليكفوا عنهم بأنفسهم ومعرّتهم^(١) ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذي يدور عليه أمرهم إلا منع أنفسهم وتحصين عسكرهم ، والاحتراس منهم . فأمّا أن ترقى همهم وتسمو أنفسهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غررتهم ، فإنّ هذا شيء لا يخطر على بال من يحاربهم . ثم قال : وقد عرفتم حيلهم في دخول المدن من جهة حيطانها المصمتة العريضة ، وحيلتهم في عبور نهر بلخ .

وسعيد هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخر كميناً . وله كلام في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة ابن دعامة الفقيه^(٢) ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الترك حيث قال : « عدو شديد طلبه ، قليل سلبه » ، فقال رجل من العالية : نهى عمر^(٣) أبا زيد الطائي عن وصف الأسد ؛ لأن ذلك مما يزيد في رعب

(١) المعرة : الشدة والأذى في الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسي . وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفي سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ونكت الهميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة في مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذي نهاه . انظر طبقات ابن سلام

٥١٠ و الأغاني ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفي هَوَلِ الجَنَانِ ، وَيُقَلُّ من رَغَبِ الشُّجَاعِ^(١) ، وقد وُصِفَ التُّرْكُ بأشدَّ من وصف أبي زُبَيْدٍ الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتُ شِرْذِمَةً منهم بلادَ أبي خزيمة - يُريدُ حمزة^(٢) بن أدركَ الخارجي - وما والى خُرَاسَانَ [في] بعض الأمر ، وحمزة في مُعْظَمِ الناس ، فقال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرَّضوا لهم ؛ فَإِنَّهُ قد قِيلَ : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربيٌّ خُرَاساني .

وذكر يزيد بن مَزِيدِ الوُقُوعَةِ التي قَتَلَ فيها يُولُبَا^(٣) التُّرْكِيُّ الوليد بن طريف^(٤) الخارجي ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُّرْكِ : ليس لبدن التُّرْكِي على

(١) الرَغَبُ : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفي البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبي خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » . وفي الطبري ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أترك » وما هنا يطابق البيان والملل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج ، خرج في أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقى الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن النيسابوي حروب انتهت بموت حمزة . وانظر المواقف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازي ٤٨ .

(٣) أهمل نقط الحرف الأول في الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر ، فإن الضربة التي أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =

ظهر الدابة ثِقْل ، ولا لمشيهِ على الأرضِ وَقَعَ ، وإنَّه ليرى وهو مدبرٌ ما لا يرى
 الفارسُ منَّا وهو مُقْبِل . وهو يرى الفارسَ منَّا صَيْدًا ويَعُدُّ نفسه فَهْدًا ،
 ويَعُدُّه ظِييًّا^(١) ويَعُدُّ نفسه كلبًا . والله لو رُمِيَ به في قعرٍ بئرٍ مكتنوفًا لما أعجزته
 الحيلة ؟ ولولا أنَّ أعمارَ عاقمتهم تقصُرُ دُونَ الجَبَل - يعنى جَبَل حُلوان -
 ثم هُمُوا بنا ، لَأَلْقَوْا لنا شُغْلًا طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أليس مصيرُ ذاكَ إلى زَوَالٍ

قال : أمَّا التُّرْكِيُّ فَلَأَن يَنَالَ السَّكَافَ غَصْبًا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَنَالَ
 الْمُلْكُ عَفْوًا . ولم يَتَّهِنِ تَرْكِيٌّ بِطُعَامٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَيْدًا أَوْ مَغْنًا ، وَلَا يُعَزُّ^(٢)
 عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ طَالِبًا كَانَ أَوْ مَطْلُوبًا .

وقال ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ ، وكان مثلَ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ فِي كَثْرَةِ ذِكْرِهِ لِلتُّرْكِ .
 قال ثُمَامَةُ : التُّرْكِيُّ لَا يَخَافُ إِلَّا مَخُوفًا وَلَا يَطْمَعُ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ ، وَلَا يَكْفُهُ عَنِ
 الطَّلَبِ إِلَّا الْيَأْسُ صِرْفًا ، وَلَا يَدَعِ الْقَلِيلَ حَتَّى يَصِيبَ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِنْ قَدَّرَ
 أَنْ يَجْمَعَهُمَا لَمْ يَفِرْطْ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا . وَالْبَابُ الَّذِي لَا يُحْسِنُهُ لَا يُحْسِنُ مِنْهُ شَيْئًا ،

= ضارِبها المؤرخون . انظر ابن الأثير ٥١: ٦ في حوادث ١٧٩ وكذا الأغاني ١١: ٩ .
 وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبري ١٠: ٦٥ أن يزيد بن يزيد هو الذي
 احتز رأسه بعد ما أصيب . وفي ذلك تقول أخت الوليد ليلى بنت طريف ، أو الفارعة :
 فَإِنْ يَكُ أَرْدَاهُ يَزِيدُ بْنُ مَزِيدٍ فَيَارِبُ خَيْلَ فَضْهَا وَصَفْوِ
 وانظر الأُمالي ٢: ٢٧٤ والآل ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢: ١٧٩ .

(١) أى يعد الفارس منا ظييا جديراً بالقنص . وفي الأصل وبعض أصول ن :

« ونعده » .

(٢) أى لا يغلب . في الأصل ون : « ولا يغر » . وفي س : « ولا يغر » .

والباب الذى يُحسّنه قد أحكمه بأسره وأمره^(١) وخفيّه عنده كظاهره^(٢) ،
ولا يتشاغل بشيء ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء^(٣) . فلو لا أن يُجِمْ
نفسه بالنوم لما نام ، على أن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوسنة .
ولو كان فى شِقْمهم أنبياء ، وفى أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطر قد مرّت
على قلوبهم ، وقرعت أسماعهم^(٤) ، لأنسوك أدب البصريين ، وحكمة
اليونانيين ، وصنعة أهل الصين .

وقال ثمامة : عرضَ لنا فى طريق خراسان تركيٌّ ومعنا قائدٌ يصولُ بنفسه
ورجاله ، وبيننا وبين التركيّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، فأخرج
له رجلاً لم أر قطُّ أكمل منه ، ولا أحسنَ تمامًا وقوامًا منه ، فاحتال حتى عبر
إليهم الفارس ، فتجاوولا ساعةً ، ولا نظنُّ إلا أن صاحبنا يفي بأضعافه ، وهو
فى ذلك يقباعد عنّا . فبينما هما فى ذلك إذ ولى عنه التركيّ كالهارب منه ، وفعل
ذلك فى موضعٍ ظننّا أن صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارس لا نشكُّ إلا أنه
سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوباً إلى فرسه ، [فلم نشعر^(٥)] إلا وصاحبنا قد
أفلات عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركيّ إليه فأخذ سلبه وقتله ، ثم عارض
فرسه فجنبه إليه معه .

(١) أمره إمرا : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) فى الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهره » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صححت فى ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب ، وعدلت فى ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ،
وليس ما يدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جِئَ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلتُ له : كيف صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولته ثمَّ علاك ثم وليت عنه هارباً ثم قتلته ؟ قال : أما إنِّي لو شئتُ أن أقتله حين عَبرَ ؛ وقد كان مَقْتلُهُ بارزاً لي ، ولكِنِّي احتلتُ عليه حتَّى نَحَيْتُهُ عن أصحابه لأجوزَه ، فلا يُحَالَ بيني وبين فرسه وسَلَبِهِ .

قال ثمامة : وإذا هو يُدير الفارس من سائر الناس ويرِيقه كيف شاء وأحبَّ^(١) .

قال ثمامة : وقد غَبرتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتحفهم وألطفهم .

فهذا ثمامة بن أشرس ، وهو عربيٌّ لا يُتَمُّ في الإخبار عنهم . وأنا أخبرك أنَّي قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً : رأيتُ في بعض غزوات المأمون سِمَاطِيَّ خيلٍ على جَنَبَتِي الطَّرِيق بِقُربِ المنزل ، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون ، وقد انتصف النهار واشتدَّ الحر . فورد عليهم وجمعُ الأتراك^(٢) جلوسٌ على ظهور خيولهم إلَّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخطا من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلَّا ثلاثة أو أربعة . فقلتُ

(١) أراغه : أراحه وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديروني عن سالم وأريقه وجلدة بين العين والأنف سالم

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحب لي : انظر أي شيء اتفق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم .

وأردت مرة القاطول - وهي المباركة - وأنا خارج من بغداد ، وأرى فوارس من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس^(١) ، وهم على خيل عتاق يُريغونه فلا يقدرّون على أخذه ، ومرّ تركيٌّ ولم يكن من ذوى هيناتهم وذوى القدر منهم ، وهو على برذون له خيس ، وهم على الخيول المطهّمة ، فاعترض الفرس اعتراضاً ، وقتله قتلاً وحياً^(٢) ؛ وأتاه من زجره شيء ، فوقف أولئك الجند وصاروا نظارة ، فقال بعضهم ممن كان يُزري على ذلك التركي : هذا وأبيك التكلف والتعرض : أن فرساً قد أعجزهم وهم أسد البلاد ، وجاء هذا مع قصر قامته وضعف دابته ، فطمع أن يأخذه . فما انقضى كلامه حتى أقبل به ثمّ سلّمه إليهم ومضى لطلبته ، لم ينتظر ثناءهم ولا دعاءهم ، ولا أراهم أنه قد صنع شيئاً ، أو أتى إليهم معروفاً .

والأتراك قوم لا يعرفون الملق ولا الاخلاصة ، ولا النفاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا النميّة ولا الرّياء ، ولا البذخ على الأولياء^(٣) ، ولا البغى على الخاطئ ، ولا يعرفون البدع ، ولم تُفسدِهم الأهواء ، ولا يستحلّون الأموال على التأوّل ، وإنما كان عيبهم ، والذي يُوحش منهم ، الحنين إلى الأوطان ، وحبّ التقارب في البلدان ، والصّباة بالغارات ، والشّفف بالنهب ، وشدة

و ٣٣

(١) عار يعير : انقلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحى : السريع .

(٣) البذخ : الكبر والتطاؤل والفخر .

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتَتَابُعِهِ ، وَخَلَاوَةِ
المَغْنَمِ وكَثْرَتِهِ ، وِ مَلَاعِبِهِمْ فِي تِلْكَ الصَّحَارَى ، وَتَرَدُّدِهِمْ فِي تِلْكَ المُرُوجِ ،
وَأَلَّا يَذْهَبَ بِطُولِ الفَرَاغِ فَضْلُ نَجْدَتِهِمْ بِاطْلَا ، وَيَصِيرَ حَدْثُهُمْ عَلَى طُولِ
الْأَيَّامِ كَلِيلًا .

وَمَنْ حَذَقَ شَيْئًا لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ ، وَمَنْ كَرِهَ أَمْرًا فَرَّ مِنْهُ .
وَأِنَّمَا خُصُّوا بِالْحَنِينِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْعِجَمِ لِأَنَّ فِي تَرْكِيبِهِمْ وَأَخْلَاطِ طِبَائِعِهِمْ مِنْ
تَرْكِيبِ بِلَادِهِمْ وَتَرْيِيقَتِهِمْ ، وَمِشَاكَلَةِ مِيَاهِهِمْ وَمُنَاسِبَةِ إِخْوَانِهِمْ ، مَا لَيْسَ مَعَ أَحَدٍ
سِوَاهُمْ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَرَى البَصْرِيَّ فَلَا تَدْرِي أَبْصَرِيٌّ هُوَ أَمْ كُوفِيٌّ ، وَتَرَى
السَّكِّيَّ فَلَا تَدْرِي أَمَكِّيٌّ هُوَ أَمْ مَدَنِيٌّ . وَتَرَى الْجَبَلِيَّ فَلَا تَدْرِي أَجَبَلِيٌّ هُوَ
أَمْ خِرَاسَانِيٌّ ، وَتَرَى الْجَزْرِيَّ فَلَا تَدْرِي أَجَزْرِيٌّ هُوَ أَمْ شَامِيٌّ . وَأَنْتَ لَا تَفْلَظُ
فِي التُّرْكِيِّ ، وَلَا تَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى قِيَافَةٍ وَلَا إِلَى فِرَاسَةٍ ، وَلَا إِلَى مُسَاءَلَةٍ . وَنَسَاؤُهُمْ
كَرْجَالِهِمْ ، وَدَوَابُّهُمْ تَرْكِيتُهُمْ مِثْلَهُمْ .

وَهَكَذَا طَبَعَ اللَّهُ تِلْكَ الْبَلَدَةَ ، وَقَسَمَ لِتِلْكَ التُّرْبَةِ . وَجَمِيعُ دُورِ الدُّنْيَا
وَنُشُوءُهَا إِلَى مُنْتَهَى قُوَاهَا وَمُدَّةِ أَجَالِهَا ، جَارِيَةٌ عَلَى عِلْمِهَا ، وَعَلَى مَقْدَارِ أَسْبَابِهَا ،
وَعَلَى قَدَرِ مَا خَصَّهَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَأَبَانَهَا ، وَجَعَلَ فِيهَا . فَإِذَا صَارُوا إِلَى دَارِ
الْجَزَاءِ ، فَهِيَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ^(١) ﴾ .

وَكَذَلِكَ تَرَى أَبْنَاءَ الْعَرَبِ وَالْأَعْرَابِ الَّذِينَ نَزَلُوا خِرَاسَانَ ، لَا تَفْصِلُ بَيْنَ
مَنْ نَزَلَ أَبَوُهُ بِفَرَاغَةٍ وَبَيْنَ أَهْلِ فَرَاغَةٍ ، وَلَا تَرَى بَيْنَهُمْ فَرْقًا فِي السَّبَالِ الصُّهْبِ

والجلود القشرة^(١) ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة .

٣٣ ظ

ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة^(٢) . ولكن ذاك في الترك أغلب ، وفيها أرسخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه ، وتكافؤ التركيب . ألا ترى أن العبدى يقول^(٣) : « عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان » ، وأن ابن الزبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم^(٤) » ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرّق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد » ، وأن جعنة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العباد من قفر البلاد ، لما وسّعهم واد ولا كفاهم زاد » . وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال : « هم والله أحن من الإبل المعقّلة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنّ إلى وطنه وعطنه ، وهو بعمان ، من ظهر البصرة ، فهو يخبط^(٥) كلّ شيء ويستبطن كلّ وادٍ ، حتّى يأتى مكانه ؛ على أنّه طريق لم يسلكه إلّا مرة واحدة ، فلا يزال بالشّم والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتّى يأتى مبركه ، على بُعد ما بين عمان والبصرة .

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحرّة .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى ف : « الجيرة » . والجيرة بمعنى الناحية .

(٣) بدله فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر ، وهو الحظ والنصيب . والنص فى الحيوان

٣ : ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « فعلى تحت » تحريف .

فلذلك ضربَ به قتيبةً المثل^(١) .

والشَّحُّ على الوطن [والحنين إليه^(٢)] ، والصَّباة به ، مذكورة في القرآن ،
مخطوطة في [الصحف بين^(٣)] جميع الناس . غير أنَّ التركيَّ للعلل التي
ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نزوعاً^(٤) .

وباب آخر ، ممَّا كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت^(٥) ، والعادة
المنقوضة^(٦) : وذلك أنَّ الترك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر [والجُثوم^(٧)] ، وطول
اللُّبث والمُكث ، وقلة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بنيتهم إنَّما وُضِعَ على
الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفي قوَى أنفسهم فضلٌ على قوَى
أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارة ، واشتغال^(٨) وفطنة ، كثيرة خواطرهم ،
سريع الحُظْم ، وكانوا يرون الكِفاية معجزة ، وطول المُقام بلادة ، والراحة
عُقْلَةً^(٩) ، والقناعة من قِصر الهِمة ؛ وأنَّ تركَ الغزو يُورث الذلَّة .

(١) إلى هنا ينتهي إغفال الاختيار في ج ، ف الذي نهت على بدايته في ص ٥٣ .

(٢) التكملة من ب .

(٣) هذا ما في ف . وفي الأصل ، ن : « وأشدُّ نزاعاً » . ج : « وأكثر نزاعاً » ،

(٤) ج : « عزم الثاني » ف : « ثنى العزم » ، وفي الأصل : « العزم الثاني » ،
والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٥) في الأصل ، س : « والمادة المنقوضة » ، صوابه في ج ، ف . وفي ن :
« والمادة المنقوضة » .

(٦) التكملة من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها في ج : « الجثوم » .
بهم : لزم مكانه فلم يبرحه .

(٧) في الأصل و ف : « واستعال » ، وأثبت ما في ب .

(٨) أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق .

٣٤ و

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي :
 « حب الهوى لنا يُكسب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه
 في الصَّيف غَلَّتْ قِدرُهُ في الشَّتاء » . وقال أكرم بن صَيْفِي : « ما أحبُّ أني
 مكفي كلَّ أمرٍ الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِلَالُ التُّرك في حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرُودِ ويعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه
 عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جَهْل قُودِهم بأقدارهم ، وقِلَّة معرفتهم
 بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرُّد عليهم والانتفاع بهم ، حتَّى جعلوهم أُسوة
 أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الخاشية والحُشوة ، وفي غمار العامة
 ومن عُرض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ،
 ورأوا أن الضَّيْم لا يليق بهم ؛ وأنَّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المُقام
 على من لا يعرف حقَّهم ألوم ممَّن منعهم حقَّهم ، فلمَّا صادفوا مَلَكاً حَكِيماً ،
 وبأقدار النَّاس علياً ، لا يميل إلى [سوء^(١)] عادةٍ ولا يَجَنَح إلى هوى ،
 ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقِّ حيثما
 أقام ، أقاموا إقامةً من قد فهم الحظَّ^(٢) ، ودانَ بالحقِّ ونَبَذ العادة ، وآثر

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه في ب .

(٢) التَّكَلُّف من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما في ب . لكن في ف :

« منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحل نفسه لقطيعة وطنه^(١) ، وآثر الإمامة على ملك الجبهرية^(٢) ،
واختار الصواب على الإلف .

ثم اعلم^(٣) بعد هذا كله أن كل أمة وقرن ، وكل جيل وبني أب
وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البيان ، أو فاقوهم
في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ؛ فإنك لا تجدهم في الغاية
وفي أقصى النهاية ، إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ،
[وقصرهم^(٤)] عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعاني ؛
لأن من كان متقسم الهوى ، مشترك الرأي ، ومتشعب النفس ، غير موفر على
ذلك الشيء ولا مهياً له ، لم يحذق من تلك الأشياء [شيئاً^(٥)] بأسره ، ولم
يلعب فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والآداب ،
والعرب فيما نحن فيه ذا كروه في موضعه ، وآل ساسان في الملك ، والأترک
في الحروب . ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجاراً
ولا صناعاتاً كفهم ، ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع
ومنع ، وحرص وكد ، وكانت الملوك تفرغهم ، وتجرى عليهم كفايتهم ،

٣٤ ظ

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفي الأصل وبعض أصول ن :
« نطنه » تحريف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ،
صوابه في ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها بياض في الأصل ، وإثباته من ب .

فنظروا حين نظروا بأنفسهم مجتمعة ، وقوة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتى استخرجوا الآلات والأدوات ، والملاهي التي تكون جماعاً للنفس ، وراحة بعد الكد ، وسروراً يداوى قرح الهموم ، فصنعوا^(١) من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقرسطونات^(٢) ، والقَبَّانات ، والأسطرلابات^(٣) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا^(٤) وكالشيذان^(٥) والبركار^(٦) وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطب والحساب والهندسة واللحون ، وآلات الحرب كالحجانيق ،

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « فصنعوا » .

(٢) جاء في النزهة المبهجة لداود الأنطاكي بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : « علم مركز الأثقال مثل القرسطيون ، يعني القبان » . وجاء في كتاب الترييع والتدوير ص ١٣٨ ساسي : « وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رؤسياه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » . وانظر الحيوان ٨١ : ١ ، فيبدو أنه ضرب من القبان .

(٣) الأسطرلاب أو الأصطرلاب : مقياس للنجوم ، وهو باليونانية أصطرلابون . وأسطر هو النجم ، ولابون هو المرأة ، وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاق في هذا المعنى بما لا معنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يوناني ، اشتقاقه من لسان العرب جهل ومخف . مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس في هذا الوهم الذي نبه عليه الخوارزمي في مادة (لوب) .

(٤) في الأصل : « وكالكرما » بهذا الإهمال ، وأثبت ما في ج ، ف . وفي مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو ، وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .

(٥) ج ، ف : « والكسيران » ن ، س : « والكشتوان » .

(٦) البركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداها وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وتسمى بالعامية « البرجل » ، وهي في الفارسية « بركار » .

والعرادات^(١) ، والرتيلات^(٢) ، والدُّبَابَات ، وآلة النَّقَاط^(٣) ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعْلَةً ؛ يصوِّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ، ويصوغون المثل ولا يُحسنون العملَ بها^(٤) ، ويشيرون إليها ولا يمشونها ، ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل .

فأما سُكَّان الصين فهم أصحاب السِّبْك والصِّياغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والنَّحت والتصاوير ، والنَّسخ والنَّحْط ، ورفق الكف في كلِّ شيء يتولَّونه ويُعائِنونه ، وإن اختلف جوهره ، وتباينت صنعته ، وتفاوت ثمنه .

واليونانيون يعرفون الفلك ، لأنَّ أولئك حكماء وهؤلاء فَعْلَةٌ^(٥) . وكذلك العرب ، لم يكونوا تِجَّارًا ولا صُنَّاعًا ، ولا أطِبَّاء ولا حُسَّابًا ، ولا أصحابَ فلاحه فيكونون مَهْنَةً ، ولا أصحابَ زرع ، لخوفهم من صَغَار

(١) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة في القتال . وانظر حواشي البيان والتبيين ٣ : ١٧ .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الترسلات » بالإهمال . وفي بعض أصول ن : « الرقيلات » ، وباقي النسخ : « الرتيلات » . وفي البيان ٣ : ١٧ : « الرتيلة » . (٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « المثل ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرهما .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « حكماء وهم فَعْلَةٌ » ، وأثبت الصواب من ب .

الجزية^(١) . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ، ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم
 وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من أسنة الموازين وريوس المكاييل ،
 [ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن
 المعرفة^(٢)] ، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلدة^(٣) ، والثروة التي تحدث
 الغيرة ، ولم يهتموا ذللاً قط فِيمِيت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان
 فياف وتربية العراء ، لا يعرفون العمق ولا اللثق^(٤) ، ولا البخار ولا الغلظ
 ولا العفن ، ولا التخم^(٥) . أذهان حداد ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدهم
 ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصريف الكلام ،
 بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ،
 وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيال والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع
 والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك
 الغاية ، وحازوا كل أمنية . وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ،
 وهمهمهم^(٦) أرفع من جميع الأمم وأخبر ، ولأبائهم أحفظ وأذكروا .

وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواشي ، وهم أعراب

-
- (١) الصَّغار : الذل .
 (٢) التَّكْملة من ب ، ولم يبيض لها في الأصل .
 (٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء في الأمور .
 (٤) العمق : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح .
 في الأصل وبعض أصول ن : « العمق والمق » ، تحريف .
 (٥) التخم : الوخم ، وهو الوباء .
 (٦) في الأصول وبعض أصول ن : « وقسمهم » ، وأثبت ما في ب .

العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات ، والطب والفلاحة والهندسة ؛ ولا غرس ولا بُنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدوين البلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه^(١) المعاني والأسباب مستخرة ومقصورة ، عاينها ، وموصولة بها ، [أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره^(٢)] ، و[صار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم] ، ولذتهم^(٣) [ونفخرهم ، وحديثهم وسموهم] .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات ، والأعراب فيما عدنا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والرياسة .

ومما يستدل به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غاية وتعرفوه ، أن السيف إلى أن يتقلده متقلد ، أو يضرب به ضارب ، قد مرَّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقات من الصنَّاع ، كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه ، ولا يحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه ، لأن الذي يذيب حديد السيف ويميعه ، ويصفيه ويهذبه ، غير الذي يمدّه ويمطّله^(٣) ؛ والذي يمدّه ويمطّله^(٤)

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التسكلة من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « غير الذي يحده ويمده » ، وأثبت ما في ب .

(٤) المطلق : المد . وفي الأصل وبعض أصول ن : « ويمطّله » تحريف .

غير الذى يطبعه ويسوى متنه ، ويقم خَشِيبَتَه^(١) ؛ والذى يطبعه ويسوى متنه
غير الذى يسقيه ويرهفه ، والذى يرهفه غير الذى يركب قَبِيعَتَه ويستوثق
من سيّلاته^(٢) ، والذى يعمل مسامير السيّلان و [شارِبِي^(٣)] القبيعة ونصل
السيف غير الذى ينحت خَشَبَ غمده ، والذى ينحت خَشَبَ غمده غير الذى
يدبغ جلده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلّيه ، والذى يحلّيه ويركب نعلَه
غير الذى يخز حائله . وكذلك السَّرْج^(٤) ، وحالات السَّهْم والجعبة والرُّمَح
وجميع السلاح ، مما هو جارِحٌ أو جُنَّة^(٥) .

والتركيُّ يعمل هذا كله لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ،
ولا يفرع فيه إلى صديق^(٦) ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يشغل قلبه بمطالعه
وتسويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبغرم كرائه .
وحين بلغ أوس بن حجر صفة القانص ، وبلغ له الغاية في جمعه لأبواب
الكفاية بنفسه ، قال :

(١) في اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشبية ، يقول عرض حين طبع » .
في الأصل وبعض أصول ن : « جنبتيه » ، ج : « خشابته » ، وأثبت ما في ن ،
س ، ف .

(٢) السيّلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .
(٣) التكملة من ن ، س . وبدلها في ج « وشادى » وفي ف : « وشاذى » .
والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنقان طويلان
في أصل مقبض السيف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .
(٥) الجنة ، بالضم : ما يتقى به من ترس ونحوه . في الأصل وبعض أصول ن :
« خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفرع إلى رأى صدق » .

قَصِي مَبِيتِ اللَّيْلِ لِلصَّيْدِ مُطْعَمٌ لِأَسْهُمِهِ غَارٍ وَبَارٍ وَرَاصِفٌ^(١)

وليس أنه ليس في الأرض تركيٌّ إلا وهو كما وصفنا ، كما أنه ليس كل يونانيٍّ حكيمًا ولا كل صينيٍّ غايةً في الخدق ، ولا كل أعرابيٍّ شاعرًا قافيًا ، ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهي فيهم أظهر وأكثَر .

قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة^(٢) والفروسيَّة في الترك دون جميع الأمم ، وفي العال التي من أجلها انتظموا جميع معاني الحرب ، وهي معاني تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصال عجيبة .

فمنها : ما يقضى لأهله بالكرم ويبعد الهمة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ على الأدب السديد والرأى الأصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة . ألا ترى أنه ليس بدًّا لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكمئان ، ومن الثقافة^(٣) ، وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدًّا من البصر بالخليل والسلاح ، [والخبرة^(٤)] بالرَّجال وبالبلاد ، والعلم بالمسكان والزَّمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلها .

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصي مبيت الليل ، يقول : لا يبيت مع أهله ، إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا . منه . غار ، هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبري معروف . والراصف : من الرصفة ، وهي ما يشد على صدر السهم . في الأصل : « وواصف » ، صوابه في ن ، س . والبيت والكلام المتعلق به قبله ساقط من ج . ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « قد قلنا في السنة التي لها تكاملت النجدة » ، صوابه في ب .

(٣) التكلفة من ب . (٤) التسكلة من ب .

٣٦ و

والمُلك يحتاج إلى أواخٍ شِدَادٍ وأسبابٍ مِتانٍ ، ومن أتمّها سببًا وأعَمَقَها
نفعًا ما ثَبَّتَهُ في نِصابِهِ ، وأَقَرَّه وسكَّنه في قِرارِهِ ، وزاد في تَمَكُّنِهِ وبِهائِهِ ،
وقطع أسبابَ المَطْمَعة فيه ، ومنع أيدي البَغاة من الإِشارة إليه فضلًا عَن البَسْطِ
عليه ^(١) .

قال : ثُمَّ إِنَّ التُّركَ عَطَفَتْ على العَرَبِ بِالْحَاجَةِ والمَقايِسة ، وقالوا : قَلِمَ
إِنْ تَكُن القَرابةُ مِمَّا يَسْتَحِقُّ بالكِفاية فنحنُ أَقَدَمُ في الطَّاعةِ والوُدِّ والمُناصَحةِ ،
وإنْ تَكُن تُسْتَحِقُّ بالقَرابةِ فنحنُ أَقربُ قَرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنْفانِ : عَدنانٌ وقَحطانيٌّ . فَأَمَّا القَحطانيُّ فنَسَبَتنا
إلى الخلفاء أَقربُ من نَسَبَتهم ، ونحنُ أَمسُّ بِهِم رَحْمًا ؛ لأنَّ الخليفةَ من وَلدِ
إِسْماعيلَ بنِ إِبْراهيمَ ، دونَ قَحطانَ وعابَرَ . وولَدُ إِبْراهيمَ عليه السَّلامُ إِسماعيلُ ،
وأُمُّه هَاجِرٌ ، وهى قِبطِيَّةٌ . وإِسحاقُ وأُمُّه سارَةُ وهى سُرْيانيَّةٌ . والسَّتَّةُ الباقونَ
أُمُّهُم قُطُورا بنتُ مَفْطون ^(٢) عَرَبِيَّةٌ ، من العربِ العِاربةِ .

وفى قول القَحطانيَّةِ : إِنَّ أَمَّنَّا أَشْرَفُ في الحِسابِ إِذْ كانت عَرَبِيَّةٌ .
وأربعةٌ من السَّتَّةِ هم الذين وَقَعُوا بِخِراسانَ ، فأولَدُوا تُركَ خِراسانَ . فهذا قولنا
للقَحطانيِّ .

(١) الكلام بعده إلى « وكلها جواد » في ص ٨٧ ليس في اختيار ج ، ف .
(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « أمهم قنطور » ، والوجه ما أثبت من جمهرة
أنساب العرب ٥ ، ٥١٠ وسيرة ابن هشام ٧١ . وفي سفر التكوين ٢٥ : ١
« قنطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة في سفر التكوين .

وأما قولنا للعدنانى ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيل عثنا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدى : قيل لمبارك التركى ، وعنده حماد التركى : إنكم من مذحج . قال : ومذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيم خليل الله وأمير المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجل من مذحج فأنسل نسلاً كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشعوية للعرب فى قصيدة طويلة :

زعمتم بأن الترك أبناء مذحج وبينكم قربنى وبين البرابر
وذلكم نسل ابن ضبة باسل وصوفان أنسال كثير الجرائر^(١)
وقال آخر :

متى كانت الأتراك أبناء مذحج ألا إن فى الدنيا عجيباً إن يحجب

وقد سمعتم ما جاء فى سد بني قنطورا^(٢) وشأن خيولهم بنخل السواد^(٣) ، وإنما كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام مادة [و] جنداً كثيفاً ، وللخلفاء وقاية وموثلاً وجنة حصينة ، وشعاراً دون الدثار .

(١) فى جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) فى الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن ، س : « تبخو السواد » . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة

وبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفي المأثور من الخبر : « تَارَكُوا التُّرْكَ مَا تَارَكُوكُمْ » . وهذه وصيةٌ لجميع العرب ؛ فإنَّ الرأى متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنكم بقومٍ لم يعرض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُموا التُّرك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض غلبةً وقسراً ، وعنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ ككُلبه ، قليلٌ سَلْبُهُ » . فنهى كما ترى عن التعرُّضِ لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضَرَبَ المثلَ في العداوةِ الشَّديدةِ قالوا : ما هم إلا التُّركُ والدَّيْلَمُ . قال عمَّاس بن عَقِيل بن عُلْفَةَ :

تبدَّلت منه بعد ما شاب مفرقِ عداوةً تركيَّ وبغضٍ أبى حِسلِ
وأبو حِسلٍ هو الضَّبُّ . والعرب تقول : « هو أَعْقُ من ضَبٍّ » ؛ لأنَّه يأكل أولاده .

ولم يُرْعِبْ قلوبَ أجناد العربِ مثلُ التُّركِ . وقال خلفُ الأحمر :

كأنِّي حينَ أرهَنُهم بِنَتِي دَفَعْتُهُمْ إِلَى صُهْبِ السَّبَالِ^(١)
قال : وإيَّاهم عَنِ أَوْسُ بنِ حَجَر :

نَكَبْتُهُمَا مَاءَهُمَا لَمَّا رَأَيْتُهُمَا صُهْبَ السَّبَالِ بِأَيْدِيهِمَا بِيَازِيرِ^(٢)

(١) يجوز في ياء المتكلم المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرهما . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أتم بمصرخى » بالكسر . الأشموني ٢ : ٢٨٢ .

(٢) في الأصل وفي بعض أصول ن : « نكسهم اساهم » ، وكتب في حاشيتها : « ظ حسبتهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والبيازير : جمع بيزارة ، وهى العصا العظيمة . وفي الأصول : « مارين » صوابه من الديوان .

وحدثني إبراهيم بن السندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم ^(١) ، وكان نغم المعاني نغم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد ^(٢) على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طير ^(٣) ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان ملك الترك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن ^(٤) أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هاله أمره ، وأفرغه شأنه ، وتعاطمه جموعه وجمعه ، وبعل به ^(٥) ، وفطن به خاقان وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه :

« إني لم أقف هذا الموقف وأمسك هذا الإمساك وأنا أريد مكروهاً ، فلا ترع . ولو كنت أريد غلبة أو مكروهاً لقد كنت انتسفت عسكرك انتسافاً

(١) يقال درسته الشيء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه . انظر اللسان (درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشيء أرد من ذاك ، أي أنفع وأكثر عائداً .

(٣) الشهير : المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه في المعاجم المتداولة . والطير : المحدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، المري . جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ ، وفتوح البلدان للبلاذري ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبري ٨ : ٢٠٤ - ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلابي . وقد ولي خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بعل به : ضاق به ودهش فلم يدر كيف يصنع .

أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرت موضع العورة . ولولا أن تعرف هذه المسكيدة فتعود بها على غيرى من الأتراك ، لعرفتك موضع الانتشار والخلل والخطأ فى عسكريك وتعيينتك . وقد بلغنى أنك رجل عاقل ، وأن لك شرفاً فى بيتك وفضلاً فى نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شئ من أحكامكم لأعرف به مذهبكم ، فاخرج إلى فى خاصتك لأخرج إليك وحدى ، وأسألك عما أحتاج إليه بنفسى . ولا تحتفل ولا تحترس ؛ فليس مثلى من غدر ، وليس مثلى يؤمن من نفسه ، ومن مكره وكيد ، ثم ينكث بوعده . ونحن قوم لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعة إلا فى الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوزنا ذلك لأنفسنا .

فأبى الجنيد أن يخرج إليه إلا وحده ، ففصلا من الصفوف . وقال : سل عما أحببت ، فإن كان عندى جواب أرضاه أجبتك ، وإلا أشرت عليك بمن هو أبصر بذلك منى .

قال : ما حكمكم فى الزانى ؟

قال الجنيد : الزانى عندنا رجلان : رجل دفعنا إليه امرأة تُعْنِيهِ عن حرم الناس ، وتكفه عن حرم الجيران ؛ ورجل لم نُعطِهِ ذلك ، ولم نحُلْ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأما الذى لازوجة له فإننا نجلده مائة جلدة ونحضر ذلك الجماعة من الناس لنشهره ونحذره به ، ونقرّبه فى البلدان لنزيد فى شهرته وفى التحذير منه ، ولينزجر بذلك كل من كان يُهمُّ بمثل عمله . فأما الذى قد [أغيناه ^(١)] فإننا نرجّمه بالجندل حتى نقتله .

(١) موضعها بياض فى الأصل ، وإبانتها من ن ، س .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرٌ كَبِيرٌ ، فَمَا قَوْلُكُمْ فِي الَّذِي يَقْذِفُ عَفِيفًا بِالزُّنَى ؟

قال : يَحْلِدُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا نَقْبَلُ لَهُ شَهَادَةً ، وَلَا نُصَدِّقُ لَهُ حَدِيثًا .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرٌ كَبِيرٌ ، فَمَا حُكْمُكُمْ فِي السَّارِقِ ؟

قال : السَّارِقُ عِنْدَنَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ يَحْتَالُ لِمَا قَدْ أَحْرَزَهُ النَّاسُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهَا بِنَقَبِ حَيْطَانِهِمْ وَبِالتَّسْلُقِ مِنْ أَعَالَى دُورِهِمْ ؛ فِهَذَا نَقْطَعُ يَدَهُ الَّتِي سَرَقَ بِهَا ، وَنَقَبُ بِهَا ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا . وَرَجُلٌ آخَرُ يُخَيِّفُ السَّبِيلَ ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ ، وَيَكَايِدُ عَلَى الْأَمْوَالِ ^(١) ، وَيَشْهَرُ السَّلَاحَ فَإِنْ مَنَعَهُ صَاحِبُ الْمَتَاعِ قَتَلَهُ ، فِهَذَا نَقْتُلُهُ وَنَصْلِبُهُ عَلَى الْمَنَاهِجِ وَالطَّرِيقِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْغَاصِبِ وَالْمُسْتَلَبِ ؟

قال : كُلُّ مَا فِيهِ الشُّبْهَةُ وَيَجُوزُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالْوُجُوهُ ، كَالْغَضَبِ وَالِاسْتِلَابِ ، وَالْجُنَايَةِ ، وَالسَّرِقَةِ لَمَّا يُؤْكَلُ أَوْ يُشْرَبُ فَإِنَّا لَا نَقْطَعُ فِيهَا فِيهِ شُبْهَةً وَنَتَمَحَّلُ ^(٢) لَذَلِكَ وَجْهًا غَيْرَ السَّرِقَةِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وتَدِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْقَاتِلِ وَقَاطِعِ الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ ؟

(١) المراد بالمكايده هنا الاحتيال والمعالجة . وفي الأصل : « يَكَابِر » ، وأثبت ما في ن ، س .

(٢) في أصول ن : « ويمتحل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويمحتمل » ، وتبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ . وَإِنْ قَتَلَ رَجُلًا عَشْرَةً قَتَلْنَاهُمْ . وَنَقْتُلُ الْقَوِيَّ الْبَدَنَ بِالضَّعِيفِ الْبَدَنِ ، وَكَذَلِكَ الْيَدُ وَالرَّجُلُ .
قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا تَقُولُونَ فِي الْكَذَّابِ وَالنَّمَامِ وَالضَّرَاطِ .

قال : عِنْدَنَا فِيهِمُ الْإِقْصَاءُ لَهُمْ وَإِبْعَادُهُمْ وَإِهَاتِهِمْ ، وَلَا نَقْبِلُ شَهَادَتِهِمْ ، وَلَا نَصَدِّقُ أَحْكَامَهُمْ .

قال : وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا ؟

قال : هَذَا جَوَابُنَا عَلَى دِينِنَا .

قال له : أَمَّا النَّمَامُ عِنْدِي ، هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَ النَّاسِ ^(١) ، فَإِنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي مَكَانٍ لَا يَرَى فِيهِ أَحَدًا . وَأَمَّا الضَّرَّاطُ فَإِنِّي أَكْوِي اسْتَهَ ، وَأَعَاقِبُ ذَلِكَ الْمَكَانَ فِيهِ ^(٢) . وَأَمَّا الْكَذَّابُ فَإِنِّي أَقْطَعُ الْجَارِحَةَ الَّتِي بِهَا يَكْذِبُ ، كَمَا قَطَعْتُمُ الْيَدَ الَّتِي بِهَا يَسْرِقُ ، وَأَمَّا الَّذِي يُضْجِرُكَ النَّاسَ وَيَعُودُهُمُ الشُّخْفَ فَإِنِّي أَخْرِجُهُ مِنْ سُلْطَانِي ، وَأَصْلِحُ بِإِخْرَاجِهِ عُقُولَ رَعِيَّتِي .

قال : فَقَالَ الْجَنْجِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَنْتُمْ قَوْمٌ تَرُدُّونَ أَحْكَامَكُمْ إِلَى جَوَازِ الْعُقُولِ ، وَإِلَى مَا يَحْسُنُ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ ؛ وَنَحْنُ قَوْمٌ نَتَّبِعُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَنَرَى أَنَّ لَمْ نَصْلُحْ عَلَى تَدْبِيرِ الْعِبَادِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِغَيْبِ الْمَصَالِحِ وَسِرِّ الْأُمُورِ ^(٣)

(١) وكذا في ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما . لكن في س : « وهو الذي يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جعلت في ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وبسر الأمر » .

وحقائقه ، ومَحْصُولُهُ وعواقبه ، والناسُ لا يعلمون ولا يَرونَ الحِزْمَ إِلَّا على ظاهِرِ
الأمور . وكم من مُضِيعٍ يَسْلَمُ ، وحازِمٍ يعطب .

قال : ما قلتَ كلاماً أشرف من هذا ، ولقد أَلْقَيْتَ لِي فِكْراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبدُ الملك : قال صالح : قال الجُنَيْدُ : فلم أَرَأَوْني
ولا أَنْصَفَ ولا أَفْهَمَ ولا أَذْكَى منه . ولقد واقَفْتُهُ ثلاثَ ساعاتٍ من النَّهارِ
وما تَحَرَّكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا لسانُهُ ، وما مَنَى شَيْءٌ لَمْ أَحَرِّكْهُ .

٣٨ و

وهكذا يَصِفُونَ مُلُوكَ التُّرْكِ ، يزعمون أَنَّ ساسانَ وخاقانَ الأَكْبَرِ ،
تَوَاقَفَا بِيَعْضِ الكُسُورِ^(١) ، وفَصَلَا مِنَ الصَّفِّينِ ، وطالتِ المناجاةُ ، فلما انفتَلا
قالوا : كان خاقانُ أَرَكْنَ وآدَبَ ، وكان مَرَكَبُ كَسْرَى أَرَكْنَ وآدَبَ^(٢) ،
ولم يَتَحَرَّكَ مِنْ خاقانَ إِلَّا لسانُهُ ، وكان بِرِذْوَنُهُ يرفعُ قائِمةً وَيَضَعُ أُخْرَى ،
وكان مَرَكَبُ كَسْرَى كَأَنَّمَا صُبَّ صَبًّا ، وكان كَسْرَى يَحَرِّكُ رَأْسَهُ وَيُشِيرُ بِيَدِهِ .

قالوا : ومن الأعاجيب أَنَّ الحارثَ بْنَ كَعْبٍ لا يَقُومُ كَلْزَمَ^(٣) ، وحِزْمُ
لا يَقُومُ لَكِنْدَةَ ، وكِنْدَةُ لا يَقُومُ لِلحارثِ بْنَ كَعْبٍ .

(١) كُسُورُ الأودِيَةِ والجِبَالِ : معاطِفُها وشُعابُها ، لا يَفْرُدُ لَهَا واحِدَهُ كما في اللسان .
والجُورَتِ فِي ن ، س إلى «الجُور» خِلافًا لما في الأُصول ، وليس ما يدَعُو إِلَيْهِ .
(٢) أَرَكْنَ مِنَ الرِّكَائَةِ ، وهى السُّكُونُ والوَقَارُ . وفي جَمِيعِ الأُصولِ : «أَزْكَى»
في هَذَا المَوْضِعِ .

(٣) بنو حِزْمِ بْنِ زَيْدِ بْنِ لُؤْذَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ غَنَمِ بْنِ مَالِكِ
ابْنِ النُّجَاجِ . جَمْهَرَةُ أَنْسابِ العَرَبِ ٣٤٨ . وفي العَرَبِ جَرَمُ بْنُ رَبِيعِ بْنِ حُلَوانَ
ابْنِ عَمْرَانَ بْنِ الحُفَافِ بْنِ قِضَاعَةَ . الجَمْهَرَةُ ٤٥١ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ،
والترك لا تقوم للروم ، والروم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذي^(١) : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك
من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستميله بذلك
الصهر ، ويدفع بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والروم ،
وكيف تساجلوا الظفر ، وبأى سبب غرس الزيتون بالمدائن وسوسا^(٢) ، وبأى
سبب بنيت الرومية^(٣) ولم سميت بذلك ، ولم بنى كسرى على الخليج قبالة
قسطنطينية النواويس^(٤) وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الروم على ترك
خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها المثل إلى آخر دارمسه^(٥) ، ومن هناك من
الأشباه ، ومن يتخلل هذا النسب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك
شيرويه بعد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعاني ١٤٩ والفرق بين
الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية
١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندي كما في لسان الميزان .
وفي الأصول : « البريدي » بالإهمال .

(٢) الذي في معجم البلدان « مشوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهي غير رومية الروم . انظر معجم البلدان
(رومية) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهي مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروز اشاهي^(١) أمّ يزيد الناقص^(٢) والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابن كسرى وأبي خاقان وقيصر جدّي وجدّي مروان^(٣)
فلما صار إلى الافتخار في شعره بالنجدة والثقافة بالحرب ، لم يفخر
إلا بخاقان فقط فقال :

فإن كنت أرمي مُقبلاً ثم مُدبراً وأطلع من طودٍ زليق على مهر
خاقان جدّي فاعرف في ذلك واذكري أخابيره في السهل والجبل الوعر^(٤)
قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام^(٥) وأخذوها من
نازلة العرب في أوّل الدهر . وجعل دابته مهراً ، لأنّ ذلك أشدُّ وأشق .

(١) في الأصول : « فيروزا بنتاهي » تحريف . وفي الطبري ٩ : ٤٦ أن اسمها
« شاه آفريد بنت فيروز » .

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . الطبري ٩ : ٢٢ ، ٤٦ قال :
« وإنما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التي زادها لها الوليد بن يزيد في أعطياتهم
وذلك عشرة عشرة » . وروى الطبري أيضاً أنه سمي بذلك تلقياً له من مروان
ابن محمد ، إذ سماه الناقص بن الوليد قسماً للناس الناقص لذلك . فهذا تعليل آخر .
وفي أمثلة النحويين : « الناقص والأشج أعدلا بني مروان » . والأشج : عمر
ابن عبد العزيز ، سمي بذلك لشجّة أصابته .

(٣) في الطبري ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدّي وجدّي خاقان
(٣) ن ، س : « أخابيره » .

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد ، لكنهم ذكروا طلع عنهم
وعليهم بمعنى غاب واختفى . وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل .

وقال الفضل بن العباس بن رزيق : أتانا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجاً إلا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من ذلك الحصون ، وأبصر فارس منهم شيخاً يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لئن لم تنزل إلى لأقتلنك قتلة ماقتلتها أحداً ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتح له وهو في حصن موضع وأمنع مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعهم بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم نحلى سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلا قليلاً حتى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يسوى درهماً^(١) ، وهذا غبن فاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غال جداً بالنصف الآخر . قال : فإذا هو أظرف الخلق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالجلين ، وقد كان سميعاً باحتيال الترك في دخول المدن وعُبور الأنهار في الحروب ، فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب^(٢) .

وقال ثمامة : ما شَبَّهْتُ الذَّرَّ إلا بالترك ؛ لأنَّ كلَّ ذرَّةٍ على حَدِّتها معها من المعرفة بادِّخار الطَّعم ، ومن الشَّمِّ والاسترواح ، ونَجَبُ المدَّخَرِ^(٣) حتى

(١) أى لا يساوى درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد ، وحكاها أبو عبيدة كما في اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أى لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفي ن بعده : « إلا وعنده » ، ثم أكملها فان فلوتن بعبارة « شيء من ذلك » .

(٣) النجب : العض والقشر ، والمراد شق الجيوب . انظر الحيوان ٤ : ٥-٦ ، =

لا يَنْبُتَ فِي جَعْرِهِ ^(١) ، ثُمَّ الْاِحْتِيَالُ لِلنَّاسِ فِي الْاِحْتِيَالِ لَهَا بِالصَّمَامَةِ وَالْعِفَاصِ
وَالْمَزْدَجِر ^(٢) ، وَتَعْلِيقُ الطَّعَامِ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالْبَرَّادَاتِ ، مِثْلُ الذَّرِّ مَعَ صَاحِبَتِهَا .
وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : كُلُّ جَنْسٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَمِيرٍ وَرَئِيسٍ وَمُدَبِّرٍ ،
حَتَّى الذَّرُّ ^(٣) .

وَرَوَى أَبُو عُمَرَ الضَّرِيرُ ^(٤) ، أَنَّ رَئِيسَ الذَّرِّ الرَّائِدَ الَّذِي يَخْرُجُ أَوَّلًا
لِشَيْءٍ قَدْ سَمَّاهُ دُونَ أَصْحَابِهِ ، لِمُخْصَصِيَّةِ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، وَلَطَافَةِ الْحَسَنِ ،
فَإِذَا حَاولَ حَمَلَهُ وَتَعَاطَى نَقْلَهُ ، وَأَعْجَزَهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يُبْلِيَ عُذْرًا ، أَتَاهَنَّ
فَأَخْبَرَهُنَّ فَرَجَعَ ، وَخَرَجَتْ بَعْدَهُ كَأَنَّهَا خَيْطٌ أَسْوَدٌ مَمْدُودٌ . وَلَيْسَتْ ذَرَّةٌ أَبَدًا
تَسْتَقْبِلُ ذَرَّةً أُخْرَى إِلَّا وَاقَفَتْهَا وَسَارَتْهَا بِشَيْءٍ ثُمَّ انْصَرَفَتْ عَنْهَا ^(٥) .

٣٩ و

وَكَذَلِكَ الْأَتْرَاكُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ غَيْرُ عَاجِزٍ عَنْ مَعْرِفَةِ مُصْلَحَةِ أَمْرِهِ ،
إِلَّا أَنَّ التَّفَاضُلَ وَاجِبٌ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْأَشْيَاءِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَوَاتِ . وَقَدْ تَخْتَلَفُ
الْجَوَاهِرُ وَكُلُّهَا كَرِيمٌ ^(٦) ، وَتَتَفَاضَلُ الْعِتَاقُ وَكُلُّهَا جَوَادٌ .

= ١٨ و ٧ : ٣٥ . فِي الْأَصْلِ « نَجِب » بِإِهْمَالِ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ . وَجَعَلَهَا
فَانْ فَلَوْنٌ : « وَتَجْنِبُ الْمَزْجِر » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « حَتَّى لَا يَبِيتَ إِلَّا فِي جَعْرِهِ » . وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . انْظُرِ التَّنْبِيْهَ
السَّابِقَ وَمُرَاجَعَهُ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَالْمُودَحِر » .

(٣) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وَكَذَا وَرَدَ اسْمُهُ فِي الْبَيَانِ ٢ : ٦٩ . وَفِي بَعْضِ نَسَخِ الْبَيَانِ « أَبُو عُمَرَ وَالضَّرِيرُ »
وَوَرَدَ فِي الْحَيَوَانَ ٤ : ٢٠ « أَبُو عُمَرُ وَالْمَكْفُوفُ » .

(٥) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٤ : ٧ — ٨ .

(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَكُلُّهُ كَرِيمٌ » .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمْل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا ؛ فإن وقع ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصنعه ، وإن قصر دون ذلك فالذى قصر بنا نقصان علمنا ، وقلة حفظنا وسماعنا . فأما حسن النية ، والذي نُضمر من المحبة والاجتهاد في القرينة ، فإننا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهار فضل نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليئه ^(١) ، لكان كتاباً كبيراً ، كثير الورق عظيماً ، وكان العدد ^(٢) الذين يقضون لمؤلفه بالعلم والاتساع في المعرفة أكثر وأظهر ، ولكننا رأينا أن القليل الذي يجمع خيراً من الكثير الذي يُفرّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العون والتسديد ، إنه سميع قريب ، فقال لما يريد .

تم الكتاب والله المنّة ، وبيده الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسيناً ونعم الوكيل .

(١) في ن ، س : « وولده » .

(٢) في ب : « عدد » .

٢

رِسَالَةٌ

الْمِعَاشِ وَالْمَعَادِ
أَوْ

الْأَخْلَاقِ الْحَمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الرسالة من نسختين في الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الحمودة والذمومة) وهي ثاني رسالة في مجموعة الأصل ، والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة للمعاد والمعاش في الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد) وترتيبها في المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هي (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو في غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به في كتابي الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبي دواد فكان قاضياً كأيّيه ، ولاه المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فالج أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفي أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً^(١) .

والراجع أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد كانت حياته بين سنتي ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا في أيام سلطانه .

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر لترجمة أبيه وإخوته جبهة أنساب

العرب ٣٢٨ . وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . وقد انفرد ابن حزم بقسمة أبيه أحمد بن محمد بن أبي دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالمعاش والمعاد فى ص ٩٥ س ١٧ .
وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

- ١ — نسخة الأصل فى الموضع الأول من المجموعة .
- ٢ — نسخة الأصل فى الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .
- ٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .
- ٤ — نشرة باول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَمْتَعَ بِكَ ^(١)

أما بعدُ فإنَّ جماعاتٍ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِّنَ الارتياذَ لموضعِ البُغيَّةِ ، وأن يبيِّنَ أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما تُحدثُ العلماءُ بحسن التثبُّتِ في أوائلِ الأمور ، واستشفافِهِمْ ^(٢) بعقولِهِمْ ما تجيءُ به العواقبُ ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤوُلُ به الحالات في استدبارها . وبقدر تفاوتِهِمْ في ذلك تستبين فضائلُهُمْ . فأما معرفةُ الأمور عند تكشُّفها وما يظهر من خفَّياتِها فذاك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون ^(٣) .

وإنِّي عرَفْتُكَ - أكرمَكَ اللهُ - في أيامِ الحداثة ، وحيث سَاطَنَ اللَّهُ المَخْلُوقَ للأعراضِ أغلبُ على نظرائكَ ، وسُكِرَ الشبابُ والجِدَّةُ ^(٤) المتَحَيِّفِينَ لِلدِّينِ والمَرْوَةِ مستولٍ على لِدَاتِكَ فاخْتَبِرْتَ أَنْتَ وَهُمْ [ففَقَّتَهُمْ ^(٥)] يَبْسُطَةُ المَقْدِرَةِ وَحُمَيَّا الحِداثةِ ، وطَوَّلَ الجِدَّةُ ، مع ما تقدَّمَتَهُمْ فيه من الوسامةِ في الصُّورَةِ ، والجمالِ في الهَيْئَةِ . وهذه كُلُّها أسبابٌ [تكادُ أَنْ ^(٦)] توجب

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من فقط .

(٢) د : « واستشراقهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجدة ، كهدة : اليسار والسعة والغنى ، ومثلها الوجد مشاة الواو : م :

« الحدة » تصحيف .

(٥) التكملة من م .

(٦) التكملة من م .

الانقياد للهوى ، ولنجح من المهالك لا يسلم منها إلا المنقطع القرين في صحة
 الفطرة ، وكال العقل . فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزيمة أديانهم ،
 وسلطوها على مروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، قالت بأكثرهم الحال إلى ذل
 العدم وفقد عز الغنى في العاجل ، والندامة الطويلة والحسرة في الآجل .

وخرجت نسيج وحدك ، أوحدياً في عصرك^(١) ، حكمت وكيل الله
 عندك - وهو عقلك - على هواك ، وألقيت إليه أزيمة أمرك ، فسلك بك
 طريق السلامة^(٢) ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات
 أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا ، وصرفك من صنوف
 النعم^(٣) أكثر مما تصرفوا ، وربط عليك من نعم الله التي خولك ما أطلقه
 من أيديهم إيثار اللهو^(٤) وتسليطهم الهوى [على أنفسهم]^(٥) ؛ نخاض بهم سبل
 تلك اللجاج^(٦) ، واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سايم الدين ، وافر
 المروءة ، نقي العرض ، كثير الثراء ، بين الجدة^(٧) . وذلك سبيل من كان ميله
 إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه .

٤١ و

(١) هذا ما في د . وفي الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا ما في د . وفي الأصل : « طرق » وفي م : « سبيل » .

(٣) هذا ما في د ، م وفي الأصل : « التمتع » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) في الأصل ، م : « نخاض بك تلك اللجاج » ، وأثبت ما في د .

(٧) هذه الكلمة والتي قبلها ساقطتان من د . وفي الأصل ، م : « من الجدة » ،

فلم أزل [أبقاك الله^(١)] في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك
بنعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع
إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبةً في الاتصال بك ، ارتياداً
منى لموضع الخيرة في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودة ، وتخيراً
لمستودع الرجاء في النّائبية .

فلما محضتُك الخبرة ، وكشفك الابتلاء عن الحمدة ، وقضتُ لك
التجارب بالتقدمة ، وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والمحبة ، وقطع الله
عذر كل من كان يطلب الاتصال بك ، طلبت الوسيلة إليك والاتصال
بجبلك ، وممتت بجرمة الأدب وذمام كرمك . وكان من نعمة الله عندي
أن جعل أبا عبد الله^(٢) - حفظه الله - وسيلتي إليك ، فوجدت المطلب سهلاً
والمراد محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأمنية ويفوت الأمل ، فوصلت
إخائي^(٣) بمودتك ، وخلطتني بنفسك ، وأسمتني في مراعي ذوى الخاصة
بك ، تفضلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً^(٤) لا مكافاة ، فأمنت الخطوب ، واعتليت
على الزمان ، واتخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نواب الدهر حصناً منيعاً .

فلما حُزّت الموانسة ، وتقلبَت من فضلك في صنوف النعمة ، وزاد
بصرى من مواهبك في الشرور والخيرة ، أردتُ خبرة المشاهدة ، فبلوتُ

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعنى أبا عبد الله أحمد بن أبي دواد .

(٣) د : « رجائي » .

(٤) د : « وتكرما » .

أخلاقك ، وامتنتحت شيمك ، وعجمت مذهبك على حين غفلاتك ، وفي
 ٤١ ظ الأوقات التي يقل فيها تحفظك ، أراعى حركاتك ، وأراقب مخارج أمرك
 ونهيك ، فأرى [من] استصغارك لعظيم النعم التي تنعم بها ، واستكثارك
 لقليل الشكر من شاكريك ، ما أعرف به ^(٢) [و] بما قد بلوت من غيرك ،
 وما قد شهدت لي به التجارب ، أن ذلك منك طبع غير تكلف .

هيات ! ما يكاد ذو التكلف أن يخفى على أهل الغباوة ^(٣) ، فكيف
 على مثلي من المتصفحين . فزادتنى المؤانسة فيك رغبة ، وطول العشرة لك
 محبة ، وامتحناني أفاعيلك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونة .

وكان من تمام شكري لربي ولي كل نعمة ، والمبتدئ بكل إحسان ،
 الشكر لك والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول وفعل ^(٤) ؛ لأن الله تبارك
 وتعالى نظم الشكر له بالشكر لذى النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلهما
 إلا معاً ؛ لأن أحدهما دليل على الآخر ، وموصول به . فمن ضيع شكر
 ذى نعمة من الخلق فأمر الله ضيع ، وبشاهده استخف ^(٥) .

ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال
 صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) في الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التي قبلها والتي بعدها من أحد
 أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتم القول .

(٣) في الأصل و د : « على الغباوة » ولم يعرف هذا الجمع للنبي ، ولا هو مقيس .
 وأثبت ما في م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . في الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما في د .

ولعمري إنَّ ذلك لَمَوْجُودٌ فِي الْفِطْرَةِ ، قَائِمٌ فِي الْعَقْلِ : أَنَّ مَنْ كَفَرَ نِعَمَ الْخَلْقِ كَانَ لِنِعَمِ اللَّهِ أَكْفَرُ ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ يُعْطَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْكُلْفَةِ وَالْمَشَقَّةِ ، وَثَقُلَ الْعَطِيَّةُ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَاللَّهُ يُعْطَى بِلا كُلْفَةٍ . وَلِهَذَا الْعَلَّةُ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ لَهُ وَالشُّكْرِ لَذَوِي النِّعَمِ مِنْ خَلْقِهِ .

فلما وجبت عَلَى الْحِجَّةِ بِشُكْرِكَ ، وَقُطِعَ عُذْرِي فِي مَكَافَأَتِكَ ، اعْتَرَفْتُ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ تَقْصِيِّ ذَلِكَ ، إِلَّا أَنِّي بَسَطْتُ لِسَانِي بِتَقْرِيطِكَ وَنَشْرِ مُحَاسِنِكَ . مَوْصُولٌ ذَلِكَ مِنِّي ^(١) عِنْدَ السَّامِعِينَ بِالاعْتِرَافِ بِالْعِجْزِ عَنْ إِحْصَائِهَا .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أُوْدِعَ عُرْفًا فَلْيَشْكِرْهُ ، فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ فَلْيَنْشُرْهُ ، فَإِذَا نَشَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَإِذَا كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » .

ثم رأيت أَنَّ قَدْ بَقِيَ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ يُمْكِنُنِي فِيهِ بَرُّكَ ، وَهُوَ عِنْدِي عَتِيدٌ ، وَأَنْتَ عَنْهُ غَيْرُ مُسْتَغْنٍ . وَالْمَنْفَعَةُ لَكَ فِيهِ عَظِيمَةٌ عَاجِلَةٌ وَآجِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ٤٢ و وَلَمْ أَزَلْ أَبْقَاكَ اللَّهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي قَدْ عَرَفْتُ ^(٢) ، مِنْ جَمْعِ الْكُتُبِ وَدِرَاسَتِهَا وَالنَّظَرِ فِيهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ طَوْلَ دِرَاسَتِهَا إِنَّمَا هُوَ تَصَفُّحُ عَقُولِ الْعَالَمِينَ ، وَالْعِلْمُ بِأَخْلَاقِ النَّبِيِّينَ ، وَذَوِي الْحِكْمَةِ مِنَ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَكُتُبِ أَهْلِ الْمَلَلِ .

فَرَأَيْتُ أَنَّ أَجْمَعَ لَكَ كِتَابًا مِنَ الْأَدَبِ ، جَامِعًا لِعِلْمٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَادِ وَالْمَعَاشِ ، أَصِفُ لَكَ فِيهِ عَالَمَ الْأَشْيَاءِ ، وَأُخْبِرُكَ بِأَسْبَابِهَا وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مُحَاسِنُ الْأُمَمِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « عِنْدِي » وَأُثْبِتُ مَا فِي د .

(٢) د : « عَلِمْتُ » .

وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظم ما أبرَّك به^(١) ، وأرجح ما أتقربُ به إليك .
وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ الله قَسَمَ لك من الفهم والعقل ،
وركَّب فيك من الطَّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء^(٢) أنَّ العقل المطبوع والكرم الغريزى لا يبلغان
غاية الكمال إلَّا بمعاونة العقل المكتسب . ومثَّلوا ذلك بالنَّار والخطب ،
والمِصباح والدَّهن . وذلك أنَّ العقل الغريزى آلة والمكتسب مادَّة ، وإنَّما
الأدب عقلٌ غيرك تزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قبلى قد عَهِدوا إلى الغابرين^(٣) بعدَم فى
الآداب عُموداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلَّا أنَّى رأيتُ أكثرَ
مارسَموا من ذلك فروعاً لم يبيِّنوا علَّها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها ،
وأموراً محمودةً لم يدلُّوا على أصولها .

فإنَّ كان ما فعلوا من ذلك [رواياتٍ روَّوها عن أسلافهم ، و^(٤)] وراثاتٍ
ورِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةً من استنبط^(٥) .
وإنَّ كانوا تركوا الدَّلالة على علل الأمور^(٦) التى بمعرفة علَّها^(٧) يُوصَل إلى

(١) د : « أسرك به » .

(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .

(٣) د : « الغابر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) د . « يستنبط » . م : « استطب » .

(٦) هذا ما فى الأصل و م . وفى د : « على أعيان الأمور » .

(٧) د : « اللاتى على معرفة علَّها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة علَّها »

وأثبت ما فى م .

مباشرة اليقين فيها ، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعُدُوا في ذلك منزلة الظن بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبة معها الأمثال .

فألقت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصل لك فيه الطبائع التي رُكب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون^(١) ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثم مبيّن لك كيف تفرق بهم الحالات ، وتفاوت^(٢) بهم المنازل ، وما العلل التي يُوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولم يختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال ، وحتى تُؤانس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النفار ؟ وكيف يُتأتى لِيُنْقَضَ^(٣) ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تُصرف إلى الشيم الحمودة ؟ ورأسم^٤ لك في ذلك أصولاً ، ومبيّن لك مع كل أصل منها علته وسببه .

(١) في الأصل : « متساوون » وأثبت ما في د .

(٢) أى تفاوت ، بحذف إحدى التاءين وفي د : « وتفاوت » .

(٣) د : « لنقض » .

وقد علمتَ أنَّ في كثيرٍ من الحقِّ مشبَّهاتٍ لا تُستبان إلا بعد النظر ،
وهناك يَخْتَلُ (١) الشَّيْطَانُ أَهْلَ الغفلة ، وذلك أنَّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن
الأمر الظاهرة (٢) .

فلم أدعُ من تلك المواضع الخفية موضعا إلا أقمتُ لك بإزاء كلِّ شبهة منه
دليلا (٣) ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقِّ حجة ظاهرة ، تستدبُّ لها غوامض البرهان
وتستبين بها دقائق الصواب (٤) ، وتستشِفُّ بها سرائر القلوب ، فتأتى ما تأتي
عن بينة ، وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثيرٍ
مما يغيب عنك ، إذا عرفت العال والأسباب ، حتَّى كأنك مشاهدٌ لضمير
كلِّ امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما ركَّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه
ثمَّ ؛ غير راضٍ لك بالأصول حتَّى أتقصى لك ما بلغه علمي من الفروع .
ثم لا أرسم لك من ذلك [إلا (٥)] الأمر المعقول في كل طبيعة ، والموجود
في فطر البرايا كلها (٦) . فإن أحسنت [رعاية (٧)] ذلك وأقمته على حدوده ،
ونزلاته منازلَه ، كان عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلا ، وفارقت ما لا بدَّ
لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

٤٣ و

(١) في الأصل : « يَخِيل » صوابه في د . ويختل : يخدع .

(٢) في الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما في د .

(٣) كلمة « منه » ليست في الأصل ، وإثباتها من م وفي د : « منها دليلا » .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) التكملة من د .

(٦) في الأصل : « في فطرة » ، وأثبت ما في د .

(٧) التكملة من د .

واعلم أنَّ الآدابَ إنما هي آلاتٌ تصلحُ أن تُستعملَ في الدِّينِ وتُسَمَّعَلْ في الدنيا ، وإنَّما وُضعت الآدابُ على أصولِ الطبائعِ . وإنَّما أصولُ أمورِ التدبيرِ في الدِّينِ والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ في الدِّينِ فسدت فيه المعاملةُ في الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحَّ في معاملاتِ الدُّنيا^(١) لم يصح في الدِّينِ . وإنَّما الفرقُ بين الدِّينِ والدُّنيا اختلافُ الدارين من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكمُ هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢) ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِّرَت أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّينِ ، فإنَّما ينتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدُّنيا^(٣) يكون جهله بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدةٌ وتلك غيبٌ^(٤) ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأولُ ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ؛ فإنَّها جماعُ كلِّ خير ، وسببُ كلِّ نجاة ، ولقاحُ كلِّ رشد . هي أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنعُ جُنَّة . هي الجامعةُ محبة قلوب العباد^(٥) ، والمستقبلةُ بك محبة قلوب من لا تجرى عليهم

(١) د : « في معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) في النسخ : « في الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : نقيض الغائبة .

(٥) في الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه في د .

نعمك^(١) . فاجعلها عدتَكَ وسلاحَكَ^(٢) ، واجعل أمر الله ونهيهِ نُصب عينيكَ .
وأحذرك ونفسى الله والاعتذار به ، والإدهان فى أمره ، والاستهانة
بعزائمه ، والأمن لمكره ؛ فقد رأيت آثاره^(٣) فى أهل ولايته وعداوته ،
كيف جعلهم للماضين عبرة ، وللغابرين مثلاً .

واعلم أن خلقه كلهم بريته ، لا وُصلة بينه وبين أحدٍ منهم إلا بالطاعة ،
فأولاهم به أكثرهم تزيُّداً فى طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور .

وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ، ومهد لك فى تمكين الغنى والبسطة
ما لم تنحله بحيلة^(٤) ، ولا بلغته بقوة^(٥) ، لولا فضله وطوله . ولكنّه مكنك
ليبلو خبرك ، ويختبر شكرك ، ويحصى سعيك ، ويكتب أمرك ، ثم يوفيك
أجرَكَ ، ويأخذك بما اجتاحت يدك أو يعفو ؛ فأهل العفو هو .

والله ابتلاءان فى خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة ، وابتلاء
بمصيبة . وبقدر عظمها يجب التكليف من الله عليها^(٦) ؛ فبقدر ما خوّلك من
النعمة يستأديك الشُّكر^(٧) .

(١) كلمة « محبة » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من د .

(٢) د : « عونك وسلاحك » .

(٣) د : « أثره » .

(٤) تنحله ، من النحلة وهى العطية . د : « ما لم تنله بحيلة » .

(٥) فى الأصل : « ولم تلقه بقوة » ، وأثبت ما فى د .

(٦) د : « وبقدر عظمهما يجب التكليف عليهما » .

(٧) استأداه المال ونحوه : استخرجه منه وطلب أدائه .

ولو تقصَّى الله على خلقه لعذبهم ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ^(١) ﴾ . ولكنه قبل التوبة ، وأقال العثرة ، وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا : ميزان قسط ، وحكم عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ قَمِنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ^(٢) ﴾ .

وهذا مثل ضربته الله ؛ لأنَّ الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يُعقل . وذلك أن أحداً من الخلق لا يخلو من هفوة أو زلة أو غفلة ؛ فأخبر أن من كان حسناته الراجحة على سيئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطب والعذاب أولى به .

وكذلك حكمه في الدنيا ؛ لأنه قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصلاح [في أفعالهم وإن هفوا ، وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور ^(٣)] على أفعاليهم ^(٤) ، وإن أحسنوا في بعض الأمور .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٠٢ — ٢٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « على أفعالهم » .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُعدّلون العادل بالغالب من فعله
وربّما أساء ، ويفسّقون الفاسق وربّما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها ، وإنّما
يُقضى على كلّ امرئ بما شا كلّ أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها
السياسة ، لا اختلاف بين الأمة فيها .

فلا تُغَبّنَنَّ حَظّكَ من دينك^(١) ، وإن استطعت أن تبلغ من الطّاعة
غاياتها فلنفسك تمهد ، وإلا فاجهد أن يكون أغلب أفعالك عليك الطّاعة^(٢) ،
مع الندامة عند الإساءة ، ويكون ميلك عند الإساءة ، إلى الله أكثر .
والله يوفّقك .

اعلم أن الله جلّ ثناؤه خلق خلقه ، ثمّ طبعهم على حبّ اجترار
المنافع^(٣) ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك^(٤) . هذا فيهم طبع
مرگب ، وجبلة مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه ؛ موجود في الإنسان
والحيوان ، لم يدّع غيره مدّع من الأوّلين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك
ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء ؛ [فنقصانه^(٥)] كزيادته تميل الطّبيعة معهما^(٦)
كميل كفتي الميزان ، قلّ ذلك أو كثر .

(١) في الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « أفاعيلك الطّاعة » ، وأثبت ما في د .

(٣) اجترار المنافع : اجتلابها . وكلمة « حب » ساقطة من د .

(٤) في الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه في د .

(٥) تسكّلة ضرورية ليترن بها الكلام .

(٦) في الأصل ، د : « معها » .

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع تحابِّ العباد ومكارههم . والنَّفس
في طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلو ، والعِزَّ والغلبة ، والاستطراف
والْتَنَوُّقُ^(١) ، وجميع ما تستلذُّ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبيقة ،
والطُّعوم الطَّيِّبة^(٢) ، والأصوات الموثقة ، والملابس اللذيذة . ومما كراهيته^(٣)
في طباعهم أصدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خلتان^(٤) غرائزُ في الفِطَر ، وكوامن في الطَّبع ؛
جِبَلَةٌ ثابتة ، وشيعة مخلوقة . على أنَّها^(٥) في بعض أكثر منها في بعض ،
ولا يعلم قدر القلَّة فيه والكثرة إلَّا الذي دبرهم .

٤٤ ظ

فلَمَّا كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك
مَلَاذَّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبُهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو تركهم
وأصل الطبيعة ، مع ما مكنَّ لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم ، صاروا إلى
طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارُّ . وإذا ذهباً كان ذلك سبباً للفساد ،
وانقطاع التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ؛ لأنَّ طَبْعَ النفس لا يسُّس بعطيةٍ
قليل ولا كثيرٍ مما حوته ، حتَّى تعوِّض أكثر مما تُعطى ، إمَّا عاجلاً
وإمَّا آجلاً مما تستلذه حواسُّها .

-
- (١) التَّنَوُّقُ في الشيء : التجوُّد والمبالغة فيه ، مثل التَّنَوُّق . وفي النسختين :
« التلون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .
(٢) في الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما في د .
(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « كراهته » .
(٤) يعني : « المحاب والمكاره » . وفي د : « التي وصفت لك تجمعها خلتان » .
ولا وجه لهذه الزيادة .
(٥) د : « إلَّا أنَّها » .

فَعِلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يَتَعَاطِفُونَ وَلَا يَتَوَاصِلُونَ وَلَا يَنْقَادُونَ^(١) إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ ،
وَأَنَّ التَّأْدِيبَ لَيْسَ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، [وَأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ^(٢)] غَيْرَ نَاجِعَيْنِ
فِيهِمْ إِلَّا بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ اللَّذَيْنِ فِي طِبَاعِهِمْ^(٣) . فَدَعَاهُمُ بِالْتَّرْغِيبِ إِلَى
جَنَّتِهِ ، وَجَعَلَهَا عَوْضًا مِمَّا تَرَكَوْا فِي جَنْبِ طَاعَتِهِ^(٤) ، وَزَجَرَهُمُ بِالْتَّرْهِيْبِ بِالنَّارِ
عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ بِعِقَابِهَا عَلَى تَرْكِ أَمْرِهِ . وَلَوْ تَرَكَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَالطَّبَاعَ
الْأَوَّلَ^(٥) جَرَوْا عَلَى سَنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَعَادَةِ الشَّيْمَةِ^(٦) .

ثُمَّ أَقَامَ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى حُدُودِ الْعَدْلِ ، وَمَوَازِينِ النَّصْفَةِ ، وَعَدَّهُمْ
تَعْدِيلًا مَتَّفِقًا ، فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٧) 》 .

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي تَدْيِيرِهِ الْخَلْلُ ، وَلَا جَائِزٌ
عِنْدَهُ الْحَابَاةُ ؛ لِيَعْمَلَ كُلُّ عَامِلٍ عَلَى ثِقَةٍ مِمَّا وَعَدَهُ وَوَعَدَهُ ، فَتَعَلَّقَتْ قُلُوبُ

(١) وَلَا يَنْقَادُونَ ، ساقطة من د .

(٢) التَّكْمِلَةُ من د .

(٣) د : « طِبَاعُهُمْ »

(٤) فِي الْأَصْلِ : « طَاعَتُهُمْ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي د .

(٥) الطَّبَاعُ : الطَّبِيعَةُ وَالسَّجِيَّةُ . قَالَ الزَّجَّاجِيُّ : « الطَّبَاعُ وَاحِدٌ مَذْكَرٌ كَالنَّحَاسِ
وَالنَّجَارِ » ، يَعْنِي بِكَسْرِ أَوَّلِهَا . انْظُرِ اللِّسَانَ (طَبِعَ) . وَفِي د : « وَالطَّبِيعُ الْأَوَّلُ » ،
وَكَلَّاهُمَا مَتَّجِهَ .

(٦) م : « وَعَادَاتُ الشَّيْمَةِ » .

(٧) الْآيَةُ ٧ — ٨ مِنْ سُورَةِ الزَّلْزَالِ .

العباد بالرغبة والرَّهبة ، فاطرَدَ التدبير ، واستقامت السَّياسة ، لموافقتهما^(١) ما في الفِطرة ، وأخذها بمجامع المصاحبة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَسْتَقِلُّ النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَدُّ .
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكَّارِ ، والنَّارُ بالشَّهواتِ^(٢) » . [يخبر أنَّ الطريق إلى الجَنَّةِ احتمالُ المكَّارِ ، والطريق إلى النار اتباعُ الشَّهواتِ^(٣)] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاَّ بما وصفتُ لك من الرَّغبة والرَّهبة ، فأعجزُ الناسَ رأياً وأخطأهم تدبيراً ، وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمَّلَ أو ظنَّ أوجهاً أنَّ أحداً من الخلق - فوقه أو دونه أو من نظرائه^(٤) - يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاً كلُّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظُمتُ أو صغُرت . فاجعلهما مثالك الذي تَحْتَذِي عليه ، وركنك الذي تَسْتَنِدُ إليه . واعلم أنَّك إنَّ أهملت ما وصفتُ لك عرَّضتَ تدبيرك للاختلاط .

(١) يعني الرغبة والرهبة . وفي الأصل : « لموافقتهما » ووجهه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد عن أنس ، ومسلم أيضاً عن أبي هريرة .
الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) في الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها مارأيت . وانظر ما سيأتي .

وإن آثرت الهويناء واتكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه
إلا نظرك ، وزجيت أمورك على رأي مدخول ، وأصل غير محكم ، رجع
ذلك عليك بما لو حُكِّم فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته ، وشفاء غيظه .

واعلم أن إجراءك الأمور مجاريها ، واستعمالك الأشياء على وجوهها ، يجمع
لك ألفة القلوب ، فيعاملك ^(١) كل من عاملك بمودة ، أو أخذ أو إعطاء ،
وهو على ثقة من بصرك بمواقع الإنصاف ^(٢) ، وعلمك بموارد الأمور .

واعلم أن أثرتك على غير النصيحة والشفقة ، والحرمة والكفاية ،
يوجب [لك ^(٣)] المباحدة وقلة الثقة من آثرته أو آثرت عليه .

فاعرف لأهل البلاء - ممن جرت بينك وبينه مودة أو حرمة ، ممن فوقك
أو دونك أو نظرائك - أقدارهم ومنازلهم . ثم لتكن أمورك معهم على قدر
البلاء والاستحقاق ، ولا تؤثر في ذلك أحداً لهوى ^(٤) ؛ فإن الأثرة على الهوى
توجب السخطة ، وتوجب استصغار عظيم النعمة ، ويمحق بها الإفضال ،
وتفسد عليها ^(٥) الطائفتان : من آثرت ومن آثرت عليه .

أما من آثرت ^(٦) فإنه يعلم أنك لم تؤثره باستحقاق بل لهوى ، فهو

(١) في الأصل : « ويعاملك » والوجه من د .

(٢) د : « بمواقع الإنصاف » .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « بهوى » .

(٥) في الأصل : « بها » وأثبت ما في د .

(٦) د : « آثرته » في هذا الموضع وسابقه .

مترقبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره، فتَحُولُ أثرتك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القلب في مودَّتكَ ، غير آمنٍ لتغيُّرك .

وأما من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطَّعن عليك ، وأعطيتَه الحُجَّةَ على نَفْسِكَ . فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ عاد ما أراد به النَّفعَ ضرراً ، والإصلاح [فيه ^(١)] فساداً .

وربما آثر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيَّة على بلاءٍ أبلاه ^(٢) ، فيعظمُ قدرُها ^(٣) عنده حتَّى لعلَّه تطيبُ نفسُه ببذلِ ماله ودمِه دونه ^(٤) . فإنَّ أعطى من أبلى كبلائه وكانت له مثل دالَّته ^(٥) ، أكثرُ ممَّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكلُّ مستحسنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر في العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصفَ في الثَّواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدَّمتَ منهم فقدَّمته على الاستحقاق ، وبصحة النِّيَّة في مودَّته ، وخلوص نصيحتِه لك ممَّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه ^(٦) ، وعلمتَ بتجربتك له ، أنَّه يعلم أنَّ صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وعطبه كائنٌ مع عطبك ، ففوّض

(١) التَّكَلُّفُ من د .

(٢) في الأصل : « بلا بلاءٍ أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) في الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه » .

(٥) في الأصل : « دلالته » ، صوابه في د .

(٦) في الأصل : « ممن قد بلوت في أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمر إليه ، وأشركه في خواصّ أمورك وخفيّ أسرارك ، ثمّ اعرف له قدره في مجلسك ومُحاورتك^(١) ومعاملتك ، في كلّ حالاتك ومزاولاتك في خلواتك معه^(٢) ، وبحضرة جلسائك ؛ فإنّ ذلك زيادة في نيته ، وداعية^(٣) لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتليت في بعض الأوقات بمن يضرب بحرمة^(٤) ويمت بدالة ، يطلب المكافأة بأكثر ممّا يستوجب ، فدعالك الكرم والحياء إلى تفضيله على من [هو^(٥)] أحقّ منه ، إمّا تخوفاً من لسانه^(٦) ، أو مداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذار إلى من فوقه من أهل البلاء والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لهم ؛ فإنّ أهل خاصّتك والمؤمنين على أسرارك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تستهين بشيء من أمورهم ؛ فإنّ الرجل قد يترك الشيء من ذلك اتكالاً على حسن رأى أخيه^(٧) ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتّى يولد ضغناً ويحول عداوة .

فتحفّظ من هذا الباب ، واحمل إخوانك عليه بجهدك .

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) في الأصل : « ومزاولتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ماقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد في نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكملة من د .

(٦) د : « تخوفاً » بدل « خوفاً » .

(٧) في الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه في د .

وستجد في من يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحُمَيَّا الشره ، ولين جانبك له ، على أن ينقم العافية ، ويطلب اللّحوق بمنازل من ليس هو مثله^(١) ، ولا له مثل دأته ، فتلقاه لما تصنع به مستقيلاً ، ولعروفك مُستصغراً .
وصلاح من كانت هذه حاله بخلاف ما فسّد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ، وداوِ كلَّ مَنْ لا بدّ لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه ، إن لنا فلينا ، وإن شدة فشدّة ؛ فقد قيل في المثل :

من لا يؤدبه الجيّد لُ في عقوبته صلاحه

وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد من معاشرته بُداً^(٢) ، بالعدل والنّصفه ، حتّى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا^(٣) .

فاحفظ هذه الأبواب التي يُوجب بعضها بعضاً ، وقد ضيّت لك أوائلها كونَ أواخرها . فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنّه متى كان الأوّل منها وجب ما بعده لا بدّ منه . فاحذر المقدمات اللّاتي يعقبها المكروه^(٤) ، واحرص على توطيد الأمور التي على أثرها السّلامة ، وألقح في البدئ الأمور التي نتاجها العافية^(٥) .

(١) د : « ويطلب اللّحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « حتّى يجعل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التي » .

(٥) البدئ : الأول . في الأصل : « والفتح في بدئ » صوابه في د . وفي د :

« أموراً نتاجها العافية » . وفي الأصل : « ونتاجها » .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : المنفعة تُوجب المحبة ، والمضرة
توجب البغضاء^(١) ، والمُضادة تُوجب العداوة ، وخلاف الهوى يُوجب
الاستئثار ، ومتابعته تُوجب الألفة ، والصّدق يُوجب الثقة ، والكذب
يُورث التهمة^(٢) ، والأمانة تُوجب الطمأنينة ، والعدل يُوجب اجتماع القلوب ،
والجور يُوجب الفرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودة ، وسوء الخلق يُوجب
المباعدة^(٣) ، والانبساط يُوجب المؤانسة ، والانقباض يُوجب الوحشة ،
والتكبر^(٤) يُوجب المقت ، والتواضع يُوجب المِقة ، والجود بالقصد يُوجب
الحمد^(٥) ، والبخل يُوجب المذمة ، والتواني يُوجب التضييع ، والجدّ يُوجب
رخاء الأعمال ، والهويناء تُورث الحسرة ، والحزم يُورث الشّور ، والتّغريز
يُوجب الندامة ، والحذر يُوجب العذر ، [وإصابة التدبير تُوجب بقاء النعمة^(٦)]
والاستهانة تُوجب التّباعى ، والتّباعى مقدّمة الشرّ^(٧) وسبب البوار .

٤٦ ظ

ولكلّ شيء من هذا إفراط وتقصير^(٨) ، وإنّما تصحّ نتائجها إذا أُقيمت
على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولّد منها ، لا بدّ منه

(١) د : « لبغضة » .

(٢) في الأصل : « النّيمة » ، صوابه في د .

(٣) د : « التّباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساق هذا مع سائر الأسلوب .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « مقدّمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَزَحَلْ عَنْهُ ، عَلَيْهِ عَادَةُ الْخَلْق ، وَبِهِ جَرَتْ طِبَائِعُهُمْ ، وَتَمَامُ الْمَنْفَعَةِ بِهَا
إِصَابَةُ مَوَاضِعِهَا :

فَالْإِفْرَاطُ فِي الْجُودِ يُوجِبُ التَّبْذِيرَ ، وَالْإِفْرَاطُ فِي التَّوَاضُعِ يُوجِبُ
الْمَذَلَّةَ ^(١) ، وَالْإِفْرَاطُ فِي الْكِبَرِ يَدْعُو إِلَى مَقْتِ الْخَاصَّةِ ^(٢) ، وَالْإِفْرَاطُ فِي
الْمُؤَانَسَةِ يَدْعُو خَطَاءَ الشُّؤْمِ ^(٣) ، وَالْإِفْرَاطُ فِي الْإِنْتِبَاضِ يُوحِشُ ذَا النَّصِيحَةِ .
وَأَفَةُ الْأَمَانَةِ اثْنَانِ الْخَانَةُ ^(٤) ، وَأَفَةُ الصَّدْقِ تَصْدِيقُ الْكَذْبَةِ ، وَالْإِفْرَاطُ فِي
الْحَذَرِ يَدْعُو إِلَى أَلَّا يُوثَقَ بِأَحَدٍ ؛ وَذَاكَ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . [وَالْإِفْرَاطُ فِي الْمَضَرَّةِ
مَبْعُوثَةٌ عَلَى حَرْبِكَ ^(٥)] ، وَالْإِفْرَاطُ فِي جَرِّ الْمَنْفَعَةِ غَنَاءٌ لِمَنْ أَفْرَطَتْ فِي نَفْعِهِ عَنْكَ .
وَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ أَنْ يَخْتَدِعَكَ الشَّيْطَانُ عَنْ الْحَزْمِ ^(٦) فَيَمِثِّلَ لَكَ
التَّوَانِيَّ فِي صُورَةِ التَّوَكُّلِ ، وَيُسَلِّبَكَ الْحَذَرَ ، وَيُورِثَكَ الْهُوَيْنَا بِإِحَالَتِكَ عَلَى
الْأَقْدَارِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْحِيلِ ، وَالتَّسَلُّيمِ لِلْقَضَاءِ بَعْدَ
الْإِعْذَارِ ، بِذَلِكَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ ، وَأَمَضَى سُنَّتَهُ فَقَالَ : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ^(٧) ﴾ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « يورث المذلة » ، وَأُثْبِتَ مَا فِي د .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « يدعو العقب الخاصة » ، صَوَابُهُ فِي د .

(٣) بَعْدَهُ فِي الْأَصْلِ : « وَالْإِفْرَاطُ فِي الْحَذَرِ يَدْعُو إِلَى أَنْ لَا يُشَقَّ بِأَحَدٍ » ،
وَهُوَ تَكَرَّرَ لَمَّا سَيَأْتِي نَحْنُ أَنْتَفَقَتْ عَلَيْهِ النُّسَخَتَانِ .

(٤) الْخَانَةُ : جَمْعُ خَائِنٍ ، وَفِي اللِّسَانِ : « وَالْجَمْعُ خَانَةٌ وَخُونَةٌ ، الْأَخِيرَةُ شَاذَةٌ » .
وَنَظِيرُ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ فِي الشَّدُوذِ حَائِكٌ وَحَوَكَةٌ .

(٥) التَّكْمِلَةُ مِنْ د .

(٦) هَذَا مَا فِي د . وَفِي الْأَصْلِ : « الْحَرَصُ » .

(٧) الْآيَةُ ٧١ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ .

﴿ وَلَا تُقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(١) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم :
« اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »^(٢) . وسئل ما الحزم ؟ فقال : الحذر^(٣) .

فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ،
ولذلك قالت الحكماء : « العادة أم لك بالأدب »

فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة ، وضرها بكل ما لا يُدَمَّ من
الأخلاق^(٤) يصير ذلك طباعاً^(٥) ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

واعلم أن الذي يُوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند
النوائب ، مع بعض التفضل على الراغبين . وإذا أُوجب^(٦) لك اسم الجود
زال عنك اسم البخل .

واعلم أن تثير المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، ومُتَأَلِّفٌ للإخوان ؛
وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ؛ ومن لم يكن بموضع
رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره^(٧) .

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ .
ورواه الطبراني : « قيدها وتوكل » . أسنى المطالب لحمد بن درويش البيروني ص ٤٤ .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « قال الحذر » .

(٤) في الأصل : « الإخلاص » صوابه في د . والتضرية : التعويد ، والضراوة :
العادة .

(٥) الطباع : الطبع والهيئة . وانظر ما سبق في حواشي ١٠٤ . د . طبعا » .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما في د . وفي الأصل : « به » .

فاجهد الجهد كله ألا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ، ولا تميم معه لقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه ^(١) فقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ^(٢) 》 . وقالت الحكماء : « القصْد أبقى للجَمَام ^(٣) » .

فداومْ حالك وبقاء النعمة عليك ، بتقديرك أمورك على قدر الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر ^(٤) :

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كِبَا كِبَوَةً لَمْ يَسْتَقِلْهَا مِنْ خُطَى الدَّهْرِ
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى مَا خَطَا وَاجِرٍ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي ^(٥)
واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإ بلاغ بالمنطق في موضعه ، وعند إصابة فرصته . وذاك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عيياً ^(٦) ولا رهبة . فليزدك في الصمت رغبة ماترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص ، وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة .

(١) في الأصل : « وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ، صوابه في د .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العتاهية ، كما في البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ نقلا عن الأغاني ٣ : ١٦٤ .

(٥) في الأصل والبيان : « إذا ما خطا » ، وأثبت ما في د وبعض أصول البيان .

(٦) العي : العجز . وفي الأصل : « عياء » ، صوابه في د .

واعلم أن الجبن جبنان ، والشجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعة إلا في كل أمر لا يدرى مآقبته ، يُخاطر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردت الحزم في ذلك فلا تشجع نفسك على أمر أبداً إلا والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظم مما تبذل فيه في المستقبل ، ثم يكون الرجاء في ذلك أغلب عليك من الخوف .

وها هنا موضع يحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين ، أو خوفاً لعارٍ تُسبُّ به الأعقابُ فأنت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظم منفعتُهُ في الدنيا^(١) إلا أنك لا تناله إلا بالمخاطرة بمهجة نفسك^(٢) أو بتعريض كلِّ مالكٍ للتلف ، فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ، ولكن حماقة بينة عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس^(٣) :

* لا يرسل السَّاقَ إلا ممسكاً ساقاً^(٤) *

(١) في الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما في د .

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشقى بنفسه على خطر الهلك . وفي الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفي د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) في الأصل : « ممسك » صوابه في د . وهو يحجز بيت لأبي دواد الإيادي ، من أبيات رواها العسكري في الجهرة ٢١٢ . وانظر اللسان (حرب ، سوق) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٢ وأمثال الميداني ١ : ٢٠٢ وديوان المعاني ١ : ٢٣٨ والمختص ٨ : ١٠٣ . صدره :

* أنى أتيح له حرباء تنضبة *

وقالوا : « لا تُخرج الأمر كله من يدك وخذ بأحد جانبيه ^(١) » .
ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .
واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث خلال :
أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة
ولنفسك نظرا ؛ فإن كثرة الأعداء تنغيصُ للشُرور ، وقد قال الله تبارك
وتعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ^(٢) ﴾ .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك فخصَّ عنه أسرارك ، وعمَّ عليه
آثار تدبيرك ^(٣) ، ولا يطلعنَّ على شيء من مكائدتك له ^(٤) بقول ولا فعل ،
فياخذ حذرَه ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذٌ بأزمة
التدبير ، والإكثار من الوعيد للأعداء فشل ^(٥) . ولكن داج عدوك
ما دجاك ، وأحص معايبه ما لاحاك .
وقال الشاعر ^(٦) :

كلُّ يداجي على البغضاء صاحبه زَ كِنْتُ منهم على مثل الذي زَ كِنُوا ^(٧)

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكائدتك » .

(٥) هذا ما في د . وفي الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قعنب بن أم صاحب ، كما في اللسان (زكن) . وانظر أبياتاً من قصيدة

البيت في الحماسة (باب الهجاء) بشرح التبريزي .

(٧) زكن بمعنى علم . وعداه بعلى لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أنَّ أعظمَّ أعوانك عليه الخجج [ثمَّ الفرصة ^(١)] ، ثمَّ لا تُظهرنَّ عليه حُجَّةً ، ولا تهتبلُ منه غِرَّةً ، ولا تطلبنَّ له عَثْرَةً ، ولا تهتكنَّ له سِتْرًا [إلَّا] عند الفرصة في ذلك كُلِّه ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العذرُ ويعظم فيها ضررُه ، إن كان العفو عنه شرًّا له .

وإن كان ممن يُظهر لك العداوة ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعيالك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين ^(٢) : استبطانِ الحذر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به ^(٣)] . ولستَ مستظهرًا عليه ٤٨ و
بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب .
فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أنَّ إشاعة الأسرار فسادٌ في كلِّ وجهٍ من الوجوه ، من العدوِّ والصديق ^(٤) . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الخوائج بسِتْرِها ؛ فإنَّ كلَّ ذى نعمة محسود ^(٥) » .
وإذا أفشيتَ سِرَّك فجاءتِ الأمورُ على غير ما تقدَّر كان ذلك منك فضلًا من قولك على فعلك ^(٦) . وقد قيل في الأمثال : « من أفشى سِرَّه كثر المتآمرون

(١) التكملة من م .

(٢) د : « حالتين » .

(٣) التكملة من د .

(٤) هذا مافى د . وفي الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه . « فلا تَضَعْ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَضُرُّهُ نَشْرُهُ كَمَا يَضُرُّكَ ، وَيَنْفَعُهُ سِتْرُهُ بِحَسَبِ مَا يَنْفَعُكَ ^(١) . »

واعلم أنَّكَ ستصحب من الناس أجناساً متفرقةً حالاتهم ، متفاوتةً منازلهم ، وكلُّهم بك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تسدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ، [ومنهم من تريده للحفظ والأمانة ^(٢)] ، ومنهم من تريده للشدة والغلظة ، ومنهم من تريده للمهنة . وكلُّ يسدُّ مسدَّه على حياله . وقد قيل في الحكمة : « إنَّ الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف » .

ولا تخلين أحداً منهم - عظم قدره أو صغرت منزلته - من عنايتك وتعهدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثرة ؛ ليعلموا أنَّهم منك بمرأى ومسمع . ثمَّ لا تجوزنَّ بأحدٍ منهم حدَّه ، ولا تدخله فيما لا يصلح له ، تستقمَّ لك حاله ، ويتسقَّ لك أمره ^(٣) .

واعلم أنَّه سيمرُّ بك في معاملات الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها ، وكال العقل والأدب منها ، أنْ تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها ، وتكفَّ من جماعها ^(٤) ، بالأمر الذي لا يخرجك في دينك ^(٥) ولا عرضك ولا بدنك ، بل يفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهي أمور مختلفة ، تجمعها حال واحدة .

(١) في الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه في د . (٢) التكملة من د .

(٣) يتسق : ينتظم . وفي الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما في د .

(٤) في النسختين : « عن جماعها » .

(٥) في الأصل : « بأمر لا يخرجك في دينك » . صوابه في د .

منها : أن تأتيَ محفلاً فيه جمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقّه حتى يكون أهله [الذين ^(١)] يرفعونك ، فتظهر جلالتك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يفيض القومُ في حديثٍ ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإن ناستهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوكَ ذلك ، فصرتَ كأنك ممتنٌ عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتبارى جُساؤك - والمِراءُ نتاجُ اللّجاجة وثمرةُ أصلها الحميّة - فإن ضبطتَ نفسك كان تحاكُمهم إليك ، ومعوّلهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسبِ العلوِّ والغلبة - أن في تركيبها بغضٌ من استتالٍ عليها . فاستدعِ محبةَ العامّة بالتواضع ، ومودةَ الأخلاء بالمؤانسة والاستشارة ، والثقة والطمانينة .

واعلم أن الذي تُعامل به صديقك هو ضدُّ ما تعامل به عدوك . فالصديق وجهُ معاملته المسالمة ، والعدو وجهُ معاملته المداراة ^(٢) والمواربة ، هما ضدّان يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا ^(٣) ، وكلّما نقصت من أحدِ البابين زاد في صاحبه ، إن قليلٌ فقليلٌ ، وإن كثيرٌ فكثيرٌ ^(٤) .

(١) التكملة من د .

(٢) د : « المداراة والمسالة » ، وكلمة « والمسالة » مقحمة .

(٣) د : « فصلاح هذا ما أفسدها »

(٤) د : « إن قليلاً فقليل وإن كثيراً فكثير » .

فلا تَسْلَمْ بالمواربةِ صداقةً ، ولا تَظْفَرْ بالعدوِّ مع الاستسلام إليه . فضع الثقةَ موضعها ، وأقم الحذرَ مقامه ^(١) ، وأسرعْ إلى التفهيمِ بالثقة ، ولا تبادرْ إلى التصديق ، ولا سيما بالحالِ من الأمور .

واعلمْ أنَّ كلَّ عليمٍ بغائبٍ ، كأنَّما ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غايةِ الإحاطات ؛ لاستثثارِ الله بها . ولن تهنأَ بعيشٍ مع شدةِ التحرُّز ، ولن يتسَّقَ لك أمرٌ مع التضييع ^(٢) . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يدرك بالعيان ، فسبيلُ العلم به الاختبار المتواترة ، التي يحملها الوليُّ والعدوُّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضة في الناس ، فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجه يستوى فيه العالم والجاهل .

وقد يحىء خبرٌ أخصَّ من هذا ^(٣) إلاَّ أنَّه لا يُعرف إلاَّ بالسؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقومٍ نقلوا خبراً ، ومثلُك يحيط علمه ^(٤) أنَّ مثلهم في تفاوت أحوالهم ، وتباعدهم من التعارف ، لا يُمكن ^(٥) في مثله التواطؤ وإنَّ جهل ذلك أكثر الناس . وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذب ^(٦) ، ولا يتهيأ الاتفاق فيه على الباطل .

(١) د : « مكانه » .

(٢) في الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .

(٣) في الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه في د .

(٤) د : « وعلمك يحيط » ، فقط .

(٥) د : « لا يكون » .

(٦) د : « يشنع الكذب » .

وقد يحى خبر أخص من هذا ، يحمله الرجل والرجلان من يجوز أن يصدق ويجوز أن يكذب ، فصدق هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسن الظن بالخبر ، والثقة بعدالته . ولن يقوم هذا [الخبر ^(١)] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأولين [أبدأ ^(١)] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنع بالدين ^(٢) واستوى الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعض الأمانة عن خيانة ^(٣) ، وبعض الصادقين عن كذب ، وأن مثل ^(٤) الخبرين الأولين لم يتعقب الناس في مثلهما كذباً قط ، علم أن الخبر إذا جاء من مثلهما جاء بحىء اليقين ، وأن ما علم من خبر الواحد فإنما هو بحسن الظن والائتمان ^(٥) .
فهذه ^(٦) الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فأما العلم بما غاب مما لا يدركه أحد بعيان ، مثل سرائر القلوب

(١) التكملة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر . والتصنع : تكاف حسن السمعة وإظهاره والتزين به والباطل مدخول . اللسان : (صنع ٧٩) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإنما يُدرك علمها بآثار أفعالها وبالعالم^(١) من أمورها ، على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

وأولُ العلم بكلِّ غائبِ الظُّنون ، والظُّنونُ إنما تقع في القلوب بالدلائل ، فكأما زاد الدليل قوَى الظنِّ حتّى ينتهى إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة^(٢)] .

فمن عرف ما طُبِع عليه الخلق وجرت به عاداتهم ، وعرف أسباب اتصالهم واتصاله بهم ، وتقصّى عَالَمَ ذلك ، كان خليقاً - إن لم يُحِطْ بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فقال [بها^(٣)] الجاهل في نفسه ، المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التّضييع والاتّكال على مثل تلك الحال ؛ فإنّ الحكماء قد أجمعت أن مَنْ أَخَذَ بالحزم وقَدَّمَ الحذر ، نجّات المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجبَ عذراً ، ممّن عمل بالتفريط وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد .

(١) في الأصل : « وبالعالم » ، صوابه في د .

(٢) التكملة من د . والكلام بعده إلى « والله يوقفك » في ص ١٢٣ انتقل في الأصل إلى ما يلي « والمواظبة عليه » في ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أُجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكملة من د .

ولعمري ما يكاد ذلك نجىء إلا في أقل الأمور ، [وما كثر مجيئه
 السَّلاماتِ إلا لمن أتى الأمور]^(١) [من وجوهها وإنما الأشياء بعوامها]^(٢) . فلا تكون
 شيء مما في يدك أشدَّ ضنَّا ، ولا عليه أشدَّ حدبًا ، منك بالأخ الذي قد بلوته في
 السَّراء والضَّراء ، [فعرفت مذاهبه]^(٣) [وخبرت شيمه] ، وصحَّ لك غيبه ، وسامت
 لك ناحيته ؛ فإنما هو شقيقُ روحك^(٤) وباب الرُّوح إلى حياتك ، ومُستمدُّ
 رأيك وتوأم عقلك^(٥) . ولست منتفعًا بعيش مع الوحدة . ولا بدَّ من المؤانسة ،
 وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المسكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به
 أشدَّ ضنَّا منك بنفائس أموالك ، ثمَّ لا يزهَّدنك فيه أن ترى منه خلقًا أو خلقين
 تكرههما ؛ فإنَّ نفسك التي هي أخصُّ النفوس بك لا تُعطيك المقدَّاة في كلِّ
 ما تريد ، فكيف بنفس غيرك !

وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : « من
 لك بأخيك كله »^(٦) ، و « أيُّ الرجال المهذب »^(٧) .

ثم لا يمنعك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء^(٨) فإنهم جندٌ مُعدُّون

(١) التَّكْملة من د .

(٢) يعني أن العبرة في الأحكام بالأعمِّ الغالب .

(٣) التَّكْملة من د .

(٤) د : « شق روحك » . ه : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأ كثم بن صيفي . المعمرين ١٢ .

(٧) من قول النابغة الذبياني في ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[لك^(١)] ينشرون محاسنك ، ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطرافُ
صديق ثانٍ^(٢) على ملالةٍ للصديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع
ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء^(٣) جميعاً في إخوانك .
والله يوفقك^(٤) .

وستجد في الناس من قد جرّبته الرجالُ قبلك ، ومحضه اختبارهم لك .
فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشدة وحالات الضرورة ، فنافس فيه
واسبق^(٥) إليه ؛ فإن اعتقاده أنفسُ العقد^(٥) . ومن بلاء غيرك فكشف عن
كفر النعمة ، والغدر عند الشدة ، فقد حذركَ نفسه وإن أنسك^(٦) وكما غدر
بغيرك يغدر بك ؛ فإن من شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومن طبيعته
الغدر لا يفي لأحد^(٧) ، وإنما يميل مع الرّجحان : يذلُّ عند الحاجة^(٨) ويشمخ
مع الاستغناء .

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أن الحكماء لم تدم شيئاً ذمّها
أربع خلال :

(١) التكلمة من د .

(٢) في الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) في الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما في د .

(٤) د : « موفقك » .

(٥) أراد أنفس ما يقتنى . وأصل العقدة الضيقة يقتنيها الرجال .

(٦) في الأصل : « وأنسك » وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما في د .

(٨) د : « في وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .

الكذب فإنه جماع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده .

والغضب فإنه لؤم وسوء مقدرة ؛ وذلك أن الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس^(١) ، فإن جاء الإنسان خلاف ما يهوى ممن فوقه أغضى وسمى ذلك حزناً ، وإن جاء ذلك ممن دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب ، والمقدرة والبسطة على البطش^(٢) .

والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ؛ فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع مع علمه بفوت الجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن اختلف فرعاهما .

وذموا الحسد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام ، وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدي عليه شيئاً^(٣) . فالحسد اغتمام ، والغدر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنه لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، وخمول قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم .

(١) د : « النفوس » .

(٢) في الأصل : « والمقدر والبسطة » ، وفي د : « والمقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تلائم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذلك شيء » ، تحريف .

وبقدر ما ذمَّت الحُكَماء هذه الأخلاق الأربعة^(١) ، فكذلك حمّدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثر في تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كريم ، وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسامُ الأمور في الدنيا والدين^(٢) .

فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومثلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها نفسك ، وحكّمها في أمرك ، تفز بالراحة في العاجل^(٣) ، والكرامة في الآجل .
والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبر على ما ترجو فيه الغنم في العاقبة .
والحلم حلمان : فأشرفهما حلمك عنّ هو دُونك . والصدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرّك . والوفاء وفاءان : أسناها وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . فإنّ مَنْ عُرِف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نُسِب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استقامت بالثقة به الجماعات^(٤) ومن استعزّ بالصبر^(٥) نال جسيمات الأمور .

ولعمري ما غلِطت الحُكَماء حين سمّتها أركان الدين والدنيا .
فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان^(٦) ، فهن^(٧) تمام كلِّ

(١) في الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « في الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « في العاجل والآجل » .

(٤) يقال استقام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . في الأصل :

« واستقامت بالثقة به الجماعة » ، صوابه في د . وانظر ص ١٢٩ .

(٥) د : « امتعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأمان أيضاً . في الأصل : « توأم » في الموضعين ، وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « فهين » ، وفي د : « هنهن » ، والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاخ كل دنيا . وأضدادهن سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .
واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظر فيها ، مع
اشتغالها على الفساد ، وقدحها البغضاء في القلوب ، والعداوة بين الأوداء :
المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، مع اجتماع الإنس جميعاً على
الصورة^(١) وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدّمامة ،
والأؤم والكرم ، والجبن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ،
ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الأدميين . وهذا غير مدفوع
عند الجميع .

فلا تجعلن له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً ، تسلم بذلك على
الناس أجمعين ، مع السلامة في الدين .

واعلم أنك موسومٌ بسياً من قارنت ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من
صاحبت . فتحرّز من دُخلاء السوء ، ومجالسة أهل الرّيب^(٢) ، وقد جرّت
لك في ذلك الأمثال ، وسطّرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعل
نفسه^(٣) » ، وقالوا : « يُظنُّ بالمرء ما ظنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكله ،
والمراء باليفقه » .

٥٠ ظ

ولن تقدر على التحرّز من جماعة الناس^(٤) ، ولكن أقلّ المؤانسة

(١) أي اتفاقهم جميعاً في الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وأظهر مجانبه أهل الريب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إلا بأهل البراءة من كل دَس . واعلم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يُعرف ،
وبالمستفيض من أفعاله يُوصف ، وإن كان بين ذلك كثير من أفعاله ^(١) الغاه
الناس وحكموا عايمه بالغالب من أمره .

فاجهد أن يكون أغاب الأشياء على أفاعيلك كل ما تحمده العوام ^(٢)
ولا تذمه الجماعات ، فإن ذلك يعنى على كل خال إن كان .
فبادر السنة الناس فاشغلها بحاسنك ، فإنهم إلى كل سيئ سراع ^(٣) ،
واستظهر على من دونك بالتفضل ، [وعلى نظرائك ^(٤)] بالإينصاف ، وعلى من
فوقك بالإجلال . تأخذ بوثائق الأمور ، وأزمة التدبير .

واعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة ، واطراحه كله دليل على قلة
الاكتراث لأمر الصديق ^(٥) . فكن فيه بين أمرين : عاتبه فيما تشتركان في
نفعه وضرره وذلك في الهيئات ^(٦) ، وتجاو له عن بعض غفلاته تسلم لك
ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب
بالبهاء ، وربما أورت الملالة ؛ وطول الهجران يعقب الجفوة ، ويحل عقدة

(١) في الأصل : « خلافة » ، ووجهه من د .

(٢) في الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه في د . وفي د أيضاً : « ماتحمده
العوام » .

(٣) في النسختين : « إلى كل شيء » والوجه ما أثبت . وفي م : « إلى كل شر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) في الأصل : « الأمن » وفي د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال
ما اكرث به وما اكرث له ، أى ما بالى به . وأثبت الوجه الذى يقتضيه الجمع
بينهما .

(٦) د : « الهنات » ، وكلاهما متجه .

الإخاء ، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة^(١) وقد قال الشاعر^(٢) :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عدد الآلى

فما يسلي حبيبك مثل نأي ولا يبلى جديداً كابتدال^(٣)

[وزر غيباً إذا أحببت خلاً فتحظى بالوداد مع اتصال^(٤)]

واقصد في مزاحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرئ عليك أهل الدناءة . وإن التقصير فيه يقيض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزح بالذي يسوء معاشرتك .

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيت يتخلق به ، وذاك أن تحمله شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسبب ذلك يورث الشرف وحميد الذكر : ألا يحدث لك انحطاط من حطت الدنيا من إخوانك استهانة به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصغاراً ؛ بل إن زرتة قليلاً كان أشرف لك ، وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً وإثارة له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون مسلطاً تخاف شذاه ومعرته^(٥) ، وترجو عنده جر منفعة لصديق ، أو دفع مضرة

(١) هذا مافى د . وفي الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح الرزوقي ١٣٠٠ وشروح

سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحدة . والمعرة :

الأذى .

عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزال هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخِيلاءه وزَهْوَه يُحْتَمَل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعذَّر فيه ما لا يُعذَّر في سواه ^(١) .

واعلم أنَّ نشرَ محاسنك لا يليق بك ، ولا يُقبل منك ^(٢) ، إلّا إذا كان القولُ لها على السُّن أهلِ المروءات ، وذوِي الصّدق والوفاء ، ومن يَنْجَم قوله في القلوب ممَّن يُستَنام إلى قوله ، ويُصدّق خبره ، ومن إنَّ قال صدق ، أو مدح اقتصد ، يُدْنِي بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف ^(٣) الثناء على قدر النعمة يولّد في القلوب التكذيب ، ويدلّ على طلب العزّاء .

فأمّا ثناء المادحين لك في وجهك ، فإنّما تلك أسواق أقاموها للأرباح ، وساهلوك في المبايعة ، ولم يكن في الثناء عليهم كلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طرق المكارم ، والمثبّطون عن ابتناء المعالي .

فارتدّ لِنِعَمِكَ مَغْرَسًا تنمو فيه فروعُها ، وتزكو ثمرُها ، لا تذهب نفقتك ضياعاً ، إمّا لعاجِلٍ تقدّمه ، أو لآجِلٍ ثناء تنفع به ^(٤) .

ولن تعدَم أن يفجأك في بعض أحوالك حقوقٌ تبهّطك ، وأحوالٌ تفدحك ، وأمورٌ كلّها تتقسّم عنايةً ، وفي الثبّت في مثاها تُعرف فضيلتك ،

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنفع به » في س ١٢ ماقط من د .

(٢) في الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة . وفي الأصل : « إشراف » .

(٤) انظر ماسبق في التنبيه الأول .

فلا تستقبلها بالتضجّع وتفتير الرأي^(١) ، وابدأ منها بأعظمها منفعة ، وأشدّها خوف ضرر . وكلّ ما أعجزك إلى الكفاة ، واعتذر من تقصير إن كان ؛ فإنّ الاعتذار يكسر حُمَيّا اللأئمة^(٢) ، ويردع شذاة الشرّة .

ثمّ تلاف بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك^(٣) ، واجهد الجهد كلّهُ أن تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها^(٤) ببشرى وطلاقة وجهك ؛ فقد زعمت الحكماء أن القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوى المروءات من الكثير مع العُيوس والانقباض^(٥) .

٥١ ظ

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يلقوا ما يحبون ويحرّموا ، أحبّ إليهم من أن يلقوا ما يكرهون ويعطوا » .
[وما أبعدوا عن الحقّ^(٦)] .

ولا يدعونك كفر كافرٍ لبعض نعمك^(٧) ممن آثر هواه على دينه

(١) التضجّع ، يقال تضجّع في الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفي د : « وتغبين الرأي » .

(٢) الحميا : السورة والشدة والحدة ، وأصله من كسر حميا الشراب بمزجه بالماء . في الأصل : « حمى اللأئمة » ، ووجهه في د .

(٣) في الأصل « الانكشاف » وفي د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت . وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » في س ه ساقط من د .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومروءته ، أو غَدْرُهُ غادرٍ تصَنَّعَ لَكَ وَخَتَلَكَ عَنْ مَالِكَ ، أَنْ تَزْهَدَ
فِي الْإِنْعَامِ^(١) ، وتَسِيءَ بِثِقَاتِكَ الظُّنُونُ ؛ فَإِنْ هَذَا مَوْضِعٌ يَجِدُ الشَّيْطَانُ فِي مِثْلِهِ
الذَّرِيعَةَ إِلَى اسْتِفْسَادِ الصَّنَائِعِ^(٢) ، وتعطيلِ المكارم .

واعلم أَنَّ استصْفَارَكَ نِعَمَكَ يَكْبِّرُهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ ، وَتُتْرَكُ لَهَا نَشْرُ
لَهَا عَنْدهُمْ ؛ فَانْشُرْهَا بَسْتَرِهَا ، وَكَبِّرْهَا بِاسْتِصْفَارِهَا .

واعلم أَنَّ مِنَ الْفِعْلِ^(٣) أَفَاعِيلَ وَإِنْ عَظُمَتْ مَنَافِعُهَا ، وَمَنَافِعُ أَضْدَادِهَا
فَلَا يَثَارُهَا فَضِيلَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ . فَاجْعَلْ صِمَّتَكَ أَكْثَرَ مِنْ كَلَامِكَ ؛ فَإِنَّهُ أَدْلُ
عَلَى حِكْمَتِكَ . وَاجْعَلْ عَفْوَكَ أَكْثَرَ مِنْ عَقُوبَتِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْلُ عَلَى كَرَمِكَ .
وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِيهِ كُلَّ الْإِفْرَاطِ حَتَّى تَطْرِحَ الْكَلَامَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَالتَّأْدِيبَ
فِي أَوَانِهِ .

واعلم أَنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ سَيِّدًا مِنْ عَمَلِهِ ، قَدْ سَاهَلَتْهُ فِيهِ نَفْسُهُ وَسَلِسَ لَهُ
فِيهِ هَوَاهُ ، فَتَحْفَظُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَتَقَاضِيهِ الزِّيَادَةَ فِيهِ ، وَرُضُهَا عَلَى تَشْمِيرِهِ
وَالْمَوَاطَبَةِ عَلَيْهِ^(٤) .

وَاحْذَرِ الْحَذَرَ كُلَّهُ الْإِغْتِرَارَ بِأُمُورِ ثَلَاثَةٍ ؛ فَإِنَّ مِنْ عَطَبٍ بِهَا كَثِيرٍ ،
وَتَلَافِيهَا صَعْبٌ شَدِيدٌ :

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْإِعْاض » ، وَأُثْبِتَ مَا فِي د .

(٢) الصَّنَائِعُ : جَمْعُ صَنِيعَةٍ ، وَهُوَ مَا أُعْطِيَتْهُ وَأَسْدَيْتَهُ مِنْ مَعْرُوفِ أَوَيْدٍ إِلَى
إِنْسَانٍ تَصْطَنِعُهُ بِهَا . وَفِي الْأَصْلِ : « الطَّبَائِعُ » ، صَوَابُهُ فِي د .

(٣) د : « الْأَفَاعِيلُ » .

(٤) انْظُرْ مَا سَبَقَ مِنَ التَّنْبِيهِ فِي ص ١٢١ .

أحدها : ألا تولى جسامهم تصرفك وتقلد مههم أمورك^(١) ووثنائق تدبيرك
إلا امرأ صلاحه موصول بصلاحك ، وبقاء النعمة عليك هو بقاء
النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تغتر^(٢) بمن تعلم أن بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك
انحطاطه ، وبسلامتك عطبه ؛ فإن من كان هكذا فأنت ملك موته^(٣) .
فيحسب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالك كله في عقدة واحدة ، أو حيز واحد ، [أو وجه
منفرد^(٤)] ، إن اجتاحتها جائحة أو نابته نائبة بقيت حسيرا . وقد قال بعض
الحكماء : « فرّقوا المنية » ، و « اطلبوا الأرباح بكل شعب » .

واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمّتها الحكماء خلق إلا وقد ينفع
في بعض الحالات ، ويردّ به شكّله ، ويقام بإزاء مثله ، ويدافع به نظيره^(٥) .
إنك ستمنى بصحبة السلطان الحازم العادل ، وبصحبة السلطان الأخرق
الجهول الغشوم . فالحازم العادل يسوسه لك الأدب والنصح ، والأخرق
تسوسه لك الحيلة والرفق . العادل يعضدك منه ثلاث ، وتَصير نفسه لك
على ثلاث :

(١) في الأصل : « وتقليدهم أمورك » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « وأن لا تأنس وتغتر » ، صوابه في د .

(٣) د : « مالك موته » ، والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) التكملة من د .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « النصحاء » في ص ١٣٣ ماقط من د .

فاللواتى يعضدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة - وفي ذلك صلاح
الرعيّة - وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصينُ البيضة والسُّبُل ، والعفو ما بلغ به
الاستصلاح ، واكتفى به من البسط . واللواتى تصبر نفسه لك عليهن : الهوى
إلى ما وافق الرأي ، وأمضى الرأي الآ بعد التثبت حتى تعاونه عليه
النصحاء ^(١) .

ولكنني أوصيك برياضة نفسك حتى تذللّها على الأمور الحمودة ؛ فإنّ
كل ^(٢) أمرٍ ممدوحٍ هو ممّا تستنقل النفوس . [وممّا تسرّ به وتنقلب إليه
الأخلاق المذمومة ^(٣)] . فإنّ أهمّلتها وإثابها غلبت عليك ، لأنّها فيها طبيعة
[مركبة ^(٣)] ، وجبلة مفطورة .

فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلبَ عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك
من العجلة ، والصبرُ الحاكم عليك دون الجزع ، والعفوُ أسبق إليك من
المجازاة بالذنوب ، والمكافأة بالسوء .

[وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والمذمومة ، فتكن محموداتها غالبّة
على أفعالك ، محكّمة في أمورك ^(٣)] . فإنّك إن ضبّطت [ذلك ، وقوّمت
عليه ^(٣)] نفسك ، عشت رخيّ البال ، قليل الهموم ، كثير الصديق قليل

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأي بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة

النصحاء » . وهذا نهاية سقط د الذي نهت عليه في ص ١٣٢ .

(٢) في الأصل : « وإن كان » صوابه في د .

(٣) التكملة من د .

العدو ، [سليم الدين ، نقيّ العرض ، محمود الفِعال ^(١)] ، جميل الأحداث
في حياتك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك السلامة
الآجلة بالنعمة العاجلة ، [إن شاء الله عز وجل ^(٢)] .

٥٣ و

أسأل الله المبتدئ بكل نعمة ، والمتولّي لكل إحسان ، أن يصلّي على محمد
خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتم ^(٣) عليك نعمته ، ويشفع
لك ماخوّلك من نعمته بالنعمة التي يؤمن معها الزّوال ، في جواره ومرافقة
أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومَنه . والله الموفق
للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .
يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته ^(٤) .

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله الحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو
هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب نحر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً .
والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ

كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع في هذه الأخيرة بعض السهو في إيراد النص على وجهه ؛ فنبت على ذلك في الحواشي ، والعصمة لله وحده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فإني قد تصفّحتُ أخلاقك ، وتدبّرتُ أعراقك ، وتأملتُ
شيمك ، ووزنتُك فعرفتُ مقدارك ، وقوّمتُك فعلمتُ قيمتك ، فوجدتُك
قد ناهزتُ السّكّال ، وأوفيتُ على التّمام ، وتوقّلتُ في درج الفضائل ^(١) ،
وكدتُ تكون منقطعَ القرين ، وقاربتُ أن تُلغى عديمَ النّظير ، لا يطعمُ
فاضلٌ أن يفوتك ، ولا يأنفُ شريفٌ أن يقصّرَ دونك ، ولا يخشعُ عالمٌ أن
ياخذَ عنك .

ووجدتُك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمالٍ لأمرين هما القطب
الذي عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقّ بالعدّل ، وأقنّ بالتأنيب ممّن لم يسبق
شأوك ، ولم يتسنّم رُبتك ؛ لأنه ليس ملوماً على تضييع القليل ممّن قد أضاعَ
الكثير ، ولا يُسام ^(٢) إصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذَ الفسادُ
على دهره ، ولا يُحاسب على الزّلة الواحدة من لا يعدم منه الزّلل والعثار ،
ولا يُنكر المنكرُ على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنّ المنكر إذا كثُر صار
معروفاً ، وإذا صار المنكرُ معروفاً صار المعروف منكراً .

وكيف يُعجّب ممّن أمره كلّهُ عجب ، وإنما الإنكار والتعجّب ممّن خرج
عن مجرى العادة ، وفارق السّنة والسّجّية ، كما قال الأول : « خالفٌ تذكّر » .

(١) التوقّل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه الشيء : كلفه إياه وجشمه . وفي الأصل : « ولا يسم » ، وفي ط :

« لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق بسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطَاتِه » ، وقيل : « من استوى يومه فهو مغبون ، ومن كان يومه خيراً من غدِه فهو مفتون ، ومن كان غدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط » . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتَكَ أَمْسٍ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ بَعْدَ شَمْسٍ
وَقَالَ آخِرُ فِي مَعْنٍ (١) :

أَنْتَ أَمْرٌ هُمَّكَ الْمَعَالِي وَدَلْوٌ مَعْرُوفُكَ الرِّبَيعُ
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَمِيمٍ كَالْقَلْبِ تُحْنِي لَهُ الضَّلُوعُ (٢)
فِي كُلِّ عَامٍ تَزِيدُ خَيْرًا يُشِيعُهُ عَنْكَ مِنْ يُشِيعُ
وَالْأَمْرَانِ اللَّذَانِ نَقَمْتَهُمَا عَلَيْكَ (٣) : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،
وَإِضَاعَةُ السَّرِّ بِإِذَاعَتِهِ .

وليس الخطرُ فيما أسومك وأحاولُ حملك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف
وأنا لا أعرف في دهرى - على كثيرٍ عددٍ أهله - رجلاً واحداً ممن ينتحل
الخاصَّةَ ، ويُنسَبُ إلى العليَّةِ ، ويطلبُ الرياسةَ ويخطُبُ السَّيَادَةَ ، ويتحلَّى

(١) معن بن زائدة الشيباني ، كان مضرب المثل في الجود والشجاعة ،
وكان ممدحاً مقصوداً . وكان من ولادة بني أمية ، وغضب عليه بنو العباس في أوائل
دولتهم ، ثم أبلى بلاءً حسناً مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه .
وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ :
٢٣٥ - ٢٤٤ .

(٢) في الأصل : « تحي به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نقم ينقم كضرب يضرب ، ونقم ينقم كفرح يفرح .

بالأدب ويديم الثَّخانة والزَّمانة^(١) ، والحلمَ والفَخامة ، أَرْضَى ضَبْطَه لسانه ،
وأَحْمَدُ حَيَاظَتَه لِسَرَّهُ . وذلك أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَصْعَبُ مِنْ مَكَايِدَةِ الطَّبَائِعِ^(٢) ،
ومَغَالِبَةِ الْأَهْوَاءِ ؛ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ لَمْ تَزَلْ لِلْهَوَى عَلَى الرَّأْيِ طُولَ الدَّهْرِ . وَالْهَوَى
هُوَ الدَّاعِيَةُ إِلَى إِذَاعَةِ السَّرِّ ، وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ .

وإِنَّمَا سَمَّى الْعَقْلَ عَقْلاً وَحِجْراً ، قَالَ تَعَالَى - ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ^(٣) ﴾ - لِأَنَّهُ يَزُمُّ اللِّسَانَ وَيَخْطِئُهُ ، وَيَشْكُلُهُ وَيَرْبُثُهُ^(٤) ، وَيَقْيِدُ الْفَضْلَ وَيَعْقِلُهُ
عَنْ أَنْ يَمْضِيَ فُرْطاً فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمُضَرَّةِ ، كَمَا يُعْقِلُ الْبَعِيرَ ، وَيُحْجَرُ
عَلَى الْيَتِيمِ .

وإِنَّمَا اللِّسَانُ تَرْجُمَانُ الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ خَزَانَةُ مُسْتَحْفَظَةِ لِلْخَوَاطِرِ
وَالْأَسْرَارِ ، وَكُلٌّ مَا يَبْعِيهِ [مِنْ^(٥)] ذَلِكَ عَنِ الْخَوَاسِّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ،
وَمَا تَوْلَدُهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ ، وَتَنْتَجِجُهُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ .

وَمِنْ شَأْنِ الصِّدْرِ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا يَعْنِي بِقُدْرَةِ
[مِنْ^(٥)] اللَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هِيَ - أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ ، وَيَسْتَثْقِلُ مَا حَمَلَ

(١) الثَّخانة ، مِنْ قَوْلِهِمْ رَجُلٌ ثَخِينٌ ، أَيْ رَزِينٌ ثَقِيلٌ فِي مَجْلِسِهِ .

(٢) مَكَايِدَةُ الْأُمُورِ : مَعَانَاةُ مَشَقَّتِهِ ، وَمَقَاسَاةُ شِدَّتِهِ . وَوَقَعَ فِي ط : « مَكَايِدَةُ »
خِلَافاً لِمَا فِي الْأَصْلِ .

(٣) الْآيَةُ ٥ سُورَةِ الْفَجْرِ .

(٤) يَشْكُلُهُ ، مِنْ شَكَلَ الدَّابَّةَ : شَدَّ قَوَائِمَهَا بِحَبْلِ ، وَاسْمُ ذَلِكَ الْحَبْلِ الشَّكَالُ
كَكِتَابِ . الرَّبْثُ : الْحَبْسُ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَيَزْبِنُهُ » ، وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . وَانْظُرْ
الْحَيَوَانَ ٥ : ٢٦٣ .

(٥) تَسْكُمَةُ ضَرُورِيَّةٌ .

منه ، فيستريح إلى نبذه ، ويلدّ إلقاءه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضى به إلى غيره ممن لا يراعه ولا يحوطه . كل ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللسان ، واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر رأى الهوى فاستولى على اللسان ، منعه من تلك العادة ، وردّه عن تلك الدّربة ، وجشّمه مؤونة الصّبر على ستر الحلم والحكمة .

ولا شيء أعجب من أن المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونعمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤول عنها ، ومحاسب على ماخول منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته ، والقيام بقسطه وحجته ، ووضعها مواضع النّفع في الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظاً لفظاً ، وصرفها عن أضدادها . فلم يرض الإنسان أن عطلها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعملها في ضدّ ذلك مما يضرّه ، فاجتمع عليه الإيمان اللذان اجتمعا على صاحب المال الذي كنزه ومنعه من حقّه ، فوجب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها^(١) . وهذه غاية الغبن والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا حمد له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل . فالحلم هو الاسم الجامع لكلّ فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من^(٢) قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) في الأصل : « منها » . والمراد به في أبواب الباطل .

(٢) في الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والمنع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطبع والجشع ، وسوء مناهزة الفرصة ، وفرط الحرص على الطلبة ، وشدة الحنين والرقّة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت السخط ، ووقت السخط من وقت الرضا ؛ ومن اتّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جدوى^(١) .

واعلم يقيناً أن الصمت سرمداً أبداً ، أسهل مراماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقصد للصواب ، لما قد مازكره من علة مجاذبة الطّباع ؛ ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجبلة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد^(٢) ، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم^(٣) ، ونقشوا خواطرهم في الصّخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الخيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرّسل ، وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر^(٤) ولا تواطؤ مقام العيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتديرات والعلامات ؛

(١) الجدوى : الجدوى والغناء والنفع . يكتب بالألف والياء ، ويقال بالمد أيضاً

« الجداء » ، ومنه قوله :

لقلّ جداءً على مالك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقي المعاصر .

(٣) في الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاصرة . انظر العثمانية ص ٣ س ١٥

و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ،
وساماً إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت
هذا الحل . ولكن الله عز وجل حبّبها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء
داعية للجماع ، ولذة الجماع سبيلاً للنسل ، والرقّة على الولد عوناً على التربية
والحضانة - وبهما كان النشوء والنماء - وحُبّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ،
والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعمّر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والانقياد لهذه الطبيعة ؛
وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطباع .
فاعترأه الكرب لكتمان السرّ ، وغشيه لذلك سقم وكمد يحسّ به في سُويده
قلبه بمثل ديب النمل ، وحكمة الجرب ، ومثل لسع الدّبر ووخز الأشاف^(١) ،
على قدر اختلاف مقادير الخلوم والرّزانة والخفّة . فإذا باح بسرّه فكأنه
أنشط من عقّال^(٢) . ولذلك قيل : « الصّدر إذا نفث برأ » مثلاً مضروباً
لهذه الحال . وقيل :

* ولا بدّ من من شكوى إذا لم يكن صبر^(٣) *

(١) الدّبر جماعة النحل . والأشاف : جمع الإشفي ، وهو المثقب يخرز به .

(٢) أى حل من عقّال ، والعقال : الرباط الذى يعقل به .

(٣) لمالك بن حذيفة كما فى حماسة البحرى ١٩٧ . وأنشد هذا العجز فى الحيوان

١ : ٣٠٢ . وصدره كما فى البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

* وما كثرة الشكوى بأمر حزامه *

ويرى : « بحد حزامه » . وروى : « لعمر ك ما الشكوى بأمر حزامه » .

وليس قولنا « طبع الإنسان على حب الإخبار والاستخبار » حجة له على الله ، لأنه طبع على حب النساء ومنع الزنى ، وحُبب إليه الطعام ومنع من الحرام . وكذلك حُبب إليه أن يُخبر بالحق النافع ويستخير عنه ، وجعلت فيه استطاعة هذا وذاك ، فاختر الهوى على الرأى .

٥٦ ظ

ومما يؤكد هذا المعنى فى كَرَب السكتان وصُعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، ما رَوَاهُ ^(١) عن بعض فقهاءهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يَحْتَمِلُهَا العوام ، فضاق صدره بها ، فكان يبرز إلى العراء ^(٢) فيحتفر بها حفرةً يُودِعُهَا دَنًّا ، ثم ينكبُّ على ذلك الدن فيحدثه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويرى أن قد نقل سرّه من وعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش ^(٣) سيئ الخلق غَلَقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضْجِرُونَهُ وَيَسُومُونَهُ نَشْرًا مَا يَحِبُّ طَيِّبُهُ عَنْهُمْ ، وَتَكَرَّرَ مَا يَحْدُثُهُمْ بِهِ ، وَيَتَعَنَّتُونَهُ ، فَيَحْلَفُ لَا يَحْدُثُهُمْ الشَّهْرَ وَالْأَكْثَرُ وَالْأَقَلُّ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمَا فِيهِ ، وَتَطَلَّعَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَيَقْبَلُ عَلَى شَاةٍ كَانَتْ لَهُ ^(٤) فَيَحْدُثُهَا بِالْأَخْبَارِ وَالْفَقْهِ ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَقُولُ : « لَيْتَ أَتَى كُنْتُ شَاةَ الْأَعْمَشِ » .

(١) فى الأصل : « رواه » .

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية الصحرة ، وأنت الضمير بعدها لمعناها . وفى الأصل : « العرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للثعالبي ١٣٤ أنها عِز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقيل الشاة تكون من الضأن والمِز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

(١٠ - رسائل الجاحظ)

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأُنيسِ المأمونِ على سرِّه فقال :
أكلت الحامضَ والحلوَ حتَّى ما أجدُ لهما طعماً ، وأتيتُ النساءَ حتَّى ما أبالي امرأةً
لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لي لذةٌ إلَّا وجود أخٍ أضع بيني وبينه
مؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمر بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن
يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذة طريح المروءة .

وقد صدقَ عمرو ، ما تكون الزَّمانة والوقار إلَّا بحملٍ على النفس شديد ،
ورياضة مُتعبة .

وقال بعض الشعراء^(١) :

ألم ترَ أنَّ وُشاةَ الرجا لـ لا يتركون أديماً صحيحاً
فلا تُفشِ سِرَّكَ إلَّا إليك فإنَّ لكلَّ نصيحٍ نصيحاً

والسرُّ - أبقاك الله - إذا تجاوزَ صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ
واحدةٍ فليس حينئذٍ بسرٌّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النَّشرِ^(٢) والشُّهرة .
وإنما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلَّة
المأمونين عليه ، وكُرب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها في طرفة عين .

و ٥٧

(١) هو أنس بن أسيد ، كما في أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفي الكامل ٤٢٤ :
« وأحسن ما سمع في هذا ما يعزى إلى علي بن أبي طالب ، فقائل يقول : هو له ،
ويقول آخرون : قاله متمثلاً . ولم يختلف في أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الحيوان
٥ : ١٨١ وما في حواشيه من تخريج .

(٢) في ط : « الشر » ، خلافاً لما هو واضح في الأصل .

وصدّر صاحب الأذن الثانية أضيّق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى
وفي الحديث به أعذر ، والحجّة عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث
انتهى .

هذا أيضاً إذا استعهد المحدث واستكتم ، وكان عاقلاً حليماً ، وناصحاً
وإذا ، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر بالكتمان ، وكان ممن يمشى بالنمائم ويحب
إفشاء المعاييب ، وكان ممن ينطوى على غشٍّ أو شحناء ، أو كان له في إظهاره
اجتلابُ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعمّن أفضى به إليه أنزل ^(١) ؛
لأنه كان مالِكاً لسرّه فأطلق عقّاله ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قيده
ووثاقه ، وصار هو العبد القنّ المملوك لمن ائتمنه على سرّه ، وملكه رقّ رقبته ؛
فإن شاء أحسن مملكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيته ، وجعله رهينةً ليوم عتبه
عليه . وقلّ من يُحسن المَلَكَة ، ويحرس الحرّيّة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربّما
لم يُخرجه غشّاً فأخرجه سُخْفاً وضعفاً . وإن أساء المَلَكَة وختر الأمانة ^(٢)
فأطلق السرّ واسترعاه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفك الدم وأزال النعم وكشف
العورة وقرق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسرّه ألوم ^(٣) . قال الشاعر :

(١) أى أقل . وفي الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . يقال ختره فهو ختار ؛ والمراد : خانها .

(٣) في الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه

فصدر الذي يستودع السرَّ أضيقُ^(١)

فَمَنْ أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرّاً
مالِكاً لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره ، مختاراً للرقِّ ، من غير أسرٍ
ولا قسر ! والعبيد لم يصبروا على الرقِّ إلا بذلّ الأسر والسَّباء .

ومن كان سرُّه مصوناً في قلبه يُطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن
يده ، صار^(٢) هو الطالبُ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفكر له
في عاقبة ، ولا يتحرّز له من مُصيبة^(٣) . وكلّما كانت إذاعته لأسراره أكثر
كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدمتهم أدوم . فإذا كان أصل السرِّ معلوماً
عند عدّةٍ أو أقلّ من العدّة ، فما أعسر استتاره . غير أنه لا لومَ على صاحب
الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفشاه ، ولا من قبله عليم .

٥٧ ظ

ولو أنّ أوزنَ الناسِ حِلماً ملكَ لسانه وحصنَ سرّه وقبّل لفظه ، ما قدر
على أن يملك لحظَ عينيه ، وسحنةَ وجهه ، وتغيُّر لونه ، وتبسُّمَه أو قطوبه ، عند
ما يجري بلبّه^(٤) من ذكر ذلك السرِّ ، أو يخطر^(٥) بباله منه ، فيبدو في وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها البرد في الكامل ٤٢٥ .

(٢) في الأصل : « وصار » .

(٣) في الأصل : « ولا يتحرّز له بمصيبة » .

(٤) في الأصل : « به » .

(٥) في الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرّض بذكره^(١) ، أو سنح له نظيره أو مثيله^(٢) ، أو حضر من له فيه سبب - إلا بعد التصنع الشديد ، والتحفّظ المفرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطلع عليه بتظنّ المرجّمين^(٣) ، والمتعقّبين للأفعال والأقوال ، والنظر في مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشوا من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسن المذاييع البذر^(٤) . فكيف إذا أطلق به اللسان ، وعود إذاعته القلب . والعادة أملك بالأدب .

وربّما أدركه الخدس ، وقبّضه الظن^(٥) ، فنالت صاحبه فيه خدعة ، بأن يُذكر له طرف منه ، ويُوهم أنه قد فشا وشاع ، فيصدّق الظنّ فيجعله يقيناً ، ويفسّر الجملة فيصيّرّها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويوبقها .

وربّ كلام قد ملأ بطون الطوامير^(٦) قد عُرف جملته وما فيه الضرر

(١) ط : « عرض ذكره » خلافاً لما في الأصل .

(٢) في الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كصبور وصبر . وفي حديث علي في صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذبايع ، وهو من يذيع السرويفشيه . انظر اللسان (بذر ، ذيع) . وفي الأصل : « البذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قبضه : هيأه وسببه من حيث لا يحتسب . وفي الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قبض الله له من يكرمه عند سنه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربي أو دخيل .

منه ، بسحاة^(١) أو طابع^(٢) ، أو لحظة مَطَّلَع في الكتاب ، أو حرف تبين من ظهره .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوء الظن بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألحزم سوء الظن » . وقيل لثقيف : بم بلغت ما بلغت من الشرف والسودد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل في شركك تحمد عقله دون أن تحمد ودّه ونصحه ؛ فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر^(٣) :

وما كل ذي لبٍّ بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نصحه بليبٍ

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأنبه وقال : ما يؤمنك أن يخبر أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج بما قلت فيه - ورجعت إلى العراق - فيضغنه عليك ؟ قال : كلا ، والله إنى ما رطلت بيدي قط أحداً أرزن منه^(٤) .

٥٨ و

وهذا والله - أبقاك الله - الغلط البين ، والعذر الملقق^(٥) ، وتحسين فارط

(١) سحاة القرطاس : ما انقشر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسر ها : الخاتم الذي يختم به الكتاب . وفي الأصل : « طائر » ، صوابه في ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلي . الأغاني ١١ : ١٠٥ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشيء يرطله رطلا : رازه يده ليعرف وزنه ، كما في اللسان . وأرزن من الرزاة ، وأصل الرزاة الثقل .

(٥) في الأصل : « والعذر المصلق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنه ليس كل راجح وعاقِل بناصح لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهم ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنى بالأعْلَى رغبة ورهبا ، وتحسُّنا عندهم بحاجتهم إليهم .

وأكثر ما يذيع أسرارَ الناس أهلهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [من ^(١)] لهم عليهم اليد والسلطان . فالسرُّ الذي يودعه خليفة في عاملٍ له يلحقه زينه وشينه ، أخرى ألا يكتمه . وهذا سبيل كل سرٍّ يستودعه الجلالة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللأمة .

وقال سليمان بن داود في حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرِّك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدَّ ممن تعرف ألفاً وتُفِضَ إلى واحد بسرِّك ^(٢) إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السر . لكنه قيل : رجلٌ يساوى ألفَ رجل ، ورجلٌ لا يساوى رجلاً . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة ^(٣) » .

فكلُّ ذلك يراد به أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأننا قد نجد الرجل يُوزن بالأمة ، ونجد الأمة لا تساوى قلاماً ظفّر ذلك الرجل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ط : « بسر » خلافاً للأصل .

(٣) و يروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوى على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد في الدنيا قليل كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَنْ تقع عليه الشَّرِيطَةُ معدوماً - سَيِّئاً من يُوَثَّقُ بحلمه وعقله ،
وأمانته ونُصْحِهِ ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في السِّرِّ الذي يُضمر ولا يجرِّم
عليه كتمانهُ ، ومن قد وأى على نفسه بالسِّرِّ والحفظ^(١) ؛ فإنه ليس كلُّ من
ضَمَّنَ فلم يَضْمَنْ ضامناً ، ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً ، ولا من
استُخْلِفَ فلم يَخْلُفْ خائناً ، وإنما ياحقه الحمدُ والذمُّ ؛ والأجر والإثم إذا ضَمَّنَ
الأمانة ثم خَتَرَهَا^(٢) - فكانَ القوم قالوا : لا تودعنَّ سرَّكَ أحداً . وإلاَّ فُتِي
تجد رجلاً فيه الصفة التي وصف بها مسكينُ الدَّارمِيِّ نفسه حيث يقول :

إني امرؤُ منِّي الحياء الذي ترى أنوبه بأخلاقٍ قليل خداعُها^(٣)
أواخي رجالاً لست أطلعُ بعضهم على سِرٍّ بعضٍ غير أُنِّي جماعُها^(٤)
يظَّلُون شَتَّى في البلاد وسرُّهم إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصداعُها^(٥)

وقيل لرجلٍ : كيف كتمانك للسِّرِّ ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفنه فيه
إلى يوم النُّشور .

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفي حديث وهب : « قرأت في
الحكمة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسي أن أذكر من ذكرني » . عدهاء بعلى
لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسي .

(٢) أى خانها . وانظر ما سبق في ص ١٤٧ .

(٣) المقطوعة في حماسة أبي تمام في أول باب الأدب . انظر شرح المرزوقي
١١١٥ - ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والكمال ٤٢٥
وأمل القائل ٢ : ٦٢ والمرتضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشيء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء .

(٥) أى أن يصدعوها فتصدع . ويروى : « أعيا الجبال انضاءها » .

وقال الآخر^(١) :

* وأكتم السرّ فيه ضربة العنق^(٢) *

وهذه صفات موجودة بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمغرور من اغترّ بما يعدّه الواعد منها دون أن يبلو الخبر .

والذى جرّبناه ووجدناه : أن من يفضى إليه بالشىء ، يبلغ من إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسول المستحفظ المعنى بتبليغ الرسالة ، المحمود المجازى على أدائها ؛ حتى ربّما كان يبلغ^(٣) فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال^(٤) ، المعروف بالنّميّة والتّقيت^(٥) ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء فى الظلمة .

وهذا فعل عمر بن الخطّاب رضى الله عنه حين أحبّ أن يشيع إسلامه فقال : من أنتم أهل مكة ؟ قيل له : جميل بن النّحيّث . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتبه عليه ، فلم يمس وبمكة أحد لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

(١) هو أبو محجن الثقفى . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغانى ٢ : ١٤٢ .

(٢) صدره فى ديوانه :

* وأكشف المأزق المكروب غمته *

وفى الحيوان :

* وقد أجود وما مالى بنى فنع *

وفى الأغانى :

* وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض *

(٣) فى الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عنى بذلك وإن لم يكن مذكورا فى المعاجم المتداولة .

(٥) التّقيت : مبالغة من الفت ، وهو النّميّة .

ثم يكون من أكره الأعوان على إظهار السر الاستعداد له ، والتحذير من نشره ؛ فإن النهى أغرى ؛ لأنه تكليف مشقة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو خطر ، والنفس طيارة متقلبة ، تعشق الإباحة وتفرم بالإطلاق . ولعل رجلاً لو قيل له : لا تمسح يدك بهذا الجدار - وهو لم يمسحها به قط - غرى بأن يفعل (١) .

وكذلك ما حدث به من السر فلم يؤمر بستره ، لعله ألا يخطر بباله ؛ لأنه موجود في طبائع الناس الولوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محصول . ٥٩ و

فتريد أن نعلم : لم صار الإنسان على ما منع - وإن كان لا ينفعه - أحرص منه على ما أبيح من غير علة ولا سبب إلا امتهان ما كثر عليه (٢) ، واستطراف ما قلّ عنده ؟ ولم أقبل على من ولّى عنه وولّى عمن أقبل عليه ؟ ولم قالوا : إذا جدّت المسألة جدّ المنع ؟ وقال الشاعر (٣) :

الحرُّ يَأْخِى والمصا للعبدِ وليس للملحِف مثل الرَدِّ
ولم صار يَتَمَنَّى الشَّيْءَ وَيَنْذُرُ فِيهِ النُّذُورَ ، وَيَتَقَطَّعُ إِلَيْهِ شَوْقًا ، فَإِذَا ظَفِرَ بِهِ صَدَّ عَنْهُ وَأَخْلَقَ عَنْده ؟ ولم زهد الملوك فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي الناس ؟

فنقول : إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مَبْلَغًا من الوُسْع لا يمكنها تجاوزه ، ولا تتسع لأكثر منه . فكان معها فيما دون الوُسْع الفقر

(١) غرى بالشئ غراً وغراء : أولع به وأغرى .

(٢) في الأصل : « ولا امتهان بما كثر عليه » ، صوابه في ط .

(٣) هو بشار بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوف الإخوان ، وفيما تجاوزه عز الغنى وأمن العدم . وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفت من احتاج إليها ، وأعظمت من استغنى عنها . وجعلها تواقه مشتاقه ، مطرقة ملالة^(١) ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستحكم عليها الفتنة^(٢) ، ويُبلى خيرها [من شرها^(٣)] وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلال سقطت المحن ، فهي تعظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق إن كان من طُرف شهواتها ؛ فإنَّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنفٍ منها أهل لا يحفلون بما سواه . وتتعجب من الغريب النادر ، ويضحكها البديع الطارئ . إلا أنه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوب مقدار وسعها وحاجتها فصار ظهيراً وفضلاً استخفت به وقلَّ في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدَّ إليه الفقر والحاجة وإن قلَّ قدره^(٤) ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وإن عظم خطره . وجعل لما تتوق إليه وتشتاقه مكاناً من قواها ، له^(٥) . فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً ، وقضى ذلك الأرب وطراً مما كان طمح إليه ، وروى مما كان ظامناً إليه ، انصرف عنه وقلاه ، وحال عشقه بغضاً ، وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك : أن الدنيا دار زوال وملال ، ليس في كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

(١) التطرف والمستطرف : الذي لا يثبت على أمر . وفي الأصل : « مطرقة » .
والملالة : الكثيرة الملل .

(٢) في الأصل : « تستحكم عليها الفتنة » .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « ضرره » .

(٥) أى مكاناً له من قواها .

هى ولا شئ مما فيها على حال واحدة ، وإنما الثبوت الدائم لدار القرار .
فالسامة تلحقها في محبوبها ، كما يصيب المنتهى من الطعام والشراب والباه ،
فإنه ليس شئ أبغض إلى من يتناهى فيه إلى غايته ، من النظر إلى ناحيته ،
فضلاً عن ملاسته ، إلى وقت عودة السبب الأول .

فإذا كانت الطباع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك
القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعماً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضرر . فبعض
النظر يعمى ، والصوت الشديد يَصِم ، والرائحة المُنْتِنَةُ تبطل المَشَم ،
والأطعمة الحارة المحرقة تبطل حاسة اللسان .

وتتطرف كل واحدة منها ؛ فبين الطيب عند مَنْ بعد عهده [به] ،
والجماع والسماع ، وبين من هو مغموس فيه بون بعيد جداً ، في الحلاوة
وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ؛ فإنه كلما كثر كان أشهى
وأعجب ؛ لأن قصد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الخلة كما يُريده
أهل القناعة والزهادة ، وإنما يراد لقمع الحرص ، والحرص لا حد له
ولا نهاية ؛ لأنه سعى لا حاجة ، وإيضاع لا لبغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن لابن آدم واديين
من ذهب لا بتغى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »^(١) .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يغنى بما يغنيه فكل ما فى الأرض لا يغنيه

(١) حديث صحيح ، أخرجه في الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلفظ : « لو كان لابن آدم

واد من مال لا بتغى إليه ثانياً ، ولو كان له واديان لا بتغى لهما ثالثاً » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ^(١) ﴾ . وقال : ﴿ وإِنَّ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدَ ^(٢) ﴾ . وقال الشاعر :

والناسُ إن شِيعَتْ بطونهمُ فعيونهم في ذاك لا تشبعُ

فأما الحديث الذي جاء : « لا يشبع أربع من أربعة : أرض من مطر ،
وعين من نظر ، وأنتى من ذكر ، وعالم من علم ^(٣) » . فإن العين لا تشبع
في الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأما من صنف مما يراه دون
صنيف ، فإنه يشبع ويروى ، ويصد ويصدف إلى غيره .

وأما العلم فإنه أوسع من أن يحاط به ، فمن طلبه لشرفه ونفخه فإنه
لا حد له ولا نهاية ، ولم يزد له طلباً إلا ازداد فيه رغبة . ومن طلب منه
مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثر علمه أن
يرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً . وقد يمل كما يمل كل شيء . وتمل العين
أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دنيا . وهذه القضية ^(٤) تدل
على الخروج عن العقل ؛ لأن النهم تجاوز القدر .

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٢ بلفظ : « أربع
لا يشبعن من أربع » .

(٤) في الأصل : « القصة » . والقضية : الحكم .

وأما^(١) الحرص على الممنوع الذي لا يفتنع به ، والعجب مما يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فعل من استوحش من الحجّة ، وشرّد عن علم العلل والأسباب .

وإقشاء السرّ إنما يوكل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنع الأبلق ، مثل سرّ الأديان^(٢) لغلبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والعداوة . ومثل سرّ الملوك في كيد أعدائهم ومكفون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجُلّة ؛ لنفاسة العوامّ على الملوك^(٣) ، وأنهم سماء مُظَلَّة عليهم ، أعينهم إليها سامية ، وقلوبهم بها معلقة ، ورغباتهم ورهباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ؛ فإنما صارت العداوة بعد المودة أشدّ لاطّلاع الصديق على سرّ صديقه ، وإحصائه معايبه ، وربّما كان في حال الصداقة يجمع عليه السّقطات ويحصي العيوب ، ويحتفظ بالرقّاع ؛ إرساداً ليوم النّبوة ، وإعداداً لحال الصّريمة .

وقد شكّا بعض الملوك تنقيب^(٤) العوامّ عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناسُ منا ما ينام الناسُ عنا

٦٠ ظ

(١) في الأصل : « وإنما » .

(٢) في الأصل : « الأديان » ، صوابه في ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه ينفس نفساً ، بالتحريك ، ونفاسة كسحابة .

(٤) في الأصل : « تنقب » .

لو سَكَّنَا باطنَ الأَرَضِ لَكَانُوا حَيْثُ كُنَّا
إِنَّمَا هُمُومُنَا أَنْ يَنْشُرُوا مَا قَدْ دَفَنَّا

وَلَمْ نَرِ حُبَّ الطَّعْنِ عَلَى الْمُلُوكِ ^(١) ، وَالتَّجَسُّسَ عَلَى أَخْبَارِهِمْ ، وَعَشَقَ
نَشْرَ الْمَغَائِبِ ، وَاسْتِحْلَالَ الْغَيْبَةِ ، ظَاهِرًا فِي طَبَاعِ النَّاسِ لَا يَكَادُ يَنْجُو مِنْهُ
أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مِنْ رَجَحَ حِلْمُهُ وَعَظُمَتْ مَرْوَتُهُ ، وَظَهَرَ سُودَدُهُ ، وَاشْتَدَّ
وَرَعُهُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : « الْغَيْبَةُ فَكْهَةُ النُّسَّاكِ » .

وَرَوَوْا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : « الْفَاسِقُ لَا غَيْبَةَ لَهُ » .

وَقَالَ آخَرُ : « أَتَرِعُونَ مِنْ ذِكْرِ الْفَاسِقِ ^(٢) ؟ اذْكُرُوهُ يَعْرِفُهُ النَّاسُ » .

وَلَمْ نَرِ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ رَخَّصَ فِي اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ ، بَلْ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي الْغَيْبَةِ
بِمَا كَرِهَ مَا تَكْرَهُهُ النَّفُوسُ ، وَمَا تَخْتَارُ مِنْهُ الْمَوْتُ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَقَالَ :
﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ^(٣) ﴾ .

وَإِغْتِيَابُ النَّاسِ جَمِيعًا خُطَّةٌ جَوْرٌ فِي الْحُكْمِ ، وَسَقُوطٌ فِي الْهَيْمَةِ ، وَسَخَافَةٌ
فِي الرَّأْيِ ، وَدَنَاءَةٌ ^(٤) فِي الْقِيَمَةِ ، وَكُلْفَةٌ عَرِيضَةٌ ، وَحَسَدٌ وَنَفَاسَةٌ ، قَدْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَمْ نَوْجِبِ الطَّعْنَ عَلَى الْمُلُوكِ » وَفِي ط : « وَلَمْ نَرْحَبِ
الطَّعْنَ عَلَى الْمُلُوكِ » وَالْوَجْهَ مَا أُثْبِتَ . انْظُرْ لِتَأْيِيدِ هَذَا الْأَسْلُوبِ مَا سَبَقَ فِي
ص ١٥٤ س ٨ وَمَا بَعْدَهُ .

(٢) يُقَالُ وَرَعَ مِنَ الشَّيْءِ يَرَعُ بِكَسْرِ الرَّاءِ فِيهِمَا وَيُورَعُ ، كَيُوجَلُ ، أَيْ تَخْرُجُ
وَتَأْتِي . وَفِي ط عَنْ نَسْخَةِ الْمُخْتَارِ : « أَتَرَاعُونَ » .

(٣) الْآيَةُ ١٢ مِنْ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَدَنَاءٌ » .

استحوذت على هذا العالم وغلبت على طبائعهم ، وتوكدت لسوء العادة عندهم ، ولعلو الشر على الخير ، وكثرة الدغل والنغل والحسد في القلوب . فلست ترى منها ناجياً . إما ناظر بعين عدل وإنصاف ، فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه . وإما ناظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب في عدوه ما يعينه على التخرص عليه^(١) فيقويها ويزيد فيها . وإن عدم الحق تقوّل وقبح الحسّن ، وزاد في قبح القبيح .

والحديث كله - إلا ما لا بال به - ذكر الناس ، ولغو وخطل ، وهجر وهذاء ، وغيبة وهمز ولمز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنى ، إنما الإنسان حديث ، فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكل سر في الأرض إنما هو خبر عن إنسان ، أو طي عن إنسان ، فله في الغيبة أكثر الخطأ ، وجُلُّها كلفة لا ضرورة ، يُرى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسه ، وغفر ذنوبها وألغى عيوبها ، وقصد قصد غيره ، فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجب من مقابحه ، وجهد نفسه في تفقد أموره . ليس ذلك عن عناية بصلاحه ، ولا محبة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنه مسيطر عليه ولا محمودٌ عنده على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلُّ حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

(١) في الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : القول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فضل القول ، وفضول الخواطر تبعث على اللغو والخطل .

ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما يعنيه ، ولا يتكلف ما قد كُفِيَهِ ، قل كلامه . ولو حكم العدل^(١) في أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامله ، لطاب عيشه وخفَّتْ مؤونته والمؤونة عليه ؛ فإن الله تبارك وتعالى لم يَخْلُقْ مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروحَ على القلوب من الإنصاف ، ولا أمراً من الظلم ، ولا أبشعَ من الجور .

وقال بعض المتقدمين : « إنما يعرف الظلم من حكم به عليه » . ومن استعمل العدل دلّه على أن الناس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يجد إذا ظلم ، فكره لهم ما كره لنفسه ، فأنصف ولم يظلم .

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشرّ والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكماء - وقد أطلق لهم تصريحاً أخلاقهم وأماناتهم^(٢) - التي ردت إليهم بالأحكام فيها^(٣) ، ما جانيته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم^(٤) .

(١) في الأصل : « العدى » .

(٢) في الأصل : « تصريحها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) في الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) المراد بالجنائية جزاء الجنائية ، كما في قوله تعالى : « يلق أُنّاماً » أى يلق جزاء الأثام ، وهو الإثم . وكما في قول بشر بن أبي خازم :

وكان مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذى الجواز له أثم

وقال بعض الحكماء : إنَّ من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك ،
ومواساتك أخاك في مالك ، وذكرَ الله . أمّا إنّي لا أعنى قول سبحان الله ،
والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر - وإنَّ ذلك لمن ذكر الله - ولكنَّ
ذكره عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعةً لله فعلته ، وإن كان معصيةً
لله اجتنبتّه .

٦١ ظ

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة في ظلِّ عرش الله يوم لا ظلُّ إلا ظله :
رجلٌ لم يعب أخاه بغيبٍ فيه مثله حتّى يُصلحَ ذلك العيبَ من نفسه ؛ فإنّه
لا يُصلحه حتّى يهجمَ على آخر^(١) ، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس . ورجلٌ
لم يقدّم يداً ولا رجلاً حتّى يعلم : أفى طاعة الله هو أم في معصيته ؟ ورجلٌ
لم يلتبس من الناس إلّا مثلاً ما يعطيهم من نفسه . أمّا تحبّون أن تُنصفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفق الفضلَ من
ماله وأمسك الفضلَ من قوله ، وشغله عيبه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم^(٢) : « يا بنى إسرائيل أيرى أحدكم القذاة في عين أخيه
ويغفّي عن الجذع المعترض في عينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركى ما لا يعنينى .

وقال عمرو بن عبديّ : أعيتنى ثلاثُ خلال : تركى ما لا يعنينى ، ودرهمٌ
من حِلّاه ، وأخ إذا احتجبت إلى ما في يديه بذله لى .

(١) أى على عيب آخر في نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ - ٤ .

وما أَحَقَّ من أُحصيت ألفاظُهُ وليس من قولٍ يبدُر منه إِلَّا لديه رقيبٌ عتيدٌ ، ومن أُحصيت عليه مَنَاقيلُ الذَّرِّ واستُشهدَ عليه جلدُهُ وجوارحه - أن يضبط لسانه .

وقد جاء في بعض الآثار : مَنْ عَدَّ كلامَهُ من عمله قَلَّ كلامُهُ إِلَّا فيما لَا يَعْنِيهِ .

وكلُّ امرئٍ فحسبُ نفسه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جلَّ ثناؤه - وقوله الحق - ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾^(١) . وقال : ﴿ بَيَّأَتْهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾^(٢) .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إِلَّا مع السَّيفِ والسَّوطِ . وقال بعض الحكماء : شيطان لا صلاح لأحدهما إِلَّا بالآخر : اللسان والسَّيفِ .

وأنت إذا تأملتَ أكثر ما ينشأُ به المتحدِّثون وجدتَ أكثر السائلين يسألُ عما لا يعنيه ، ويكثر لما لا يكرُّه ، ويُعنى بما لا ينفعه ولا يضره ؛ وأكثر المجيبين يُجيب ولم يسأل ، ويتكلَّف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألَكَ لافتضح ، ولو حاجَّه فيما ادَّعى ووقفه لا تقطع . قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾^(٣) .

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الكلفة والفضول ، وعليه حُلّة ذِيَالَة^(١) يسحبها في التراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنك قد أفسدت ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك أقيمتَ في النار . قال : وما ينفعك من ذلك ؟ فأخمه غاية الإحمام .

ولو تهياً للمتكلِّفين في كل وقتٍ مثل صرامة هشام لآزدرج من به حياة منهم ، ولقلت الفضول والكلف والغيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلّ من مغتاب ؛ لأنه يُخفى شخصه ، ويُطامن حسّه ، ويغض من صوته ؛ ولا يَزِيدُ^(٢) بما يناله من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه .

قال معاوية : أتدرى من النبيل ؟ هو الذي إذا رأيتَه هبته ، وإذا غابَ عنك اغتبتَه .

وهي لعمري سبيلُ العطاء عند العوام ، والملوك عند الرعيّة ، والسادة عند العبيد .

فلم يأخذ المغتاب من اغتابه شيئاً بعضيته إِيَّاهُ^(٣) إلا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغيبة إلا بمن يخاف سطوته ، كان أعذر . ولكن اللؤم المتمكّن منه يحمله على اغتياب عبده وأُمته ، فضلاً عن كفته ونظيره .

(١) الذِيَالَة : الطويلة الذيل .

(٢) في الأصل : « ولا يزيد » .

(٣) العضية : الإفك والبهتان والكذب .

ويغتَاب الرجل عند عدوّه والمشاحِن له ، مساعدة له بالسُّخف ، وتقرُّبًا إليه بالمهانة والضعف ، من غير أن يكون له عليه طَوْل ، أو يلتمس منه على ما تقرَّب به إليه جزاء أو سُكورا .

ثم لعلّه ينكفي إلى الذي اغتابه وقصَّبه^(١) من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوّه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لعلّة أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من الدلّة التي يجدها في نفسه ، والضعف في مُنته ، كما يعظّم الغنى بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فتى كوشف أو عُوتب لبسّته ذلّة أخرى من الكِظّة بالمعاذير الكاذبة ، والاعتصام بالآيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُرْبته فهو حرى أن يُطَّلَعَ على دِخْلة أمره ، فلا يُقبَل منه عذر ، ولا يُصدّق في قول ولا حلف ، وقد تسرّب الذلّة ، وتدرّع الخضوع .

٦٢ ظ

وليس من سُوس النفس الكريمة الشَّمة^(٢) ، أن تلقى الناس بخلاف ما يتخلَّقون به^(٣) ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغيبة فيها الرأى الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقلُ فيما يحلُّ له ويحسن به ، بعد أن تُعييه الحيلة في استصلاح ذلك العدو بالرفق والملاينة .

وإنما قيل : « قلّ من اعتذر إلاّ كذب » ، لكثرة النّطف في الناس^(٤) ،

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .

(٢) السوس : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٣) في الأصل : « يخلفون به » .

(٤) النطف ، بالتحريك : التلطف بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار
نهت عن كلفة الضعف الأول في الاغتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت
عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يعتذر إليه ليس بقابل للعذر على حقيقة وإن أظهر
القبول ، لما جرّب من سخاء الناس ^(١) بالأيّمان ، وبعدهم من الإقرار بالذنب
ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيحق على المعتذر - إن كانت في نفسه
قيمة - أن لا يعتذر إلا إلى من يحب أن يجد له عذرا ، ولا يعجل إلى المين ^(٢)
وهو لا يجد للحجة مكانا .

وأكثر من يعتذر إليه إنما يفعل ذلك به خوفاً من سقطته ،
وابقاء لسلطانه .

والمتفقون يتأولون في الأيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان التهمة ،
ويلزمهم الظنة ، سيما ^(٣) في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدم والمال ،
وهتك السّر .

ولا حسم لهذا الداء إلا باطراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يبلغ
في الأعراض ^(٤) ، ويستسرّ بالعضية والبهت .

(١) في الأصل : « النفس » .

(٢) اللين : الكذب ، مان يمين . وفي الأصل : « الهين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفي أساس البلاغة :
« ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويبلغ في دماهم » . والفعل من باب تقع ،
ووعد ، وورث ، ووجل . وفي الأصل : « يبلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجازه بعض النحاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ^(١) » . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرس أخاك إلا من نفسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فسكيه .

وكتب على بعض أبواب المدين بالسُّند ^(٢) : احفظ رأسك .

وقال الأول : قد تصل النصال إلى الإخوان فتستخرج ، وأمثال النصال

من القول إذا وصلت إلى القلب لم تستخرج أبدا .

وقال بهرام ^(٣) ، وسمع في الليل صوت طائر فتحداه بسهم وهو لا يراه ،
إلا أنه تدبعت الصوت فصرعه ، فلما صار بين يديه قال : والطير أيضاً لو سكت
كان خيراً له !

وقيل : ماشى ، أحقَّ بطول سجن من لسان ^(٤) .

وقيل : يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتن ؟ فيقلن :

بخير إن تركتنا !

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ،

٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) في ط رواية عن كتاب المختار : « بالسند » ، أي بالخط المسند ، وهو خط

حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ،

ملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبنى له الخورنق . قال المسعودي

في التنبيه والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره

الجاحظ في الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبراني من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب

والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعماد بن جبل : « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم ^(١) » .

وقال عيسى عليه السلام ^(٢) : « أعمال البر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصمت . فمن كان منطقهُ في غير ذكر الله فقد لغا ، ومن كان نظره في غير اعتبارٍ فقد سها ، ومن كان صمته في غير تفكير فقد لها » .

فانظر بأيّ الأمرين قطعتَ عمرَكَ ؟ أبالحكمة أم باللغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعْرِضُونَ ^(٣) ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ^(٤) ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ^(٥) ﴾ . وصان عنه أسمع أهل الجنة وألسنتهم فقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ^(٦) ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعةٌ منها في الصمت » .

وقال علي بن أبي طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج ^(٧) » .

(١) في اللسان (حصد) : « أى ما قالته الألسنة ، وهو ما يقتطعون منه من الكلام الذى لا خير فيه ، واحدها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جذ » . وتسكلم عليه في الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصّامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم بكلام ويحكي عنه محرّفاً فيضطرّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلت ، إنما قلت كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حكي عنه شاهداً لمن وشى به ، وادّعاء لتحريف غير مقبول منه إلا أن يأتي ببينة له ^(١) . لكان ذلك من أكثر فضائل الصّمت .

وربما ذكر رجل الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذكر إثماً له ، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتّحريض ، فيسفك الدم الحرام ، أو يعظم الجرح الصغير . بل ربّما ضحك وتبسّم ، فأغزى وحرّض ، وأثم وأوبق . قال بعض الشعراء ^(٢) :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحدٍ مجاهرةً أو قال عندي في سرٍّ
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلجّ ويستشري
وقالت العرب ^(٣) : « من كفى شرّاً لقلقه وذبدبه وقبّقه فقد كفى الشرّ » .

وهذا بابٌ لولا أن نشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزمنا عليه لأتيناه عليه . وهو كثير موجود لمن طلبه ، وجملة واحدة فيها

(١) في الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ - ١٥ ومجالس ثعلب ١٧ - ١٨ وأما إلى الرضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١ و ١٣ : ١٠ وجمع الجواهر ٣ والمخبر ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنما تختلف الألفاظ التي تجعل كسوة لتلك المعاني . وإلا فإنك إذا نظرت إلى جميع شُرور الدنيا وجدت أولها كلمة عارت فجنت حرباً عواناً^(١) ، كحرب بكر وتغلب ابني وائل ، وعبس وذبيان ابني بغيض ، والأوس والخزرج ابني قَيْلَة ، والفجار الأول والثاني ، وعامة حروب العرب والعجم . وإذا تأملت أخبار الماضين لم تحصى عدد من قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه .

وليس العجب ممن أفضى بسرّه إلى من ليس له بموضع ، ممن تقدّمت معرفته وزالت الشكوك عنه في أمره ؛ ولكن العجب عين العجب ممن استناب بسرّه إلى من لم تقدّم معرفته ومن أنس إليه عن اللقاء واللّقاءتين^(٢) ، دون معرفة العين والاسم ، والسبب والنسب ، فأنخدع في أول وهلة وغبن عقله قبل أن يغبن دينه وماله ، وتضاعفت عليه البلية بطول الحسرة ؛ فإنّ البلاء عارض ومكتسب ، فكان العارض السماوى وما خوّلت له الأقدار سرّاً بعد اجتهد صاحبه رأيه ، وحيلته في طلب الخير . وصواب تدبيره فيه أسهل وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرّاً بشعاً . وإنما الكرب اللازم والداء العيأ ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة ، والنقص والذلة ، غمّ الندامة والأسف على ما فرط منه ؛ إذ كان الجانى على نفسه بيده .

(١) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة . عارت : أفلتت وذهبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) في الأصل : « اللّقاء واللّقاءتين » . وفي ط : « عن اللّقاء واللّقاءتين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لكلمة « اللّقاء » شرح الرضى للشافية ١ : ١٨٧ — ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكره التطويل به ، والمعنى واحدٌ ، وإنما نحتاج من هذا ومثله - مما قدّمنا ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ ووزن القول . وإلى هذا أجرينا ، وله قصدنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكد ، والإيضاح أبلغ ، والحظّ في هذا القول كلّهُ لمن عقله والآخذ به ، أوفرُ [منه ^(١)] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنّه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويختلِف برّقه ^(٢) من صدّق قوله بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنما حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ؛ وحسنُ الصّفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ؛ ومدّتها - إلى أن يملّها القائل والسامع - يسيرة .

والأفعال الحمودة متّصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ، ومذكور ^(٣) للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كلّهُ توفيقُ الله وتسديده ؛ فإنّ القلوبَ في يده ، والخيراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء القصير الرشاء السهل المطلب .

(٣) ط : « ومذكورة » ، خلافاً لما في الأصل

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله
وتأييده ، ومشيتته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين
الطاهرين وسلامه .

٤

كِتَابُ

فَخْرُ السُّودَانِ عَلَى الْبَيْضَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب نحر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ثان فلوطن المنشورة في لندن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسي ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة في الأصل هي الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية يجعلها الرابعة في الأصل كان ميبا في تغيير أرقام الرسائل بالنقص ، كما اضطرنا إلى أن نتخطى أرقام الأصل في الرسالة المكررة ، وثبت الأرقام التي بعدها على جوانب النسخة ، فتبدأ هذه الرسالة بصفحة (٧٨ ظ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٨ ظ

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من الغش - أنك قرأت كتابي في مُحاجة^(١) الصُّرَّاء للهَجَناء ، وردَّ الهَجَناء ، وجواب أحوال الهَجَناء ، وأنى لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان^(٢) . فاعلم حفظك الله أنى إنما أخَّرت ذلك متعمداً .

وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبتُ لك ما حضرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعي : قال الفِرَزُّ عبدُ فزارة^(٣) وكانت في أذنه خُرْبَةٌ^(٤) :
إنَّ الوئام^(٥) يتستَرَع في جميع الطَّمَش^(٦) : لا يقرب العنز الضَّان ما وجدت

(١) في ن ، س : « محاكمة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ساقط من ن ، س .

(٣) النص في الحيوان ٢ : ٢٤٠ - ٣٤١ محرفاً . وفيه « العرير عبد بني فزارة » .

(٤) الحربة بالباء : ثقب شحمة الأذن؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفي قول

ذى الرمة :

كأنه حبشى يبتغى أثراً أو من معاشر في آذانها الحرب

وفي ن ، س : « خرته » ، والخرثة بالناء تكون في الحديد من الفأس والإبرة .

وانظر ماسيأتى في ص ١٩٨ .

(٥) في جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ماسيأتى

من الكلام على الرجز التالى . والوئام : الوفاق .

(٦) الطمَش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمَش هو ، أى الناس . وقد =

(١٢ - رسائل الماحظ)

الماعز^(١) ، وتنفر الشاء من المخاب ولا تأنس بالخف^(٢) .
وأشدد أبو زيد النحوي :

* لولا الوثائم هلك الإنسان^(٣) *

وقال شداد الحارثي^(٤) - وكان خطيباً عالماً - : قلتُ لأمة سوداء بالبادية : لمن أنتِ يا سوداء ؟ قالت : لسيد الحضر يا أصلع . قال : قلت أو لستِ سوداء ؟ قالت : أو لست أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ من الحق . قالت : الحق أغضبك ، لا تشتم حتى ترهب^(٥) ، ولأن تتركه أمثل .
وقال شداد : لقد كلمتها وأنا أظن أني أفى بأهل نجد^(٦) ، وما نزعني عني إلا وأنا عند نفسي لا أفى بأمتي .

وقال الأصمعي : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرمة : قاتل الله أمة آل فلان السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألها كيف كان المطر عندهم ؟ قالت : غشنا ما شئنا^(٧) .

= عنى بالطمش هاهنا الخلق من إنسى ووحشى . والتترع : التسرع . وفي الحيوان : « يسرع » وفي ن ، س : « يتزع » .

(١) في الأصل : « ما وجبت » ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت في س ، ن .

(٢) في الحيوان : « ولا تأنس » .

(٣) في الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه في المخصص ١٢ : ١٥١ والغريب المصنف ٣٨٨ . وانظر للمثل أساس البلاغة (وأم) وأمثال الميداني ٢ : ١١١ .

(٤) في الأصل : « وكان » ، صوابه في البيان ٢ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) في البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أي في الفصاحة ، ويقال وفي به ، أي عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

مناقب السودان

أنّ لقمانَ الحكيمَ منهم ، وهو الذى يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلاّ عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .
وقال لابنه : إذا أردت أن تحالط رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإنّ أنصفك وإلاّ فاحذره .

ولم يرووا ذلك عنه إلاّ وله أشياء كثيرة^(١) . وأكثُر من هذا مدحُ الله إياه وتسميته الحكيمَ ، وما أوصى به ابنه .

ومنهـم : سعيد بن جبّير^(٢) ، قتله الحجاج قبل موته بسنة أشهر وهو ابن تسع وأربعين سنة ، ومات الحجاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وكان سعيدٌ أروعَ الخلق وأتقاهم ، وكان أعظم أصحاب ابن عباس . وأصحاب الحديث يطعنون فى الذى يحىء من قبل أصحاب ابن عباس حتى يحىء [من^(٣)] سعيد بن جبّير . وأبوه مولى بنى أسد ، وهو مولى بنى أمية ، وقُتِل يوم قُتِلَ والناس يقولون : كلنا محتاج إليه .

ومنهـم : بلال الحبشى رضى الله عنه ، الذى يقول فيه عمر بن الخطاب

(١) انظر أقواله بتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والتمثيل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمة ، ولذا يقال فى نسبه : الأسدى الوالى ، وهى نسبة ولاء . قتله الحجاج صبراً سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست فى الأصل .

رضى الله عنه : إن أبا بكرٍ سيِّدُنَا وأعتقَ سيِّدَنَا^(١) ، وهو ثلث الإسلام .
 ومنهم : منجَّع^(٢) ، وهو أوَّل قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
 ومنهم : المقداد^(٣) ، وهو أوَّلُ مَنْ عَدَا بِهِ فَرَسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
 ومنهم : وحشي^(٤) قَاتِلُ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ . وَكَانَ يَقُولُ : قَتَلْتُ خَيْرَ
 النَّاسِ - يَعْنِي حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ - يَعْنِي
 مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ .

ومنهم : مكحولُ الفقيه^(٥) .

ومنهم : الحقيطان الشاعر^(٦) ، الَّذِي كَانَ يَفْضُلُ فِي رَأْيِهِ وَعَقْلِهِ وَهَمَّتِهِ .
 وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي الْإِخْوَانِ : لَا تَعْرِفُ الْأَخَّ حَتَّى تَرِافِقَهُ فِي الْحَضَرِ ، وَتُزَامِلَهُ
 فِي السَّفَرِ .

(١) العثمانية للجاحظ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَفْجَع » ، صَوَابُهُ فِي السَّيْرَةِ ٤٩٠ وَالْإِصَابَةُ ٨٢٥٥ وَمَحَاضِرَةُ
 الْأَوَائِلِ لِلْسَّيُوطِيِّ ٤٨ . وَهُوَ مَوْلَى عُمَرَ ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : « وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ يَوْمَ بَدْرٍ » .

(٣) الْقَدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكَنْدِيُّ ، كَانَ أَبُوهُ عَمْرُو بْنُ ثَعْلَبَةَ حَلِيفًا لِكُنْدَةَ
 فَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ امْرَأَةً فَوُلِدَتْ لَهُ الْقَدَادُ ، فَلَمَّا كَبُرَ الْمَقْدَادُ وَقَعَ شَرِيْبُهُ وَبَيْنَ أَبِي شَمْرِ
 الْكَنْدِيِّ فَضْرَبَ رَجُلَهُ بِالسَّيْفِ وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ فَخَالَفَ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ
 الزَّهْرِيَّ ، وَتَبَنَاهُ الْأَسْوَدُ فَعَرَفَ بِهِ أَوَّلًا ، فَلَمَّا نَزَلَتْ « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » رَجَعَ إِلَى
 نَسَبِهِ فَقِيلَ الْمَقْدَادُ بْنُ عَمْرُو . تَوَفَّى فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ سَنَةَ ٣٣ . الْإِصَابَةُ ٨١٧٩ .

(٤) وَحْشَى بْنُ حَرْبٍ الْحَبَشِيُّ ، مَوْلَى بَنِي نُوفَلٍ .

(٥) يَبْدُو أَنَّهُ مِنْ سُودَانَ النَّوْبَةِ ، فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ أَنَّهُ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْ هَذِيلٍ
 مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فَأَعْتَقَهُ . وَيُقَالُ كَانَ مِنَ الْفَرَسِ ، وَاسْمُ أَبِيهِ سَهْرَابٌ . تَوَفَّى سَنَةَ ١١٢ .

(٦) ذَكَرَهُ فِي الْبَيَانِ ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قَالَ الْجَاحِظُ : « وَكَانَ خَطِيئًا
 لَا يَبَارَى » . وَأَصْلُ مَعْنَى الْحَقِيقَتَانِ طَائِرُ الدَّرَاجِ ، أَوْ الذِّكْرُ مِنْهُ .

ومنهـم : جُلَيْبِبٌ^(١) الذى تحدّثت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فى غزاة فقال لأصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا فى الثالثة : لا . قال : لكننى أفقد جُلَيْبِبًا ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعة قد قتلهم ثم قُتِل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قتل سبعة ثم قتلوه . هذا منى وأنا منه » . قال : ثم حمّله على ساعديه حتّى حفروا له ، ماله سريرٌ غير ساعدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكرُوا غُسلًا .

ومنهـم : فرجُ الحجام^(٢) وكان من أهل العدالة ، والمقدّمين فى الشهادة . ٧٩ ظ
أعتقه جعفر بن سليمان ؛ وذلك أنّه خدّمه دهرًا يصلح شاربَه وحيّته ويهيّئه ، فلم يره أخطأ فى قول ولا عمل ، فقال : والله لأمتحنّه ، فإن كان ما أرى منه عن تدبير وقصدٍ لأعتقنه ولأزوّجنّه ولأغنيّه . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصنع فيه . فقال له ذات يوم وهو يحجمه : يا غلامُ ، أمتحجم ؟ قال : نعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرف ذلك ؟ قال : أعرف أكثره وربّما غلِطت . قال : فأىّ شيء تأكل ؟ قال : أمّا فى الشتاء

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر فى الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل فى قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إياها لجليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر فى الحيوان ٧ : ٢٦١ — ٢٦٢ .

فدا كبراه^(١) خاترة حلوة . وأما في الصَّيف فسِكْبَاجَةٌ حامضة عذبة^(٢) . فبلغ به جعفر بن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون^(٣) :

خَلُّوا الطَّرِيقَ زَوْجَتِي أُمَامِي أَنَا حَمِيمٌ فَرَجَ الْحَجَّامِ^(٤)

قال : وبلغ من عدالته ونُبله في نفسه وتوقُّيه وورعه ، أن موالِيه من ولد جعفر وكبار أهل المِربد ، كانوا لا يطعمون أن يُشْهدوه إلا على أمرٍ صحيح لا اختلاف فيه .

وأما الحَيْقُطَانُ فقال قصيدةٌ تحتجُّ بها اليمانية على قريش ومضر ، ويحتجُّ بها العجم والحِمْش على العرب ، وكان جريرٌ رآه يومَ عيدٍ في قميص أبيض وهو أسود ، فقال :

(١) كذا . وفي الحيوان : « فديجبريجة » . وفي كتاب الطبيخ للبغدادى ١٢ « ديكريكة » . قال : « وصنعها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك في القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر ومرى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعماً ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل مسكر » . وقال محققه داود الجلبى أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الخلية ، والمخللة ، والصفصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . انظر صنعته في كتاب الطبخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضاً في الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم في الفهرست ٢٣٣ في جماعة من الشعراء المقلين وقال « أبو فرعون الشاشي . ثلاثون ورقة » . يعنى أن شعره في ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره في طبقات الشعراء لابن العز ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) في الأصل : « أنا حمام » ، صوابه في الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للناس أير حمار لُف في قرطاس^(١)
 فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :
 لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم
 فإني لَسَبُّط الكف والعرضُ أزهر^(٢)
 وإن سواد اللون ليس بضائر
 إذا كنت يوم الرّوع بالسيف أخطر
 فإن كنت تبغى الفخر في غير كنهه
 فرهط النجاشي منك في الناس أنغر^(٣)
 تأتي الجلندى وابن كسرى وحارث
 وهـودّة والقبطى والشيخ قيصر
 وفاز بها دون الملوك سعادة
 فدام له الملك المنيع الموفر
 ولقمان منهم وابنه وابن أمه
 وأبرهة الملك الذى ليس يُنكر
 غزاكم أبو يكسوم في أم داركم
 وأنتم كقبص الرمل أو هو أكثر^(٤)

٨٠ و

(١) لم يرد البيت في ديوان جرير .

(٢) أزهر : أبيض نقي . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) القبص : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفي قبص الحصى . وقال السكيت :

لکم مسجدا الله المزوران والحصى لکم قبصه من بين أثرى وأقرا

وفي الأصل : « فيض » ، تحريف .

وأتم كطير الماء لما هوى لها بياقعة ، حُجِنُ الخالبِ أ كدر^(١)
فلو كان غيرُ الله رامَ دفاعه علمت وذو التجريب بالناس أخير^(٢)
وما الفخرُ إلَّا أن تبيتوا إزاءه وأتم قريبٌ ناركم تتسعرُ
ويُدلفُ منكم قائد ذو حفيظة نُكافه طورًا وطورا بدبر
فأما التي قُلتُ فلكم نُبوّة وليس بكم صونَ الحرامِ المستر^(٣)
وقاتم لِقَاحٍ لا تُودَى إتاوة فأعطاه أريانٍ من القرِّ أيسر^(٤)
ولو كان فيها رغبةٌ لتَوَجَّج إذا لأنتها بالمقاول حمير^(٥)
وليس بها مشى ولا متصيف ولا كجؤاثا ماؤها يتفجّر^(٦)

(١) حجن الخالب ، أى حجن مخالبه . و«أل» بدل من الضمير . والحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج . وفي الأصل : « حجر » تحريف .
(٢) أى هم قوم لا يستطيع أحد دفاع غرهم ومجدهم . فأنت لو حاولت هذا الدفاع علمت عاقبة ذلك .

(٣) أى صين البيت الحرام ذو الستور . وصون : لغة فى صين ، وهى لغة بنى قعس وبنى دبر ، كما فى قوله :

* ليت شبابا بوع فاشترت *

وقلت ، لعلها « نلت » .

(٤) اللقاح ، كسحاب : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبهم فى الجاهلية سباء . والأريان ، بالفتح : الحراج والإتاوة . كما فى اللسان (أرى) . وفى ن ، س : « أريان » بالباء ، وليس بشئ ، فإنه بمعنى العربون . وأراد : أيسر من القر .

(٥) فى الأصل « لأنها » بهذا الإهمال . والمقاول : جمع مقول ، بالكسر ، وهو القيل الملك من ملوك حمير .

(٦) جؤاثا ، ويقال جؤاثاء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .

ولا مرتعٌ للعين أو متقنصٌ ولكنَّ تَجَرًّا ، والتجارةُ تُحَقَّرُ
أَلَسْتَ كُلِّيًّا وأُمُّكَ نَعَجَةٌ لَكُمْ فِي سِمْانِ الضَّانِ عَارٌّ وَمَفْخَرٌ
أَمَا قَوْلُهُ :

تَأْتِي الْجَلَنْدَى وَابْنُ كَسْرَى وَحَارثٌ

وَهُوَ ————— وَذُو الْقَبْطَى وَالشَّيْخُ قَيْصَرٌ

فَإِنَّهُ يَقُولُ : كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي الْجَلَنْدَى ^(١) فَلَمْ يُؤْمِنُوا
وَكَذَلِكَ كَسْرَى ، وَكَذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمِرٍ ، وَكَذَلِكَ هَوْذَةُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَنْفِيُّ ،
وَكَذَلِكَ الْمُقَوْسُ عَظِيمُ الْقَبِطِ صَاحِبُ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ قَيْصَرُ مَلِكِ الرُّومِ .
عَلَى أَنَّ بَنِي الْجَلَنْدَى قَدْ أَسْلَمُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، وَلَكِنَّ النَّجَاشِيَّ
أَسْلَمَ قَبْلَ الْفَتْحِ ، فَدَامَ لَهُ مَلِكُهُ وَنَزَعَ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ النِّعْمَةَ . وَقَيْصَرٌ إِنْ كَانَ
قَدْ بَقِيَ مِنْ مَلِكِهِ شَيْءٌ فَقَدْ أَخْرَجُوهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يَبْلُغُهُ ظِلْفٌ أَوْ حَافِرٌ ،
وَصَارَ لَا يَتَمَنَعُ إِلَّا بِالْخَلِيجِ وَبِالْعِقَابِ وَالْحِصُونِ ^(٢) وَبِالشِّتَاءِ وَالثَّلُوجِ وَالْأَمْطَارِ .
وَنَغَرَ بَلْقَمَانُ وَابْنَهُ .

٨٠ ظ

وَأَمَا قَوْلُهُ :

غَزَاكُمْ أَبُو يَكْسُومَ فِي أُمَّ دَارِكَمَ

وَأَنْتُمْ كَقَبْصِ الرَّمْلِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ ^(٣)

(١) وكذا ورد في أصول الحيوان ١ : ٩٨ ، والمعروف أنهما ابنا الجلندي ،
ففي السيرة ٩٧١ : « وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياد ، ابني الجلندي
الأزدبيين ملكي عمان . ومثله في الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العقاب : جمع عقبة وهي الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) في الأصل : « كقيض الرمل » . وانظر ما سبق في حواشي ١٨٣ .

فإنه يعنى صاحب الفيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرمل ، فلم فررتم منه ولم يلقه أحد منكم حتى أفضى إلى مكة ، ومكة أم القرى ، ودار العرب ، هي جزيرة العرب ، ومكة قرية من قراها ، ولكن لما كانت أقدمها قدما ، وأعظمها خطرا ، جعلت لها أمنا . ولذلك قيل لفتح مكة : فتح الفتوح . وعلى مثل ذلك سميت فاتحة الكتاب : أم الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أم ما لم يلد . من ذلك قولهم : ضربته على أم رأسه ، وكذلك أم الهاوية^(١) . والضيف يسمى ربة منزله أم مثنوى . وقال أعرابي وقد أصابته براغيث عند امرأة كان نزل بها^(٢) :

يا أم مثنوى عدمت وجهك أنقذني رب العلاء من مصرك
ولذع برغوث أراه مهلكي أبيت ليلي دائب التحكك^(٣)
* تحكك الأجر عند المبرك *

وقد أبان الله تعالى مكة والبيت حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٤) .

(١) كذا . وفي الكتاب العزيز : « فأمة هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمة هاوية ، أى أم رأسه تهوى في النار ، قل ابن برى : لو كانت هاوية اسما علما للنار لم ينصرف .

(٢) الرجز التالى فى الحيوان ٥ : ٣٩١ .

(٣) فى الحيوان : « دائم التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران ،

يقول : فإذا غزيت - وهى أم القرى وفيها البيت الحرام الذى هو شرفكم - فقد غزى جميعكم^(١) .
وأما قوله :

وأما التى قُلتُم فلتكن نبوةً وليس بكم صونَ الحرامِ المسترِ
[وقُلتُم لِقاحٌ لا تؤدى إناوةً فإعطاء أريانٍ من الفرّ أيسرُ^(٢)]
فالقاح : البلد الذى لا يؤدى إلى الملوك الأريان^(٣) . والأريان : هو الخراج ، وهو الإناوة . وفى ذلك يقول عبید بن الأبرص :
أبوا دينَ الملوك فهم لقاحٌ إذا نُدبوا إلى حربٍ أجابوا
قال : فقلتُم إنا لقاحٌ ولسنا تؤدى الخراج والأريان .

٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهونُ من الفرار وإسلام الدار وأنتم مثلُ عددٍ من جاءكم المرار الكثيرة .
وأما قوله :

وليس بها مشى ولا متصيف ولا كجؤاً ماؤها يتفجرُ
يقول : ليس فى الغلبة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ اليمن وغيرهم . وليس بها مشى ولا متصيف ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفّون بجُدّة . وجؤاً : عينٌ بالبحرين . وليس بمكة شئٌ يدانى ذلك .

(١) فى الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت فى الأصل ، والكلام التالى يتعلق به .

(٣) انظر ماسبق فى الحاشية الرابعة من ص ١٨٤ . والكلمة وانحمة فى الأصل بالياء المثناة .

وقال :

ولا مرتعٌ للعَيْنِ أو متقنصٌ ولكنَّ تجراً والتجارة تحقرُ
يقول : ليس بها متنزّهات ، وصيدها حرام ، وإنما بها تجارٌ والتجار
يُحَقِّرون . يقول : هم عند الناس في حدِّ الضعف ولا يستجيز ملكٌ أخذَ الذي
به يتعيّشون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنواثب الملوك^(١) ، وهم قوم^(٢)
ليس عندهم امتناعٌ . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهليٌّ :
وزِقٌ سبأتُ لَدَى مَتَجَرٍ أُسَيُودَ كَالرَّجَلِ الْأَسْحَمِ^(٣)
ضربتُ بِفِيهِ عَلَى نَحْرِهِ وَقَائِمُهُ كَعِيدِ الْأَجْدَمِ
إِلَى التَّاجِرِ الْعَرَبِيِّ الشَّحِيمِ حِ أَوْ خَرِذَى النَّظْفِ الطَّمِيمِ^(٤)
أراد بهذا كله قريشاً^(٥) . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا
خَرَجُوا عَلَّقُوا عَلَيْهِمُ الْمُقْلَ وَلَحَاءَ الشَّجَرِ^(٦) حَتَّى يُمَرَفُوا فَلَا يَقْتُلُهُمْ أَحَدٌ .

(١) يعني حاجاتهم ونفقاتهم . وأصل النائية ما ينوب الإنسان أى ينزل به من
المهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف التميمي ، وهو ابن أبي حارثة المري . ترجم
له المرزباني في معجمه ٣٩٢ وذكر له أبياتا أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع في ن ، س : « ورزق » ، تحريف . والرزق : السقاء ، وهو أيضا
ما تنقل فيه الحمر . وسبأ الحمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحيح : البخيل ، يعني أنه يغالي في ثمن الحمر . والنطف ، بالتحريك : جمع
نطفة ، وهي القرط . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل
والطمطم : الأعجمي الذي لا يفصح .

(٥) في الأصل ، ون ، س : « قريش » .

(٦) أشير في الأصل إلى أنها في نسخة « السمر » . هذا وليس في نص الشعر
المتقدم ما يقتضي هذا التفسير من تعليق المقل ولحاء الشجر .

وأما قوله :

أست كلبيًا وأمك نعمة^١ لكم في سمان الضأن عار ومفخر
فإن بني كليب يرمون بإتيان الضأن ، وكذلك بنو الأعرج ، وسليم .
وأشجع ترمي بإتيان المعز .

وقال النجاشي :

٨١ ظ

ولو شتمتني من قريش قبيلة^٢ سوى ناقة المعزى سليم وأشجع
وقال الفرزدق :

ولست مضحياً مادمت حياً بشاة من حلوبة أعرجى^(١)
فما أدري إذا أنفقت مالي لعل الشاة تبقر عن صبي^(٢)
وقال الآخر :

إذا أحببت أن تغلي أناً فدل الدارمي على شراها
يقبل ظهرها ويكاد لولا قحول الظاهر يدنو من قفاها
وود الدارمي لو أن فاه إذا نال الحمار نال فاه^(٣)
وقال عبد بن رشيد :

قبيلة سوء خيرهم مثل شرهم ترى منهم للضأن خللاً وراعياً
إذا جليت فيهم عروس لبعليها ترى النعجة البقعا أبكى البواكيا^(٤)

(١) البيتان مما لم يرو في ديوان الفرزدق .

(٢) تبقر : يشق بطنها . وفي الأصل : « تبقر » .

(٣) في الأصل ، س « الحمار ينال » . وفي ن : « تنال فاه » ، والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « عروسا » .

ولذلك قال الأخطل :

فَانَعَقَ بِضَانِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا^(١)

ولذلك قال الحيقطان :

أَلَسْتَ كَلْبِيًّا وَأَمُّكَ نَعْجَةٌ لَهَا فِي سِمَانِ الضَّانِ عَارٌ وَمَفْخَرُ
أُمِّ الْعَارِ فَالَّذِي شَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ النَّعَاجِ . وَأَمَّا الْمَفْخَرُ يَقُولُ : إِذَا
فَخَرُوا انْفَرُوا بِالْإِبِلِ ، وَلَا يَبْلَعُونَ إِلَى حَدِّ الْإِبِلِ .

ومن مفاخر السودان والزنج والحبش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ،
أَنَّ جَرِيرَ بْنَ الْخَطَفِيِّ لَمَّا هَجَا بَنِي تَغْلَبَ [و^(٢)] قَالَ :

لَا تَطْلُبِينَ خُوُولَةً فِي تَغْلَبٍ فَالزَّيْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا^(٣)
غَضِبَ سَنِيحُ بْنُ رَبَاحٍ^(٤) شَارٍ^(٥) ، فَهَجَا جَرِيرًا ، وَفَخَّرَ عَلَيْهِ بِالزَّيْجِ فَقَالَ :
مَا بَالُ كَلْبٍ مِنْ كَلْبٍ سَبْنَا أَنْ لَمْ يُوَازِنْ حَاجِبًا وَعِيقَالًا^(٦)

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نعق) . وفي الأصل
« فأنعم » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) في الكامل ٥١٤ : « رباح بن سنيح الزنجي مولى بني ناجية » . ويقال أيضا
رباح بن سنيح ، وسنيح بن رباح ، كما في اللسان (طول) . وقال ابن الأثير في الكامل
٤ : ١٦١ في ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وجعلوا عليهم رجلا اسمه
رباح ، ويلقب شيرزنجي ، يعني أسد الزنج » .

(٥) في الأصل « سار » ، وإعجابه مما سيأتي . وفي الحيوان ١ : ٢٧٠ :

« السارنجي » . وفي ٧ : ٢٠٥ : « السارزنجي » .

(٦) في الأصل : « توازن » ، صوابه في الكامل واللسان . يعني جريرا =

إِنَّ امْرَأً جَعَلَ الْمِرَاغَةَ وَابْنَهَا مِثْلَ الْفِرْزْدَقِ جَائِرٌ قَدْ قَالَ^(١)
 وَالزَّيْجُ لَوْ لَا قِيَتَهُمْ فِي صَفِّهِمْ لَا قِيَتَ نَمَّ جَحَاجِحًا أَبْطَالَا
 فَسَلَ ابْنُ عَمْرِو حِينَ رَامَ رِمَاحَهُمْ أَرَأَى رِمَاحَ الزَّيْجِ نَمَّ طَوَالَا
 فَجَعُوا زِيَادًا بَابِنِهِ وَتَنَازَلُوا لَمَّا دُعُوا النَّزَالِ نَمَّ نَزَالَا^(٢)
 وَمَرْبُطِينَ خِيُولَهُمْ بِفِنَائِهِمْ وَرَبَطَتْ حَوْلَكَ شَيْئًا وَسِخَالَا^(٣)
 كَانَ ابْنُ نَدْبَةَ فِيكُمْ مِنْ نَجْلَانَا وَخَفَافُ الْمُتَحَمِّلِ الْأَثْقَالَا
 وَابْنًا زُبَيْبَةً : عَنَّا وَهَرَّاسَةً مَا إِنْ نَرَى فِيكُمْ لَهُمْ أَمْثَالَا
 سَلَ ابْنُ جَيْفَرٍ حِينَ رَامَ بِلَادَنَا فَرَأَى بَغْزَوْتَهُمْ عَلَيْهِ خَبَالَا
 وَسُلَيْكُ اللَّيْثِ الْهَزْبَرُ إِذَا عَدَا وَالْقَرْمُ عَبَّاسُ عُلُوكَ فَعَالَا
 هَذَا ابْنُ خَازِمٍ ابْنُ عَجَلَى مِنْهُمْ غَابَ الْقَبَائِلُ نَجْدَةً وَنَوَالَا
 أَبْنَاءُ كُلِّ نَجِيْبَةٍ لِنَجِيْبَةٍ أَسَدٌ تَرْبُّ عِنْدَهَا الْأَشْبَالَا
 فَلَنَحْنُ أَنْجَبُ مِنْ كُلِّبِ خُوُولَةٍ وَلَأَنْتِ الْأُمُّ مِنْهُمْ أَخْوَالَا
 وَبَنُو الْحُبَابِ مَطَاعِنُ وَمَطَاعِمُ عِنْدَ الشَّتَاءِ إِذَا تَهَبُّ شَمَالَا^(٤)

= وجاء في قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٤٢٩) مخاطباً لجرير :

منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازن حاجباً وعقلاً

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ، من رهط الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) المِرَاغَةُ : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما في القاموس . قال ،
 بالفاء : أخطأ رأيه وضعف . وفي الأصل : « قالا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشيه ، كسيد : جمع شاة . وفي الأصل : « اشأ » تحريف .

(٤) في الأصل : « الحنات » ، ولكن تعقيب الجاحظ فيما بعد ، يعين أنه

« الحباب » .

أما ابن عمرو الذي ذَكَرَ ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ ،
كان خليفة أبيه على شُرطة الحجاج ، فغَلَبَ رَباح شار الزُّنْجِي^(١)
على الفُرات ، فتوجّه إليه حفص بن زياد فقتله رَباحٌ وقتل أصحابه
واستباح عسكره .

وأما ابنُ جيفر فهو النُّعْمان بن جيفر بن عُبَاد بن جيفر بن الجُلَنْدِي .
كان غزا بلادَ الزُّنْجِ فقتلوه وَغَنِمُوا عسكره .

ثم ذكر أبناءَ الزُّنْجِيّات حين نزَعُوا إلى الزُّنْجِ في البَسالة والأَنفة^(٢) .
فذكر خُفَاف بن نَدْبَة ، وَعَبَّاس بن مِرْدَاس ، وابْنُ شَدَاد : عنترَة الفوارسِ
وأخاه هَرَّاسَة ، وسُليمان بن الشُّكَّة . فهؤلاء أَسَدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً
وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضْرَب المثل .

ومنهم : عبدالله بن خازِم السَّامِي ، وبنو الحُباب : عُمَيْر بن الحُباب وإخوته^(٣) .
وكان أيضاً منهم : الجَّحَاف بن حَكِيم^(٤) .

٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون بِرَباح أخى بلال وحاله وصلاحيه .

ويفخرون بعامر بن فُهَيْرَة^(٥) ، بدرى استشهد يومَ بئر مَعُونَة ، فرآه
الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

(١) انظر ما سبق في حواشي ص ١٩٠ .

(٢) في الأصل : « في الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ ، وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبي بكر الصديق ، ولذا جاء في نسبه التيمى . انظر الإصابة

٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فُهَيْرَة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه

أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدي وتيمى .

ومنهم : آل ياسر^(١) .

قالوا : ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر . لم يكن في الأرض أشد منه : كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء .

وكعبويه صاحب المغيرة بن الفزr ، كان مثلاً في الشجاعة .

ويقولون : ومنا مرّج الأشرم ، غلام أبي بحر القائد ، الذي كان قديم من الشام أيام قتيبة بن مسلم ، وكان لا يرّام لقاءه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المغول وبنوه ، وهم من الخول ، ليس في الأرض أعرف^(٢) ولا أثقف ولا أعلم بالبادية منهم .

قالوا : ومنا أفلاج ، الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة . قالوا : وإنما قتله مالك بن الرّيب ، لأنّه وطئه في جوف الليل وهو سكران خائر^(٣) . والشاهد على قولنا قول ابنه :

أمالكُ لولا الشُّكرُ أيقنت أنّه

أخو الورد أو يُرّبي على الأسد الورد^(٤)

قالوا : ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة ،

(١) كان منهم عمار بن ياسر حليف بني مخزوم . وكانت أم عمار مولاة لهم يقال لها سمية . الإصابة ٥٦٩٩ .

(٢) في الأصل : « أشرف » .

(٣) يقال هو خائر النفس ، أى ثقلها غير طيب ولا نشيط ، وذلك من أثر الحمار . في الأصل وسائر النسخ : « حاسر » والوجه ما أثبت .

(٤) الورد : مالونه الوردية بالضم ، وهى حمرة تضرب إلى صفرة حسنة .

(١٣ - رسائل الجاحظ)

وَجَرَتْ^(١) أَحْكَامُنَا فِي ذَلِكَ أَجْمَع . وَهَزَمْنَا ذَا نُوَّاسٍ ، وَقَتَلْنَا أَقْيَالَ حَمِير .
وَأَتَمَّ لَمْ تَمْلِكُوا بِلَادَنَا . وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ :

وَحَرَّبَ غَمْدَانًا وَهَدَّمَ سَقْفَهُ

رِبَاطُ بَأَجْنَادٍ وَصَوْلَتُهُ هَضْرُ^(٢)

أَطَافَتْ بِهِ الْأَحْبُوشُ لَيْلًا فَقَوَّضُوا

بِنَا شَدَّةَ الْأَقْيَالِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ^(٣)

يَجْمَعُ مِنَ الْيَكْسُومِ سُودٌ كَأَنَّهُمْ

أُسُودُ الشَّرَى اجْتَابَتْ جُلُودًا مِنَ النَّمْرِ^(٤)

قَالُوا : وَمَنَا كَبَاجِلًا ، لَمْ يَصْعَدْ نَهْرُ سَلْيَانَ وَلَا قَاتَلَ فِي الْمَخَارِجَاتِ^(٥) أَحَدٌ
قَطُّ يَشْبَهُهُ .

(١) ن ، س : « ومرت » .

(٢) رباط ، يعني به أرباط الحبشى . وفي السيرة ٢٦ : « وبينون وسلحين
وغمدان من حصون اليمن التي هدم أرباط ، ولم يكن في الناس مثلها » . وانظر الإكليل
للهمداني ٨ : ٣٩٥ . وفي الأصل وسأثر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفي البيت
إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبش . والبنا : مقصور البناء . وفي ن ، س : « بنا شدة »
تحريف .

(٤) اليكسوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل في ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ
كان يكنى أبا يكسوم ، ويكسوم اسم ابنه كما في التنبيه والإشراف ص ٢٢٦ والسيرة
٤٢ . وفي ذلك يقول لييد ، وهو يعني أبرهة ، كما في اللسان (كم) :
لو كان حي في الحياة مخلدًا في الدهر ألفاه أبو يكسوم

(٥) يعني بها المبارزات ، وهو أن يخرج كل من الفارسين لصاحبه فيبارزه .

قالوا : وَمِمَّا الْأَرْبَعُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا بِالْفُرَاتِ أَيَّامَ سَوَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي ، فَأَجَلَوْا أَهْلَ الْفُرَاتِ عَنْ مَنَازِلِهِمْ ، وَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِ الْأُبُلَّةِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً . ٨٣ و
قالوا : وَمِمَّا الَّذِي ضَرَبَ عُنُقَ عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ بُعْمَانَ ، بِمَنْجَلٍ بِحَرَائِي^(١) ،
بَعْدَ أَنْ لَمْ يَجْسُرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

قالوا : وَالنَّاسُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أُمَّةٌ السَّخَاءُ فِيهَا أَعْمُ ،
وَعَلَيْهَا أَغْلَبَ مِنَ الزَّرْنَجِ . وَهَاتَانِ الْخَلَّتَانِ لَمْ تُوجَدَا قَطُّ إِلَّا فِي كَرِيمٍ .
وَهِيَ أَطْبَعُ الْخَلْقِ عَلَى الرَّقْصِ الْمَوْقَعِ الْمَوْزُونِ ، وَالضَّرْبِ بِالْأُطْبَلِ عَلَى
الْإِبْقَاعِ الْمَوْزُونِ ، مِنْ غَيْرِ تَأْدِيبٍ وَلَا تَعْلِيمٍ .
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ خُلُوقًا مِنْهُمْ . وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ لُغَةٌ أَخْفُ عَلَى
اللِّسَانِ مِنْ لُغَتِهِمْ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ أَذْرَبُ أَلْسِنَةً ، وَلَا أَقْلُ تَمْطِيطًا مِنْهُمْ .
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ إِلَّا وَأَنْتَ تَصِيبُ فِيهِمُ الْأَرْتَ وَالْفَأْفَاءَ وَالْعَيْيَ^(٢) ،
وَمَنْ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةٌ ، غَيْرُهُمْ .

وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ يَخْطُبُ عِنْدَ الْمَلِكِ بِالزَّرْنَجِ مِنْ لَدُنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى
غُرُوبِهَا ، فَلَا يَسْتَعِينُ بِالْفَتَاةِ وَلَا بِسَكْتَةٍ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ .
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أُمَّةٌ فِي شِدَّةِ الْأَبْدَانِ وَقُوَّةِ الْأَسْرِ أَعْمُ مِنْهُمْ فِيهِمَا^(٣) .
وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْفَعُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ الَّذِي تَعَجَّزَ عَنْهُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ .
وَهُمْ شَجْعَاءُ أَشْدَّاءِ الْأَبْدَانِ أَسْخِيَاءُ . وَهَذِهِ هِيَ خِصَالُ الشَّرَفِ .

(١) البحراي : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذي في لسانه عقدة وحبسة ، يعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) في الأصل : « فيها » .

[والزنجي^(١)] مع حُسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه أبدًا إلا طيب النفس ، فحোক السن ، حسن الظن . وهذا هو الشرف .
وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر روياتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أثبتتم على السخاء والأثرة ، وينبغي في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلًا وأكثر الناس علمًا أبخل الناس بُخلًا وأقلهم خيرًا .
وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم ، والروم أبعد رويةً وأشدَّ عقولا .
وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصقالبة أسخى أنفسًا وأسمح أكفأ منهم .

وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولًا ، والصبيان أضعف عقولا منهم ، وهم أبخل من النساء ، والنساء أضعف عقولًا من الرجال . ولو كان العقل كلما كان أشدَّ كان صاحبه أبخل ، كان ينبغي أن يكون الصبيُّ أكرم الناس خصالًا^(٢) . ولا نعلم في الأرض شرًّا من صبي^(٣) : هو أكذب الناس وأنمُّ الناس ، وأشرُّ الناس وأبخل الناس ، وأقلُّ الناس خيرًا وأقسى الناس قسوة .

وإنما يخرج الصبيُّ من هذه الخلل أولًا فأولًا ، على قدر ما يزداد من العقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ن : « خصال » خلافا لما في الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيوان ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلة العقل هو سبب سخاء الزنج ، وقد أقررتم لهم بالسَّخاء
ثم ادَّعيتُم ما لا يُعرف . وقد وقَّفناكم على إحاض حجَّتكم في ذلك بالقياس
الصَّحيح !

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أَعْقَلَ من الشُّجاع ، والغادرُ أَعْقَلَ
من الوفي . وينبغي أن يكونَ الجزوعُ أَعْقَلَ من الصَّبور . فهذا ما لا حُجَّةَ فيه
لكم ، بل ذلك هبةٌ في النَّاس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الخلق هبةٌ ،
والسَّخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزنج للعرب : من جهلكم أنكم رأيتُمونا لكم أكفاء
في الجاهلية في نساءكم ، فلَمَّا جاء عدلُ الإسلام رأيتُم ذلك فاسداً ، و [ما^(١)]
بنا الرِّغبة عنكم^(٢) . مع أن الباديةَ مِنَّا ملأى^(٣) مَن قد تزوج ورأس وساد ،
ومَنع الذُّمار ، وكَنفكم من العدو .

قال : وقد ضربتُم بنا الأمثال وعظمتُم أمرَ ملوكنا ، وقد متموهم في كثيرٍ
من المواضع على ملوككم . ولو لم ترَوا الفضلَ لنا في ذلك عليكم لَمَّا فعلتم .
وقال النمر بن تولب :

أنى ملكه ما أتى بُعْثاً وأبرهةَ الملكَ الأعظماً^(٤)
فرقعه على ملوك قومه .

(١) ليست في الأصل .

(٢) في ن : « وبنا الرِّغبة عنكم » ، وفي س : « ونبت الرِّغبة عنا »

(٣) في الأصل ون : « ملأ » ، والوجه ما أثبت مطابقاً لتصرف ناشر س .

(٤) العيني ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المغنى للسيوطي ٧٦ والخزانة ٤ : ٤٣٨ .
ويروى : « فأدركه » .

وقال لبيد بن ربيعة :

لو كان حيٌّ في الحياة مخلدًا في الدهر أدركه أبو يكسوم^(١)

وهذا شيء من وصف الفضل لم يوصف أحد بمثله .

قالوا : ومما^(٢) قدّمتم به ملوكنا على ملوككم قوله^(٣) :

غاب الليالي خلف آلٍ مُحَرَّق وكما فعلنَ بقُبُع وبهَرَقِل

وغلبنَ أبرهة الذي أَلْفَيْتَه قد كان خلد فوق غُرْفَةٍ مَوَكِّل^(٤)

فقدّم أبرهة وأراد التَّسْوِيَةَ^(٥) .

٨٤ و

قالوا : ومن الحَبَشَةِ عُكَيْمُ الحَبَشِيِّ^(٦) ، وكان أفصح من العجّاج . وكان

علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع بن نبهان .

وكان المنتجع سِنْدِيًّا في أذنه خُرْبَةٌ^(٧) ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرجَ

أفصحَ من رُوْبَةٍ .

(١) أبو يكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشي . انظر ما سبق في حواشي ص

١٩٤ ديوان لبيد ٨٣ . أدركه أي أدرك التخليد .

(٢) في الأصل : « وما » .

(٣) يعني قول لبيد . انظر ديوانه والإكليل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ ، والتيجان ٧٦ .

وفي الأصل : « قولكم » ، تحريف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن ، كما في معجم البلدان . وانظر صفته في

الإكليل ٨ : ١٠٦ .

(٥) يعني التسوية بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والحارث الحراب أمسى قاطنا دارا أقام بها ولم يتحلل

(٦) انظر القاموس (عكم) .

(٧) انظر ما سبق في ص ١٧٧

ولما^(١) قال حَكِيم بن عِيَّاش السكبي^(٢) :
 لَا تَفْخَرَنَّ بِخَالٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فَإِنَّ أَكْرَمَ مِنْهَا الزَّيْجُ وَالتُّوبُ
 اعْتَرَضَ عَلَيْهِ^(٣) عُكَيْمُ الْحَبَشِيُّ ، فَقَالَ :
 وَيَوْمَ عُثْدَانَ كُنَّا الْأَسَدَ قَدْ عَلِمُوا
 وَيَوْمَ يَثْرِبَ كُنَّا فِخْـلَةَ الْعَرَبِ
 وَلِـئْلَ الْفِيلِ إِذْ طَارَتْ قُلُوبُهُمْ
 وَكُلُّهُمْ هَارِبٌ مُـوْفٍ عَلَى قَتَبِ
 مَنَا النَّجَاشِيِّ وَذُو الْعَقَصَيْنِ صَهْرَكُمُ
 وَجَدُّ أِبْرَهَةَ الْخَامِي أَبِي طَلَبٍ^(٤)
 هَبْنِي غَفَرْتُ لِعَدْنَانَ تَهْكُمُهُمْ
 قَمًا لِحَمِيرٍ وَالْمَقُولِ فِي النَّسَبِ
 حَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ مَحْرَبَةٍ
 جَمَعَ الشُّبَيْكَةَ نُونُ الزَّاخِرِ اللَّجَبِ^(٥)

(١) في الأصل : « فلما » .

(٢) ترجم له ياقوت في معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين السكيت ابن زيد الأسدي مفاخرة .

(٣) اعترض عليه ، أي دخل معه في الشعر متما ماقاله .

(٤) ذو العقصين ، يعني به الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين ، كان له في رأسه شبه قرنين ، أي عقصتين . والعقص : ضرب من ضفر الشعر . وكان الروم أصحابا للعرب .

(٥) سيأتي في تفسير الجاحظ أن حمير كانت حمارة . ومحربه ، كذا وردت في الأصل ، وستأتي في ص ٢٠٢ برسم « محزوة » . والنون : السمك ، واحده نونة . وهو الحوت أيضا .

عُمدان : حصنٌ كانَ ينزلهُ الملكُ الذي يكونُ على اليَمَن ، وكانَ عَجَمِيًّا ،
فَلَمَّا مَلَكَتِ الحَبَشَةُ اليَمَنَ أَخْرَبَتْهُ إِلَّا بَقَايَا هَدَمَهَا عِثَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي الْإِسْلَامِ . وَقَالَ : « يَنْبَغِي لِمَا ثَرِ الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ تُنْحَى » . وَكَانَ فِي الْحَصَنِ
مَصْنَعَةٌ عَلَيْهَا قُبَّةٌ مِنْ طَلْقٍ ، وَفِيهَا يَقُولُ خَلْفُ الْأَحْمَرِ :

وَمَصْنَعَةُ الطَّلَقِ أَوْدَى بِهَا عَوَادِي الْأَحَايِشِ بِالصَّيْدِ^(١)
وَفِيهَا يَقُولُ قَدَامَةُ حَكِيمُ الْمَشْرِقِ^(٢) ، وَكَانَ صَاحِبَ كَيْمِيَاءَ :
فَأَوْقَدَ فِيهَا نَارَهُ وَلَوْ أَنَّهَا أَقَامَتْ كَعَمْرِ الدَّهْرِ لَمْ تَنْصَرِّمْ
لَأَنَّ الطَّلَقَ لَوْ أُوقِدَ عَلَيْهِ أَلْفَ عَامٍ لَمْ يَسْخُنْ . وَبِهِ يَتَطَلَّى التَّفَاطُونُ إِذَا
أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي النَّارِ .

٨٤ ظ

وَقَالَ لَبِيدُ :

أَصَاحٌ تَرَى بُرَيْقًا هَبًّا وَهْنًا كَمِصْبَاحِ الشَّعِيطَةِ فِي الذُّبَالِ
أَرِقْتُ لَهُ وَأَنْجَدَ بَعْدَ هَذِهِ وَأَصْحَابِي عَلَى شُعْبِ الرَّحَالِ
يُضِيءُ رَبَابُهُ فِي الْمَزْنِ حُبْشًا قِيَامًا بِالْحِرَابِ وَالْإِلَالِ^(٣)

(١) المصنعة : شبه صهريج يتخذ للماء . والطلق ، بالكسر وبالفتح : حجر
براق يتشظى صفائح إذا دق . والصيدين : الملك . قال رؤبة :

إِنِّي إِذَا اسْتَعْلَقَ بَابَ الصَّيْدِ لَمْ أَنْسِهْ إِذْ قَلَّتْ يَوْمًا وَصْنِي

(٢) فِي الْأَصْلِ وَسَائِرُ النُّسخ : « قَدَامَةُ بْنُ حَكِيمِ الْمَشْرِقِ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي الْحَيَوَانَ
٥ : ٩٥ . وَقَدْ يَكُونُ قَدَامَةُ هَذَا جَدًّا لِقَدَامَةِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ قَدَامَةَ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « رَبَاوَةٌ » تَحْرِيفٌ ، صَوَابُهُ فِي دِيَوَانِ لَبِيدٍ ١٢٤ . وَالرَّبَابُ :
السَّحَابُ الَّذِي تَرَاهُ كَأَنَّهُ مُتَدَلٍّ ، كَأَنَّهُ أَعْنَاقُ النِّعَامِ . وَالْإِلَالُ : جَمْعُ أَلَّةٍ ، وَهِيَ
الْحَرْبَةُ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَبِاللَّآلِي » ، صَوَابُهُ فِي الدِّيَوَانِ

وقال ذلك لبيدٌ لأنهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم ،
وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضخم أبدانهم - رأيتَ هؤلاء
لم ترَ مثله ولم تسمع به ، ولم تتوهمه .
وأما قوله :

* ويومَ يثربَ كنّا فحلةَ العربِ *

فإنَّ مُسَرَفَ بنَ عُقبةَ المرِّي^(١) ، حينَ كانَ أباحَ المدينةَ ، زعموا أنَّه قد كانَ
هناكَ أمرٌ قبيحٌ من السودان والجنود ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مُضرٍ :
فسائلُ مُسَرَفِ المرِّي عنكم غداةَ أباحَ للجنود العذارى^(٢)
فمازجكم على حَنَقِ زَنُوجٍ وفزَّ الشَّامُ كالأسدِ الضَّواري^(٣)
ودافعَ وهَرَزُ والفرسُ عنكم ورأسُ الحبشِ يحكمُ في ذمار^(٤)
فأفسدَ نسلَكم بسوادِ لونٍ وأيرَ مثلَ غُرمولِ الحمارِ

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسراره في سفك الدماء وانتهاك حرمة
المدينة وانتهاجها في وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعثه بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية
وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وبهذه الصورة ورد في البيان ٢ : ١٣١ .
وانظر الطبري ٧ : ٥ - ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ - ١٦٢ . توفي مسرف
أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر الذهبي أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) في النجوم الزاهرة أنه قد افتض في وقعة الحرة ألف عذراء . والعذارى
بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهي لغة في جمع عذراء ، ومنها العذارى
بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يفز فزاة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسي أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن الحميري ،
منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار ، كقطام وسحاب : بلد باليمن
على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحة الحبش لليمن كما ذكر إباحة مسرف للمدينة .

وأما قوله :

حَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ مُحَرَّزَةٍ جَمَعَ الشُّبَيْكَةُ نُونُ الزَّائِرِ اللَّجْبِ^(١)

فإنه ذهب إلى ما تقول الرواة أن حمير كانت حمارة .

وأما الشُّبَيْكَةُ فأراد الشبكة .

وقال السودان : فهذا الفضل فينا ، ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم قط إلا على جنازة أو قبر ، إلا النجاشي فإنه صلى عليه وهو بالمدينة وقبر النجاشي بالحبشة .

قالوا : والنجاشي هو كان زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان من النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالد بن سعيد^(٢) فجعله وليها ، وأصدق عن النبي صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار^(٣) .

٨٥ و

قالوا : وثلاثة أشياء جاءكم من قبائنا . منها الغالية ، وهي أطيب الطيب وأخضره وأكرمه . ومنها النعش وهو أستر للنساء وأصون للحرم . ومنها المصحف ، وهو أوثق لما فيه وأحصن له ، وأبهى وأهيا .

(١) في الأصل : « حمارة » : وكذا في التفسير بعده . وانظر ما سبق في ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصي ، رابع المسلمين أو خامسهم ، بعثه رسول الله إلى ملك الحبشة في رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢١٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب - واسمها رملة - زوجاً لعبيد الله ابن جحش ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبشة ، فتنصر زوجها عبيد الله =

قالوا : ونحن أهولُ في الصدور وأملا للعيون ، كما أن المسودة أهولُ في العيون وأملا للصدور من المبيضة^(١) ، وكما أن الليل أهولُ من النهار .
قالوا : والسوادُ أبداً أهول . وإنَّ العربَ لتصفُ الإبل فتقول : الصَّهبُ سرع ، والحُمُرُ غُزُر ، والشودُ بُهَى^(٢) . فهذا في الإبل .
قالوا : ودُمُ الخيلِ أبهى وأقوى ، والبقرُ الشودُ أحسنُ وأبهى ، وجلودُها أتمنُّ وأنفعُ وأبقى . والحُمُرُ الشودُ أتمنُّ وأحسنُ وأقوى . وسودُ الشاءِ أدسمُ ألباناً وأكثرُ زُبداً ، والدُّبُسُ أغزرُ من الحُمُر^(٣) .
وكلُّ جَبَلٍ وكلُّ حجرٍ إذا كانَ أسودَ كانَ أصابَ صلابَةً وأشدَّ يَبوسةً . والأسدُ الأسودُ لا يقومُ له شيء .

وليس من الثمرِ شيءٌ أحلى حلاوةً من الأسود ، ولا أعمَّ منفعةً ولا أبقى على الدهر . والنَّخيلُ أقوى ما تكونُ إذا كانت سودَ الجذوع .

= وارتد عن الإسلام ، فبعث فيها رسول الله إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري نخطبها عليه النجاشي . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسي ، وقد بدأ التسويد في سنة ١٢٩ أي قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبري ٩ : ٨٢ . وفي سنة ٢٠٢ جعل المأمون على بن موسى بن جعفر ولي عهده وأمر جنده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة في الأقبية والقلائس والأعلام . الطبري ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على المأمون والانقسام في طوائف الموالين للعباسيين . وفي تلك السنة أيضاً وثب أخو أبي السرايا بالكوفة فيبض ، فهم المبيضة . الطبري ١٠ : ٢٤٥ . ومن المبيضة أيضاً أصحاب المقتنع الكندي انظر صحاح الجوهري (يبض) .

(٢) انظر مثيل هذا القول لحنيف الخناتم ، وكان من آبل الناس أي أحذقهم برعية الإبل . في اللسان (بها ١٠٧) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبساء ، وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسَّوَادِ الأعظم ^(١) » . وقال الأنصاري :

أَدِينُ وما دَبَنِي عَلَى بَمْفَرَم

ولكنْ عَلَى الشَّمِّ الطَّوَالِ القَّرَاوِحِ ^(٢)

عَلَى كُلِّ خَوَارٍ كَأَنَّ جَذْوَعَهَا

طَلِينٍ بَقَارٍ أَوْ بَدَمٍ ذِبَابُحٍ ^(٣)

قالوا : وأحسن ^(٤) الخُضْرَةُ ما ضَارَعَ السَّوَادِ . قال الله جلَّ وعلا :

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ^(٥) ، ثم قال لَمَّا وَصَفَهُمَا وَشَوَّقَ إِلَيْهِمَا :

﴿ مُدْهَمَّتَانِ ﴾ ^(٦) قال ابن عباس : خَضِرَاوَانٍ مِنَ الرَّيِّ سَوْدَاوَانِ .

وليس في الأرض عودٌ أحسنَ خَشَبًا وَلَا أَغْلَى ثَمَنًا ، وَلَا أَثْقَلَ وَزَنًا

وَلَا أَسْلَمَ مِنَ الْقَوَادِحِ ^(٧) ، وَلَا أَجْدَرَ أَنْ يَنْشَبَ فِيهِ الْخَطُّ مِنَ الْآبَنُوسِ ^(٨) .

ولقد بلغ من اكتنازه والثامه ومُلُوسته وشدة تداخله ، أَنَّهُ يَرُسُّبُ فِي الْمَاءِ

(١) في اللسان (سود ٢١١) . « وفي الحديث : إِذَا رَأَيْتُمُ الْاِخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ

بِالسَّوَادِ الأعظم » .

(٢) وكذا في اللسان (خور) : وهو سويد بن الصامت الصحابي الجليل .

انظر اللآلئ ٣٦١ والاقتضاب ٣٧٥ واللسان (قرح) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الشَّم : العاليات ، يعني النخل . والقراوِح : جمع قرواح ، وهو الأجرد

الذي قد شذب كربه .

(٤) في اللسان : « ونخلة خوار : غزيرة الحمل » . ويروى : « أو بحمأة

مأخ » .

(٥) في الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٢ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قادح ، وهو أكال يقع في الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس ، بضم الباء وكسر ها : شجر ينبت في الحبشة والهند ، خشبه

أسود صلب . دخیل انظر المعجم الوسيط .

دونَ جميعِ العِيدانِ والخَشَبِ . ولقد غَلَبَ بذلكَ بعضَ الحجارة ؛ إذ صارَ
يرسُبُ وذلكَ الحجرُ لا يرسُبُ .

والإنسانُ أحسنُ ما يكونُ في العينِ مادامَ أسودَ الشعرِ . وكذلك
شعورُهم في الجنةِ .

٨٥ ظ

وأكرمُ ما في الإنسانِ حَدَقَتاه ؛ وهما سوداوان . وأكرمُ الأحوالِ
الإنمِد ، وهو أسود . ولذلك جاء أن الله يُدخلُ جميعَ المؤمنين الجنةَ جُردًا
مُردًا مكحلين .

وأفنع ما في الإنسانِ له كبِدُهُ التي بها تَصَلُحُ مَعِدَتُهُ ، وينهضمُ طعامُهُ ،
وبصلاح ذلك قامَ بدنُهُ ؛ والكبدُ سوداء .

وأنفسُ ما في الإنسانِ وأعزُّهُ سَوِيداه قلبه ، وهى عََلَقَةٌ سوداء تكون
في جوفِ فؤاده ، تقومُ في القلبِ مقامَ الدماغِ من الرأسِ .
ومن أطيب ما في المرأةِ وأشبه شَفَقَهاا للتقبيلِ ، وأحسن ما يكونان
إذا ضارعتا السَّواد .

وقال ذو الرِّمَّة :

لَمَيَّاهُ فِي شَفَقَيْهَا حُوءٌ لَمَسٌ فِي اللَّثَاتِ فِي أَنْيَابِهَا شَنْبٌ^(١)
وَأَطْيَبُ الظِّلِّ وَأَبْرَدُهُ مَا كَانَ أَسْوَدَ . وقال الراجز :
* سود غرايب كأظلالِ الحجرِ *

(١) دبوان ذى الرمة ه واللسان (شنب) .

وقال حميد بن ثور^(١) :

ظَلَّلْنَا إِلَى كَهْفٍ وَظَلَّتْ رَكَبُنَا

إِلَى مُسْتَكِفَاتٍ لَهَا مِنْ غُرُوبٍ

إِلَى شَجَرٍ أَلَى الظَّلَالِ كَأَنَّهُ

رَوَاهِبُ أَحْرَمَنِ الشَّرَابِ عُذُوبٍ^(٢)

وجعل الله الليل سكناً وجماماً ، والنهار للكسب والسكد .

والذي يدك على أن السواد في وجه آخر مقرون بالشدة والصرامة ،

والهيج والحركة ، انتشار الحيات والعقارب وشدة سُمومها بالليل ، وهيج

السباع واستكلابها بالليل . وتحرك الأوجاع وظهور الغيلان ، هذه

كلها بالليل .

قال : وأشبهننا الليل من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلة وأشفاها للنفس ، وأسرع لحيثها إذا

أردتها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها في الظامة ، عند إسبال

الشتور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لون أرسخ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد .

وقد جرى المثل في تبعيد الشيء : « لا ترى ذلك حتى يبيض القمار ،

وحتى يشيب الغراب^(٣) » .

(١) في ديوانه ٥٧ واللسان (كفف ، حرم ، لما) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .

(٢) عذوب : جمع عاذب ، وهو الذي لا يأكل ولا يشرب .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو العَرَضُ المَلَّاءُ^(١) عند الحكماء .

وأكرمُ العِطَرِ المسك والعنبر ، وهما أسودان .

وأصابُ الأحجارِ سودها . وقال أبو دَهَبِلٍ الجعفي يمدح الأزرق ٨٦ و

المخزومي ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة^(٢) :

فإنَّ شُكْرَكَ عِنْدِي لَا انْقِضَاءَ لَهُ مَادَامَ بِالْجَزَعِ مِنْ لُبْنَانَ جُلُودُ

أَنْتَ الْمَدْحُ وَالْمُغَلَى بِهِ ثَمَنًا إِذْ لَا يِعَاتِبُ صَخْرُ الْجَنْدِلِ الشُّودُ^(٣)

والعرب تفخر بسواد اللون . فإنَّ قال : فعلامَ ذلك وهي تقول : فلان

هيجانٌ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنما تريد

به كرمَ الجوهر ونقاءه . وقد نَحَرَتْ خُضْرَ محاربٍ بأنَّها سود ، والشود عند

العرب الخُضْرُ^(٤) . وقال الشَّماخ بن ضرار :

وراحتْ رَوَاحًا مِنْ زُرُودَ فَنَارَعَتْ

زُبَالَةً جَلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ أَخْضَرًا^(٥)

(١) في الأصل : « الملاء » ، صوابه من تصحيح ن ، س .

(٢) في جمهرة ابن حزم ١٤٨ — ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله

ابن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة . ونحوه في الشعراء ٥٩٦ . وسماء في الأغاني ٦ : ١٥٧

« ابن الأزرق » ، وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة .

(٣) كذا . وفي الأغاني ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦

وقال الراجز :

حَتَّى انتَضَانِي الصُّبْحُ مِنْ لَيْلٍ خَضِرُ

مَثَلُ انتِضَاءِ البَطْلِ السِّيفِ الذِّكْرُ^(١)

وهم يسمُّون الحديدَ أخضرَ لأنَّه صُلْبُ^(٢) ؛ لأنَّ الأخضرَ أسود^(٣) .

وقال الحارث بن حلزة :

إِذْ رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ رَيْنَ سِرًّا حَتَّى نَهَاهَا الْحِجَاءُ

فَهَزَمْنَا جَمْعَ ابْنِ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارَسِيَّةٌ خَضِرَاءُ^(٤)

وقال المُحَارِبِيُّ وهو يفخر بأنَّه من الخُضِرِ :

فِي خُضِرٍ قَيْسٍ نَمَانِي كُلُّ ذِي فَخَرٍ

صَعْبِ الْمَقَادَةِ أَبِي الضَّمِيمِ شَعَشَاعٍ

وبنو المغيرة خُضِرُ بنى مخزوم . قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة

المخزومي - ويقال إنَّها للفضل بن العباس اللُّهْمِي^(٥) :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ

مَنْ يَسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِدًا يَمْلَأُ الدَّلَوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) في الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى انتضاء » .

(٢) وجه الكلام « مع أنه صلب » . وفي الحيوان ٣ : ٢٤٦ « وأصل الخضرة إنما هولون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعد الحديد أخضر والسماء خضراء » .

(٣) في الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « ابن أم قضاع » . وانظر المعلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأنباري .

وابن أم قطام هو حجر بن الحارث والد امرئ القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

وَحُضِرَ غَسَّانَ بَنُو جَفْنَةَ الْمَلُوكِ ؛ قَالَ الْغَسَّانِيُّ :

إِنَّ الْخُضَارِمَةَ الْخُضِرَ الَّذِينَ وَدَّوْا أَهْلَ الْبَرِيصِ نَمَانِي مِنْهُمْ الْحَكَمُ ^(١) ٨٦ ظ

وقد ذكر حسانُ أو غيره الخضرَ من بني عُكَيْمٍ ^(٢) حين قال :

وَلَسْتُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فِي بَيْتٍ مَكْرَمَةٍ

وَلَا بَنِي جُمَحٍ الْخُضِرِ الْجَلَاءِ عِيْدٍ ^(٣)

قالوا : وكان ولد عبد المطالب العشرة السادة دُلَمًا ^(٤) ضُخْمًا ^(٥) ، نظر إليهم

عامرُ بن الطفيل يَطُوفُونَ كَأَنَّهُمْ جَمَالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تُمنع السّدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلمَ ضُخْمًا . وآلُ أبي طالبٍ أشرفُ الخلق ، وهم

سُودٌ وَأَدَمٌ وَدُلَمٌ .

(١) الخُضَارِمَةُ : جمع خُضِرَ ، بكسر الخاء والراء ، وهو السيد المحول .

وفي الحيوان : « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث ملك العساسنة .

وفي الحيوان : « نَمَانٌ » .

(٢) في القاموس (عكِم) : « وكزير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات في ديوان حسان ١٣٣ - ١٣٧ يهجو بها مسافع بن عياض

التيمنى ، أولها :

لَوْ كُنْتُ مِنْ هَاشِمٍ أَوْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَوْ عَبْدُ شَمْسٍ أَوْ اصْحَابُ اللِّوَا الصِّيدِ

وَصَدْرُهُ فِيهِ :

* أَوْ فِي السَّرَارَةِ مِنْ تَيْمٍ رَضِيَتْ بِهِمْ *

(٤) الدلم : جمع أدلم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضُخْمُ : جمع الأَضْمِ . وفي اللسان : « قال ابن سيده : وأما قول أهل

اللغة أضخم ، فالذي أتصوره في ذلك أنهم لم يشعروا بالمفاضلة في هذا البيت فجعلوه

من باب أحمر . قال : ويدل على المفاضلة أنهم لم يجيئوا به في بيت ولا مثل مجرداً

من اللام ، فيما علمناه من مشهور أشعارهم . على أن الذي حكاه أهل اللغة لا يمتنع » .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثَتْ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » .

وقد علمت أنه لا يُقال للزنج والحبشة والثوبة بيض ولا أحمر ، وليس لهم اسمٌ إِلَّا السُّود .

وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيّه [إلى الناس ^(١)] كافة ، وإلى العرب والعجم جميعاً . فإذا قال : « بُعِثَتْ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ولسنا عنده حمر ولا بيض ، فقد بُعث إلينا ؛ فإنما عنانا ^(٢) بقوله « الأسود » . ولا يخرج الناس من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عداد الرُّوم والصَّقَالِبَةِ ، وفارس وخراسان . وإن كانت من السُّود ، فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدم وسمرٌ سودٌ ، حين دخلوا معنا في جملتنا ، كما يجعل العربُ الإناث من الذكور ذكورا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والثوبة ليسوا بحمر ولا بيض ، وأنهم سُود ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد جعلنا والعرب سواء ، ونكون نحن السُّودَ دونهم . فإن كان اسمُ أسودَ وقع علينا فنحن السودان المُخْلِص ، والعربُ أشباهُ المُخْلِص . فنحن المتقدمون في الدَّعوة . وإذا كان اسمُهم محمولا على اسمنا ؛ إذ كنّا وحدنا يقال لنا سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إِلَّا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأنتم ترون كثرة العدد مجداً ، ونحن أكثر الناس عدداً وولداً .

(١) موضع التكملة بياض في الأصل .

(٢) في الأصل : « عنا » ، ووجه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحن صنفان : النمل والكلاب^(١) .

قالوا : ولو عدّتم بالنمل العرب كلّها لأرّبت عليها ، فكيف إذا قرّنت إليها الكلاب ؟ ثم كيف إذا ضمّتم إليها الحبشة والنوبة وفزان ومرو وزغاوة^(٢) وغير ذلك من أنواع السودان ؟

وليست قحطان من عدنان في شيء . ونحن بالحبشة أشبه ، وأرحامنا بهم أمس من عدنان بقحطان . وإن ذكرتم اختلاف اللغات ؛ فإن لغة عَجُز هوازن^(٣) ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تتفق والنجر مختلف . ومن دخل أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ، علم أن اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قُط ، وإنما رأيتم السّبي يحيى من سواحل قنبلة^(٤) وغياضها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لأهل قنبلة جمال ولا عقول . وقنبلة : اسم الموضع الذي ترقون منه سفنكم إلى ساحله . لأن الزنج ضربان : قنبلة ولنجدية^(٥) ، كما أن العرب ضربان :

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) في القاموس : « وزغاوة ، بالضم : جنس من السودان » . وانظر التنبية والإشراف ١٩١ .

(٣) في الكلام نقص ، ولعل تمته : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق في مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) في التنبية والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج ومساكنهم ، إلى أن يتصل ذلك ببلاد سفالة الزنج وجزيرة قبلو ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

قَحْطَانِ وَعَدْنَانِ . وَأَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا مِنْ أَهْلِ لَنْجُويَةِ أَحَدًا قَطُّ ، لَا مِنْ السَّوَاهِلِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْجُوفِ^(١) ، وَلَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ نَسِيتُمْ الْجَمَالَ وَالْكَمَالَ .

فَإِنْ قُلْتُمْ : وَكَيْفَ وَنَحْنُ لَمْ نَرِ زَنْجِيًّا قَطُّ لَهُ عَقْلٌ صَبِيٌّ أَوْ امْرَأَةٌ ؟

قُلْنَا لَكُمْ : وَمَتَى رَأَيْتُمْ مِنْ سَبْيِ السِّنْدِ وَالْهِنْدِ قَوْمًا لَهُمْ عَقُولٌ وَعِلْمٌ وَأَدَبٌ وَأَخْلَاقٌ حَتَّى تَطْلُبُوا ذَلِكَ فَيَمَاقُطَ إِلَيْكُمْ مِنَ الزَّيْجِ . وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا فِي الْهِنْدِ مِنَ الْحِسَابِ وَعِلْمِ النُّجُومِ وَأَسْرَارِ الطَّبِّ ، وَالخُرُطِ وَالنَّجْرِ ، وَالتَّصَاوِيرِ وَالصَّنَاعَاتِ الْكَثِيرَةِ الْعَجِيبَةِ ، فَكَيْفَ لَمْ يَتَّفِقْ لَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ مَا سَبَيْتُمْ مِنْهُمْ وَاحِدٌ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَوْ بَعْشَرُ هَذِهِ الصِّفَةِ ؟

فَإِنْ قُلْتُمْ : أَهْلُ الشَّرَفِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ إِنَّمَا يَنْزِلُونَ الْوَاسِطَةَ ، وَبِقَرَبِ دَارِ الْمَلِكِ ، وَهَؤُلَاءِ حَاشِيَةٌ^(٢) وَأَعْلَاجُ وَأَكْرَّةٌ ، وَنُزَالُ السَّوَاهِلِ وَالْآجَامِ وَالْفَيُوضِ^(٣) وَالْجَزَائِرِ ، مِنْ أَكَارٍ وَمِنْ صَيَّادٍ .

قُلْنَا : وَذَلِكَ مَنْ رَأَيْتُمْ وَمَنْ لَمْ^(٤) تَرَوْا مِنَّا . وَجَوَابُنَا هُوَ جَوَابُكُمْ لَنَا .

قَالُوا : وَلَوْ أَنَّ الزَّنْجِيَّ وَالزَّنْجِيَّةَ إِذَا تَنَاحَا بَقِيَتْ أَوْلَادُهُمَا بَعْدَ الْخِيضِ وَالْإِحْتِلَامِ بِبِلَادِ الْعِرَاقِ ، كَانُوا قَدْ غَلَبُوا عَلَى الدَّارِ بِالْعَدَدِ وَالْجَلَدِ ، وَالْعِلْمِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَلَسَكَنَّ وَلَدُ الْهِنْدِيِّ وَالْهِنْدِيَّةِ ، وَالرُّومِيُّ وَالرُّومِيَّةُ ، وَالْخِرَاسَانِيُّ وَالْخِرَاسَانِيَّةُ ، يَبْقَوْنَ فِيكُمْ فِي بِلَادِكُمْ كِبَاءَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَلَا يَبْقَى وَلَدُ

٨٧ ظ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْجُوف » ، صَوَابُهُ بِالْجِيمِ كَمَا صَحَّحَ فِي ن ، س .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « حَاشِيَتُهُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « وَالْفَيُوض » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَمَالٌ » .

الزَّنجِيَّينَ بعد الحيض والاحتلام . على أَنَّا لَا نُصِيبُ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَاحِدًا يَبْلُغُ مَا ذَكَرْنَا ، إِلَّا أَن يَضْرِبَ الزَّنجِيُّ فِي غَيْرِ الزَّنجِيَّاتِ ، وَالزَّنجِيَّةِ فِي غَيْرِ الزَّنجِ . وَلَوْلَا أَنَّ الزَّنجِيَّ وَالزَّنجِيَّةَ قَلِيلًا مَا يَرِيدَانِ ^(١) مِنَ الْغَرَابِ وَالْغُرَبَاءِ ، لَكُنَّا عَلَى حَالٍ ^(٢) سَنَرَى لِرَجَالِ الزَّنجِ نَسْلًا كَثِيرًا . وَلَكِنَّ الزَّنجِيَّةَ لَا تَكَادُ تَنْشَطُ لَغَيْرِ الزَّنجِيِّ .

قَالُوا : وَكَذَلِكَ الْبَيْضَانُ مِنْكُمْ ، لَا يَكَادُونَ يَنْشَطُونَ لَطَلَبِ النَّسْلِ مِنَ الزَّنجِيَّاتِ . وَالزَّنجِيَّةُ أَيْضًا مِنَ الزَّنجِيِّ ^(٣) أَسْرَعُ إِقْطَاعًا مِنْهَا مِنَ الْأَبْيَضِ . قَالُوا : وَأَنْتُمْ لَا تَكَادُونَ تَعْدُونَ مَنْ وُلِدَ لَهُ مِنْ صُلْبِهِ مِائَةٌ وَلَدٍ إِلَّا أَن يَكُونَ خَلِيفَةً ^(٤) ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لِكثْرَةِ الطَّرِيقَةِ ^(٥) ، وَلَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي سَائِرِكُمْ . وَالزَّنجِ لَا تَسْتَكْثِرُ هَذَا وَلَا تَسْتَعْظِمُهُ ؛ لِكثْرَتِهِ فِي بِلَادِهِمْ ، لِأَنَّ الزَّنجِيَّةَ تَلِدُ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ بَطْنًا فِي نَحْوِ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا ، فِي كُلِّ بَطْنٍ اثْنَيْنِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ . لِأَنَّهُ يُقَالُ إِنَّ النِّسَاءَ لَا يَلِدْنَ إِذَا بَلَغْنَ السَّتِينَ إِلَّا مَا يَحْكِي عَنْ نِسَاءِ قَرِيْشٍ خَاصَّةً .

وَالزَّنجِ أَحْرَصُ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ عَلَى نِسَائِهِمْ ، وَنِسَاؤُهُمْ لَهُمْ كَذَلِكَ ، وَهِنَّ أَطْيَبُ مِنْ غَيْرِهِنَّ .

قَالُوا : فَتَأَمَّلُوا قَوْلَنَا وَاحْتِجَاجَنَا ؛ فَإِنَّا قَدْ رَوَيْنَا الْأَخْبَارَ وَقُلْنَا الْأَشْعَارَ ، وَعَرَفْنَاكُمْ وَعَرَفْنَا الْأُمَمَ .

(١) حُورَتْ فِي ن ، س إِلَى : « يَلِدَانِ » .

(٢) ن ، س : « عَلَى كُلِّ حَالٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ وَسَائِرِ النُّسخ : « مِنَ الزَّنجِ » .

(٤) انْظُرْ جُمُهورية أَنْسَابِ الْعَرَبِ لِابْنِ حَزْم ٤٠ ، ٩٨ .

(٥) طَرِيقَةُ الْفَعْلِ : أَثَامَ . وَالطَّرِيقَةُ : الزَّوْجَةُ أَيْضًا .

وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرب الأجناس كلها فلم يجد مثلهن ، ولذلك تزوج أم مكينة الزنجية وأقام عليها ، وترك النساء ، للذي وجد عندها . وفي ذلك يقول :

يأربَّ خَوْدٍ من بنات الزَّنجِ تَمْشِي بَتْنُورٍ شَدِيدِ الوَهَجِ
* أَخْتَمَ مِثْلَ القَدَحِ الخَلْنَجِ *

وكانت دنانيرُ بنت كعبوية الزنجي عند أعشى سليم ، وكانت شديدة السَّواد ، فرآها يوماً وقد خضبت يديها بالحناء ، واكتحلت بالإثمد ، فقال :

تَخْضِبُ كَفًّا بِتَكْتٍ من زَنْدِهَا فَتَخْضِبُ الحِمْيَاءَ من مَسَوْدَّهَا^(٢)
كَأَنَّهَا والكُحْلُ في مِرْوَدَّهَا^(٣) تَكْحُلُ عَيْنِهَا بَبَعْضِ جِلْدِهَا

فلما سمعت ذلك قالت :

وَأَقْبَحُ من لَوْنِي سَوَادُ عَجَانِهِ عَلَى بَشَرٍ كَالْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَنْصَعُ^(٤)
فَسَمَّوْهُ أَسْوَدَ ، وصاح به الصَّبِيانُ فطَلَّقَهَا . وقد كان صبيحة عُرْسِهَا قال :

* إِنَّ الدَّنَانِيرَ تَكُونُ سُودًا^(٥) *

(١) ديوانه ١٤٣ والأغاني ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز في الأغاني ١٨ : ٣٦ إلى دعبل الخزاعي . وفي الأغاني : « قطعت » بدل « بتكت » ، وكلاهما بمعنى .

(٣) المروء ، بتشديد الدال لشعر هو المروء الذي يكتحل به . وانظر لأمثال هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة ، وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جدار النخلة .

(٥) في ن ، س : « سوداء » ، ولكن هكذا ضبطت « سودا » في الأصل بضم السين وبدون الهمزة ، وهو شطر من الأرجاز .

فَقَالَتْ :

بِياضِ الرَّأْسِ أَقْبَحُ مِنْ سَوَادِي وَشَيْبُ الْحَاجِبَيْنِ هُوَ الْفُضُوحُ
فَأَمْسَكَ عَنْهَا حِينَئِذٍ عَاوَدَهَا ، فَلَمَّا فَضَحَتْهُ طَلَّقَهَا .

قَالُوا : وَإِنْ نَظَرَ الْبَيْضَانُ إِلَى نِسَاءِ الشُّودَانِ بِغَيْرِ عَيْنِ الشَّهْوَةِ فَكَذَلِكَ
الشُّودَانُ فِي نِسَاءِ الْبَيْضَانِ . عَلَى أَنَّ الشَّهَوَاتِ عَادَاتٌ وَأَكْثَرُهَا تَقْلِيدٌ . مِنْ
ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ أَشْهَى النِّسَاءِ عِنْدَهُمُ الْهِنْدِيَّاتُ وَبَنَاتُ الْهِنْدِيَّاتِ وَالْأَغْوَارُ .
وَالْيَمَنُ أَشْهَى النِّسَاءِ عِنْدَهُمُ الْخَبَشِيَّاتُ وَبَنَاتُ الْخَبَشِيَّاتِ . وَأَهْلُ الشَّامِ أَشْهَى
النِّسَاءِ عِنْدَهُمُ الرُّومِيَّاتُ وَبَنَاتُ الرُّومِيَّاتِ . وَكُلُّ قَوْمٍ فَإِنَّمَا يَشْتَهُونَ جَنَابَهُمْ
وَسَبَبَهُمْ . إِلَّا الشَّاذَّ ، وَلَيْسَ عَلَى الشَّاذِّ قِيَاسٌ .

قَالُوا : وَأَطِيبُ^(١) الْأَفْوَاهِ نَكْهَةٌ ، وَأَشَدُّهَا عَذُوبَةً ، وَأَكْثَرُهَا رِيقًا ،
أَفْوَاهُ الزَّيْجِ . وَالسَّكِلَابُ مِنْ بَيْنِ السَّبَاعِ أَطِيبُ أَفْوَاهًا مِنْهَا^(٢) .

قَالُوا : وَالسَّوَادُ مُلَاوِمٌ^(٣) لِلْعَيْنِ ، وَإِذَا اعْتَلَّتْ نَخِيفٌ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا
دَوَاءٌ خَيْرٌ مِنَ الْقَعُودِ فِي الظُّلْمَةِ وَفِي يَدِ صَاحِبِهَا خَرْقَةٌ سَوْدَاءُ . فَالسَّوَادُ لِلْإِبْصَارِ ،
وَخَيْرُ مَا فِي الْإِنْسَانِ الْبَصَرُ .

وَقَالُوا : وَالشُّودَانُ أَكْثَرُ مِنَ الْبَيْضَانِ ، لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يُعَذُّ الْبَيْضَانُ
فَارِسَ وَالْجِبَالَ وَخِرَاسَانَ ، وَالرُّومَ وَالصَّقَالِبَةَ وَفَرَنْجَةَ^(٤) وَالْأَبْرَ ، وَشَيْئًا

(١) سَقَطَتِ الْوَاوُ فِي كُلِّ مَنْ ن ، س ، خِلَافًا لِمَا فِي الْأَصْلِ .

(٢) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦ ، ٥ : ٣٣٧ .

(٣) كَذَا فِي أَصْلِ وَن ، س . وَيَبْدُو أَنَّهُ مِنَ اللُّغَةِ الْمَوْلَدَةِ الَّتِي شَاعَتْ قَدِيمًا .
وَفِي اللِّسَانِ : « وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا طَعَامٌ لَا يَلَأْتُنِي ، وَلَا تَقِلُّ يَلَاوْمُنِي » .

(٤) انْظُرِ مَرْوَجَ الذَّهَبِ ٢ : ٣٤ وَالْفَهْرَسْتَ ٣٠ ، ٣٤ وَالْقَامُوسَ (فَرَنْجِي) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والسُّودان يُعْدُونَ الزَّنج والحبشة ، وفَزَّان وبربر ،
والقبط والثوبة ، وزَغَاوة ومَرَو ، والسُّند والهند ، والقَمَار^(١) والدَّيْلَا^(٢) ،
والصِّين وماصين . والبحر أكثر من البر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين
والزَّنج مملوءة سُرداناً ، كسرنديب ، وكَلَه^(٣) ، وأمل ، وزابج^(٤) وجزائرها
إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل .

٨٨ ظ

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام^(٥) يقول : السُّودان أكثر من البيضان ،
والصَّخر أكثر من الوحل ، والرَّمْل أكثر من التُّراب ، والماء المالح أكثر
من العذب .

قالوا : ومنا العربُ لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ
أسفَرُ ألواناً من العرب ، وهم من السُّودان . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » . وقد علم النَّاسُ أَنَّ العرب ليست بِحُمْرٍ كما
ذكرنا قبل هذا^(٦) .

(١) قمار بفتح القاف وكسرهما : موضع بالهند ينسب إليه العود القماري .

(٢) الذي في ياقوت « ديل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة
على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبيه والإشراف للمسعودي ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .

(٣) في الأصل ون ، س : « سودان » .

(٤) في معجم البلدان : « كله : فرضة بالهند ، وهي منتصف الطريق بين عمان
والصين ، وموقعها من المعمورة في طرف خط الاستواء » .

(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هي بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين
إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفي الأصل : « وريج » . وانظر ماسياني .
والباء تفتح وتسكّر .

(٦) الاشتيام : رئيس الركاب ، كما في اللسان (شتم) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا المَفْخَرُ لنا وللعرب على جميع البيضاء إن أحببت ذلك العرب ؛ وإن كرهته فإن المَفْخَرُ لنا بالذي ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نكثركم إلا بالزابع وحدها لفضأناكم بهم فضلاً مبيناً ؛ وذلك أن ملك الزابع إن غضب على أهل مملكة ولم يتقوه بالخراج بعث ألف سُنْبُوقَة^(١) في كل سُنْبُوقَة ألف رجل على أن [لا^(٢)] يجلدونهم ولا يقاتلونهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتى يتقوهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويغذون ويلبسون ، أضراً عليهم من مقدار الخراج المرار الكثيرة . فإن اتقوهم بالخراج وإلا أرسل إليهم ألف سُنْبُوقَة أخرى ، فلا يجد ذلك الملك بداً من أن يتقيته بكل ما طالب ، ولا يأمن أن يغضب فيأتي عليه وعلى أهل مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملك الزابع على خليج مَرَّةٍ والخليج فراسخ في فراسخ ، فبينما هو على مائدته وفي سرادقه على شاطئ الخليج ، إذ سمع صارخة فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل^(٣) . قالوا : امرأة سقط ابنها في هذا الخليج فأكله التمساح . قال : وفي مكان أنا فيه شيء يشاركني في قتل الناس ! ثم وثب فإذا هو في الخليج . فلما رأوه الناس سقطوا عن آخرهم ، فحضره^(٤) وهو فراسخ في فراسخ ، حتى أخذوا كل تمساح فيه أخذ يدي .

(١) الذي في القاموس « السنبوق » ، وقال : « السنبوق كعصفور :

زورق صغير » .

(٢) تسكلة يستقيم بها الكلام .

(٣) في الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) خفض الماء ونحوه : حركة . وفي الأصل : « خفضه » .

فيقال : إنَّ أهل الزابج وأغابها^(١) أكثر من شطر أهل الأرض .

قالوا : وآخر العمران كله سودان ، وما استدار من أقاصي العمران
أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرّحى الذي يلي الهواء ، الذي هو أوسع
وأكثر ذرعاً مما قصر عنه من فلك الرّحى^(٢) ولنعتبر ذلك بالجنّاح المطّيف ،
لا يرى أحد ذرعَه مع قلة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار .

وليس خلف الزابج بيضان ، وكذلك جميع بلاد السودان الساكنة
في الأطراف وفي آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنا أكثر ، وإذا كنّا أكثر كنّا أنحر . وقد
قال شاعركم^(٣) :

ولست بالأكثر منه حصي وإنما العزة للكثير^(٤)
قالوا : والقبط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن
[الولد^(٥)] فولد له منهم نبيّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه
السلام . وطالب النبيّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ،
وكنّاه به جبريل .

(١) السكامة مهجمة النقط في الأصل . والأغاب : جمع غب ، بالضم ، وهو
الغاض من الأرض قل :

كأها في الغب ذي العيطان ذئاب دجن دائم النهران

(٢) فلك الرّحى . مدارها . وفي الأصل ون . س : « ذلك الرّحى » .

(٣) هو الأعشى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة ، فضلاً عامر بن الطفيل عليه . والرواية المشهورة :

« منهم حصي » .

(٥) ليست بالأصل . والكلام يقتضيه .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنحاس إذا اشتد سواده كان أثمن وأجود . فمن استنكر لون السواد فما في فِرْنِجَة^(١) والرُّوم والصَّقَالِبَة من إفراط سُبُوطَة الشعر والرِّقَّة والصُّهْبِيَّة ، والحُمْرَة في شعر الرأس واللَّحْيَة ، وبياض الحواجب والأشعار ، أقبح وأسمج . وليس في السَّودان مُغْرَب^(٢) ، ليس المُغْرَب إلَّا فيكم . ولا سواه من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حدَّ التمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفة بالتفلسف^(٣) والنَّظَر ، ونحن أثقفُ النَّاس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إنَّ الله تعالى لم يجعلنا سَوْدًا تشويهاً بخلقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجَّة في ذلك أنَّ في العرب قبائل سَوْدًا كبنى سُلَيْم بن منصور . وكلُّ مَنْ نزل الحرَّة من غير بنى سُلَيْم كلَّهم سود . وإنَّهم ليتخذون الممالك للرعى والسَّقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيِّين^(٤) ومن الرُّوم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرَّة إلى ألوان بنى سُلَيْم^(٥) . ولقد بلغ من أمر تلك الحرَّة أنَّ ظبائها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وتعالبها وشاءها وحميرها ، وخيلها ، وطيرها كلُّها سَوْدٌ . والسَّواد والبياض إنَّما هما من قِبَل خلقه البلدة ، وما طبع الله عليه الماء

(١) انظر ما سبق في ص ٢١٥

(٢) المغرب . بفتح الراء : الأبيض أشعار العينين .

(٣) لعل هذا من أقدم النصوص التي ورد فيها لفظ التفلسف . وفي اللسان : « الفلاسفة : الحكمة ، أعجمي . وهو الفيلسوف ، وقد تفلسف » .

(٤) في الأصل : « الاشباين » بهذا الإهمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرّها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير ^(١) .

على أن بلاد بنى سليم تجرى تجرى بلاد الترك . ومن رأى إبلهم ودوابهم وكل شيء لهم تركى رآه شيئاً واحداً . وكل شيء لهم تركى المنظر . وربما رأى الغزاة دون العواصم أخلاط غنم الرّوم فلا يخفى عليهم غنم الرّوم من غنم الشام ، للرّومية التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقّعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى . وهذا موجود في كل شيء . وقد نرى جرّاد ^(٢) البقل والريحان وديدانتهما خضراً ^(٣) ، ونرى قمل رأس الشاب سوداً ، ونراها إذا ابيضّ رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضبت حمراً .

فليس سوادنا ، معشر الزنج ، إلاّ كسواد بنى سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من اسودّ من الناس إلاّ ^(٤) كإفراط بياض من ابيضّ من الناس . وكذلك الشجرة المتولدة من بينهما ، وكذلك الزّيّ والهيئات ، وكذلك الصناعات ، وكذلك المطاعم والشّهوات .

(١) في جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) في الأصل : « جزاز » ، صوابه في الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك في نوس .

(٣) في الأصل : « خضر » .

(٤) في الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أُسَيْلَمَ بنَ الأحنف الأسدي ، سوادَ
اليمانية فقال ^(١) :

أُسَيْلَمُ ذَاكُم لَا خَفَا بِمَكَانِهِ
لَعِينٌ تَدَاخَى أَوْ لِأُذُنٍ تَسْمَعُ ^(٢)
مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الَّذِينَ إِذَا انْتَمَوْا
وَهَابَ الرَّجَالُ حَلَقَةَ الْبَابِ قَعَقَعُوا
جَلًّا الْأَذْفَرُ الْأَحْوَى مِنَ الْمَسْكَ فِرْقَه
وَطِيبُ الدَّهَانِ رَأْسَهُ وَهُوَ أَنْزَعُ ^(٣)
إِذَا النَّفَرُ الشُّودُ الْيَمَانُونَ حَاوَلُوا
لَهُ حَاوَكَ بُرْدِيهِ أَرْقُوا وَأَوْسَعُوا
وَقَدْ عَابَ بَعْضُ الْبَيْضَانِ عَبْدَ بَنِي جَعْدَةَ بِلَوْنِهِ ، فقال :

قَدْ عَابَ لَوْنِي أَقْوَامٌ فَقُلْتُ لَهُمْ
مَا عَابَ لَوْنِي إِلَّا مُفْرِطُ الْحُمُقِ
إِنْ كَانَ لَوْنِي فِيهِ دُعْجَةٌ كَلَفٌ
حَزَنُ الْإِهَابِ فَإِنِّي أَيْضُ الْخُلُقِ

(١) الأبيات في الحيوان ٣ : ٤٨٦ والبيان ١ : ٣٩٦ و ٣ : ٣٠٥ والبخلاء ،
٢١٣ والعقد ٥ : ٣٤٣ .

(٢) في معظم المراجع : « لعين ترجى » .

(٣) في الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » ، صوابه من البيان والحيوان
والبخلاء . والأذفر : الشديد مطوَّح الرائحة . والأنزع : الذي انحسر الشعر عن
جانبَيْه .

أَرْضِي الصَّدِيقَ وَأُحْيِي الظُّعْنَ مُعْتَرِضًا

صَدَرَ الْقِنَاقِ وَأَكْنَى كَنَّهُ السَّرَقِ^(١)

٩٠ و

وكانت امرأة عمرو بن شأس تجفو عِرَارًا^(٢) بن عمرو ، وكان ابن
سوداء ، فقال عمرو بن شأس في ذلك ، وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات :

أَلَمْ يَأْتِهَا أَنِّي صَوْتُ وَأَنْتِ

تَخَشَّعْتُ حَتَّى مَا أَعَارِمُ مِنْ عَرَمٍ

وَأَطْرِقُ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ ، وَلَوْ يَرَى

مَسَاغًا لَنَابِيهِ الشُّجَاعُ لَقَدْ أَرَمَ^(٣)

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرْدُ

عِرَارًا لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ

وَإِنْ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ

فَأِنِّي أَحَبُّ الْجَوْنِ ذَا الْمَنْكِبِ الْعَمَمِ^(٤)

فَإِنْ كُنْتُ مَنَّى أَوْ تُحْبِّينَ شِمْتِي

فَكُونِي لَهُ كَالسَّمَنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمُ^(٥)

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) في الأصل : « عزار » أو « غراز » . صوابه من الحماسة ٢٨٠ - ٢٨٢
بشرح المرزوقي وما أثبت في حواشيه من المراجع ، والأغاني ١٠ . ٥٩ - ٦٠ .

(٣) أزم : عض شديداً . وفي الأصل : « أرم » ، صوابه في الأغاني .

(٤) في الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع المقدمة . والعمم : الطويل
النام من كل شيء .

(٥) في الأصل : « كالشمس » تحريف . قال المرزوقي : والسمن إذا رُب نحيه
لم يتغير . يريد فلا تتغيري أنت أيضاً . والأدم : جمع أديم ، وهو الجلد .

والأفيني مثل ما بان راكب

تزود خمساً ليس في سيره أتم^(١)

وأما الهند فوجدناهم يقدّمون في التجوم والحساب ، ولهم الخط الهندى خاصة ، ويقدّمون في الطب ، ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش الأدوية خاصة . ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالأصباغ تتخذ في المحاريب^(٢) وأشباه ذلك . ولهم الشطرنج ، وهى أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة . ولهم السيوف القلعية^(٣) ، وهم ألب الناس بها وأحذقهم^(٤) ضرباً بها . ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الأوجاع . ولهم غناء معجب . ولهم الكنكلة^(٥) ، وهى وتر واحد يمد^(٦) على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج . ولهم ضروب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة عند الثقافة خاصة ، ولهم معرفة المناصفة ، ولهم السحر والتدخين والدمازكية^(٧) . ولهم خط جامع لحروف اللغات ، وخطوط أيضاً كثيرة ، ولهم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) في الأصل : « يجد من المحارب » .

(٣) القلعية : نسبة إلى القلعة ، وهى قلعة عظيمة ببلدة تسمى « كله » ، وهى أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها تضرب السيوف القلعية . انظر معجم البلدان والحيوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن ، س : « وأحذقها » .

(٥) انظر نواذر المخطوطات ٢ : ٣٢٤ .

(٦) في الأصل ون ، س : « يمر » ، صوابه ما أثبت .

(٧) كذا . ولعله « الترمازكية » ، وهو ضرب من اللعوق الطبى ، كما في

معجم استينجاس ١٣٩٥ .

والأدب . وعندهم أخذ كتاب كليلة ودمنة . ولهم رأى ونجدة ، وليس لأحدٍ من أهل الصبر ما لهم . ولهم من الزئ^(١) الحسن والأخلاق الحمودة مثل الأخيلة والقرن والسواك ، والاحتباء ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح^(٢) واعتدال وطيب عرق . وإلى نساءهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي الذي لا يعدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على السم لم يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام إنما هبط من الجنة فصار ببلادهم^(٣) .

٩٠ ظ

قالوا : ومن مفاخر الزنج حسن الخلق ، وجودة الصوت . وإنك لتجد ذلك في القيان إذا كنن من بنات السند .

وخصلة أخرى : أنه لا يوجد في العبيد أطبخ من السندي ، هو أطبع على طيب الطبخ كله^(٤) .

ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولئون أكستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني

(١) في الأصل : « الرأي » .

(٢) الملح ، بالكسر : الملاحاة .

(٣) في تفسير أبي حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : « وآدم بالهند ، وقيل بسرنديب بجبل يقال له واسم » .

(٤) في الأصل : « هو أطبخ على طيب الطبخ كله » .

ولقد بلغ من تَبَرُّكِ التِّجَارِ بِهِمْ أَنَّ صَيَارِفَةَ الْبَصْرَةِ وَبَنَادِرَةَ الْبَرْبَهَارَاتِ^(١) ،
لَمَّا رَأَوْا مَا كَسَبَ فَرَجُ أَبُو رَوْحِ السَّنْدِيُّ لِمَوْلَاهُ^(٢) مِنْ الْمَالِ وَالْأَرْضَيْنِ
اشْتَرَى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ غَلَامًا سَنَدِيًّا ، طَمَعًا فِيمَا كَسَبَ أَبُو رَوْحٍ لِمَوْلَاهُ .
قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الْأَدْغَمُ سَيِّدُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ »^(٣)
يعني عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ . وكان أَشَدَّ السُّودَانِ سَوَادًا . وإِيَّاهُ يعني
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خَازِمٍ^(٤) حيث يقول :

* حَبَشِيٌّ حَبَشْتُهُ حَبَشَةٌ *

فهذا جملة ما حَضَرْنَا مِنْ مَفَاخِرِ السُّودَانِ . وقد قلنا قَبْلَ هَذَا فِي مَفَاخِرِ
قَحْطَانِ ، وَسَنَقُولُ فِي نُحْرِ عَدْنَانَ عَلَى قَحْطَانِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَالُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

(١) الْبَنَادِرَةُ : جَمْعُ بَنَادَرٍ ، بَضْمُ الْبَاءِ ، وَهُمْ التِّجَارِيُّونَ الَّذِينَ يَلْزَمُونَ الْمَعَادِنَ ،
أَوِ الَّذِينَ يَخْزِنُونَ الْبَضَائِعَ لِلْغَلَاءِ . وَالْبَرْبَهَارُ : الْأَدْوِيَةُ الَّتِي تَجْلِبُ مِنَ الْهِنْدِ مِنَ الْحَشِيشِ
وَالْعَاقِيرِ ، وَالْقَلُوسِ وَغَيْرِهَا ، يَقُولُ الْبَحْرِيُّ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ لَهَا : الْبَرْبَهَارُ . أَنْسَابُ
الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ ٧١ . وَقَالَ الْأَبُ أَنْسَتَاسُ مَارِي : الْمُرَادُ بِهَا تَوَابِلُ بَرِّ الْهِنْدِ . حَوَاشِي
الْحَيَوَانِ ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسْمُ مَوْلَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ السَّكَنِ ، كَمَا فِي الْحَيَوَانِ ٣ : ٤٣٥ .

(٣) فِي الْمَعَارِفِ ١٢٦ : « سَيِّدُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ » . وَفِيهِ : وَيُقَالُ الْأَدْغَمُ الدَّابَّةُ
الْدِيرَجُ ، شَبَّهَ بِهِ .

(٤) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَازِمِ بْنِ أَسْمَاءَ السَّامِيِّ الْبَصْرِيِّ ، أَمِيرُ خُرَاسَانَ . وَلِيَّ إِمْرَتِهَا
لَبْنَى أُمِيَّةٌ ، فَلَمَّا ظَهَرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ كَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ خَازِمٍ بِطَاعَتِهِ فَأَقْرَهُ عَلَى خُرَاسَانَ ، ثُمَّ
ثَارَ بِهِ أَهْلُ خُرَاسَانَ فَقَتَلُوهُ وَأَرْسَلُوا رَأْسَهُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةَ ٧٢ . انْظُرِ الطَّبْرِيَّ
فِي حَوَادِثِ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَتَهْذِيبَ التَّهْذِيبِ وَالْإِصَابَةَ ٤٦٣٢ .

تم كتاب نخر السودان على البيضان

٩١ و

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ،
ومشيئته وتأيمده . يتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك
في الجد والهزل . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين
الطاهرين وسلامه .

٥

رِسَالَةٌ

فِي الْحَبْدِ وَالْهَزْلِ

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة في الجد والهزل »

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

- ١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .
- ٢ — مختارات فصول الجاحظ ، وهي نسخة المتحف البريطاني المودعة صورتها في مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .
- ٣ — نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد ، والمتحف البريطاني ، ورمزها « ط » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جُعِلَتْ فِدَاكَ . ليس من أجل^(١) اختياري النَّخْلَ على الزَّرْعِ^(٢) ٩٢ ظ
أَقْصَيْتَنِي ، ولا على ميل إلى الصَّدَقَةِ دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لُبْغُضِي
دَفَعَ الإِثَاوَةَ والرضا بالجِزْيَةِ حَرَمَتَنِي .

ولست أدري لم كَرِهْتَ قُرْبِي وهَوَيْت بُعْدِي ، واستثقلت رُوحِي ونَفْسِي
واستطلت عُمرِي وأَيَّامَ مُقَامِي . ولم سَرَّتْكَ سَيِّئَتِي ومَصِيبَتِي وسَاءَتِكَ حَسَنَتِي
وسَلَامَتِي ، حتَّى سَاءَكَ تَجَمُّلِي بقدر ما سَرَّكَ جَزَعِي وتَضَجُّرِي ، وحتَّى تَمَنَّيْتَ
أَنْ أَخْطِيْ عَلَيْكَ فتجعل خطي حِجَّةً لَكَ في إِبْعَادِي ، وكَرِهْتَ صَوَابِي فيكَ
خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعَةً لَكَ إِلَى تَقْرِيبِي .

[فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ ، وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لِمُوجِدَتِكَ^(٣)] فَايَسْ
- جُعِلَتْ فِدَاكَ - هَذَا الْحَقْدُ فِي طَبَقَةِ هَذَا الذَّنْبِ ، وَلَا هَذِهِ الْمَطَالِبَةُ مِنْ شَكْلِ
هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ .

(١) هذه الكلمة ساقطة من م

(٢) أَلْفُ الْجَاهِظِ كِتَابُ : (الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ) لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ
الْتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٣ . فَتَنَهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، كَمَا أَلْفُ كِتَابُ : (الْحَيَوَانَ)
لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ فَتَنَةُ مِثْلِهَا ، وَكِتَابُ : (الْبَيَانُ) لِلْقَاضِي أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ
فَتَنَهُ كَذَلِكَ . مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١٦ : ١٠٦ . وَجَاءَ فِي الْحَيَوَانَ ١ : ٤ نَظِيرُ هَذَا النَّصِّ
مَوْجَهًا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ : « وَعَبَتْنِي بِكِتَابِ الزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالزَّيْتُونِ
وَالْأَعْنَابِ » .

(٣) التَّكْلُفَةُ مِنْ م

ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مُشبهاً
كان أهون في موضع الضرر ، وأسهل في مخرج السماع .

فأى شيء بقيت للعدو المكاشف والمنافق^(١) الملائف ، وللمعتمد المصرّ
وللقادر المدلّ .

ومن عاقب على الصّغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار ،
وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المتستر^(٢) بعقوبة معصية المعلن^(٣) ،
ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل ، وبين الأقاصى والأداني ، عاقب على الزّنى
بعقوبة السرّ^(٤) ، وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في باب
العقاب خرج إلى مثله في باب الثّواب . ومن خرّج من جميع الأوزان وخالف
جميع التعديل ، كان بغاية العقاب أحقّ ، وبه أولى^(٥) .

والدّليل على شدة غيظك وغلّيان صدرك قوّة حركتك وإبطاء فترتك ،
وبعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب ، وعلى كظم الذنب^(٦)
تمكّن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبعد الوثبة وشدة الصّولة .

وهذا البرهان صحيح ما صحّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .
ولا أعلم ناراً أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركة أنقض

(١) م : « وللموافق » .

(٢) في الأصل : « المستتر » ، وأثبت ما في م . وفي ط نقلاً عن ب : « المسر » .

(٣) في الأصل : « المعاند » صوابه في م ، ب .

(٤) السرّ كسبب وكتف : السرقة . وفي م . « السرقة » .

(٥) في الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٦) م : « عظم الذنب » .

لقوة الأبدان من طلب الطوائل^(١) مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجمّام^(٢) ،
وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .

و ٩٣

ولا أعلم تجارة أكثر خسراناً ولا أخف ميزاناً من عداوة العاقل
[العالم]^(٣) ، وإطلاق لسان الجليس المداخل ، والشعار دون الدثار^(٤) ،
والخاصّ دون العام .

والطالب - جعلتُ فداك - بعرض ظفّر مالم يخرج المطلب ، وإليه
الخيار مالم تقع المنازلة . ومن الحزم ألا تخرج إلى العدو إلا ومعك من القوى
ما يغمر^(٥) الفضلة التي ينتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضاً من حزم يحذرك
مصارع البغي ، ويخوفك ناصر المطلب^(٦) .

وبعد - أبقاك الله - فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ،
والغيظ عذاب . ولربّما زاد التشقّي في الغيظ ولم ينقص منه . ولست على يقين
من نفوذ سهمك في صيّدك^(٧) [كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك] .

(١) الطوائل : جمع طائلة ، وهي الوتر والدحل ، يقال : طلب بنى فلان بطائلة ،
أى بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمّام ، كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصحيف .

(٣) التكملة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار :
ما كان من الثياب فوق الشعار . وفي المثل : « هم الشعار دون الدثار » ، يصفهم
بالمودة والقرب . وفي حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) في الأصل : « مالا يغمر » ، صوابه من م .

(٦) أى من تطلبه . وفي الأصل : « ويحرك ناصر المظلوم » ، صوابه في م .

(٧) في الأصل : « صدك » ، صوابه من ط رواية عن ب والتكملة بعده من ب .

والحازم لا يلتبس شفاء غيظه باجتلاب ضِعْفِهِ ، ولا يطفى نارَ غضبه تأخُّرُ
عقوبة من أغضبه ، ولا يسدُّ سهمه إلَّا والغرضُ ممكن ، والغاية قريبة ،
ولا يهرب إلَّا والمهرب معجزة .

إنَّ سلطان الغيظ غشوم ، وإنَّ حكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون
العزم عن التصرُّف أضعفَ ما يكون الحزم . والغضب في طباع شيطان ،
والهوى يتصور في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف
إلَّا كلُّ معتدلِ الطباع ، ومعتدلِ الأخلاق مستوى الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلى سرف الهوى .
فما ظنُّك بسرف الغضب ، وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن قد تعودَ إهمالَ النفس
ولم يعودوها الصبر ، ولم يعرفوها موضعَ الحظِّ في تجرُّع مرارة العفو ، وأن المراد
من الأمور عواقبها لا عوالمها^(١) .

ولقد كنت أشفق عليك من إفراط الشرور فما ظنُّك بإفراط الغيظ .
وقد قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يُورث الغفلة ،
ولا في السكافية إذا كان يؤدِّي إلى المعجزة ، ولا في كثرة الغنى إذا كان
يخرج إلى البلدة^(٢) .

جعلتُ فداك . إنَّ داءَ الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داءٌ مُماطل ، وسقمه
سقم مُطاول ، ومعه من التمثُّل بقدر قسطه من أناة المِرَّة السوداء . وداء

(١) في الأصل : « عوالمها » ، صوابه في م .

(٢) في الأصل : « كثرة العى » ، صوابه في م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً :
البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء في الأمور .

الغيظ سفيه طيَّاش ، وعَجولٌ فحَّاش ، يُعجلُ عن التوبة ، ويقطع دون الوصية ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب المِرَّة الحمراء . [والعجول يخطئ وإن ظفر ، فكيف به إذا أخفق . على أن إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أن ظفره لا ينتقص من مقدار زلله ^(١)] . وأنت روحٌ كما أنت وحشٌ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة في الدِّقاق والعناق أسرع ، وحدها عن الغلاظ الجفأة أكلٌ ؛ فلذلك اشتدَّ جزعى لك من سلطان الغيظ وغلبته .

والله لو كنت ابتلعت مزار بابك ، وأبطلت ممر الباطل ^(٢) ، ووردت ^(٣) الفطائع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كلَّ شطر نجى لك ، ورفعت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلت المروج كلها حمى ، وكنت صدق المرادين ^(٤) ، وبرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجوارى في صورة أبي رملة ^(٥) ورددت شطاط خَلْقك إلى جُعودة أبي حثة ^(٦) وكنت أول من سنَّ بيع الرجال في الفخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحوّلت إليك عقل أبي دينار ، وطُبعت على بيان ما نويه ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الأفشين ^(٧) ، واستجبت للديك الأبيض

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) في الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت في ط : « جذم للمردان » .

(٥) لم أجد له ذكراً في كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبي حثة التالي .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجعودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح الهمزة وكسرهما ، كما في وفيات الأعيان ٢ : ٦٥ . واسمه =

الأفرق^(١) وأحببت صالح بن حنين^(٢) ، وأحوجتك إلى حاتم الرّيش^(٣) ،
وكان أبو الشّماخ صديقي ، والفارسيّ من شيعتي - لكان ما تركبني به سرفا ،
ولكنت في هذا العتاب^(٤) متعدّيا .

جعلتُ فذاك ، لا تتعرض لعداوة عقلاء الرّواة ، ولضعيفة حُفَافِ
المثالب ، وللسان من قد عُرِف بالصدّق والتّوخيّ ، وبقلّه الخطل والتّكسّب^(٥) ،
ما وجدت عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذهب عنه واسعا . ولا تعاقب
وإذا وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الصّحبة سببا للتضجّر ، واصبر
على خلقه فإنّ خلقه خيرٌ من جديد غيره . وصداقة المتطرّف غرور^(٦) ،

= خيذر بن كاوس ، وكان مقدم قواد المعتصم ، ثم غضب عليه المعتصم فصلبه هو
وبابك ومازريار في سنة ٢٢٦ .

(١) الأفرق : المفروق العرف . وفي الأصل : « للدين » صوابه في ب كما في
حواشي ط . وكلمة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من
الأصل وثابتة في ت . وكان العامة في زمن الجاحظ يتبركون بالديك الأبيض الأفرق
يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٢٠٧ ، ٢٥٩ ولكنهم أيضاً
كانوا يقضون على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٢ : ٢٠٧ .

(٢) يبدو أنه كان أحد البغضاء الثقلاء ، ذكره أيضاً في البخلاء ٦ . قال الجاحظ :
« ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين
وإلى ابن النّوء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ، ولصارت فآرة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد ، قرينا لأبي الواسع ،
وقينة ، وحسين بن الضحاك . الأغاني ٦ : ١٠٤ . وسماه أبو الفرج في ٦ : ١٩٥
« حاتم الرّيش الضراط » .

(٤) ط : « العقاب » خلافا لما في الأصل .

(٥) التّكسّب ، أراد به العدول عن الصواب والحق . وفي الأصل : « التّكسب »

(٦) جعلت في ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملاحة الصديق أفن ، والعلم بأقدار^(١) الذنوب غامض ، وحدودُ الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة في الأقدار^(٢) . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه ، وإلى معدنه الذي منه نجم ، وعُشه الذي منه درج ، ومغرسه الذي منه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتترع^(٣) ، وفي النزوع والثبات ، وإلى قبحته عند التقريع ، وإلى حيائه عند التعريض ، وإلى فطنته عند الرشق والتورية^(٤) ؛ فإنَّ فضل ٩٤
الفطنة ربما دلَّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدةٍ مِرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقادير ، أو من طريق [فرط^(٥)] الأنفة وغلبة طباع الحمية من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله ، وأنه مقصَّر به مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مبلغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه -

(١) في الأصل : « ماقرار » .

(٢) في الأصل : « الأقدام » .

(٣) التابع في الشيء : التهافت فيه والإسراع إليه . والتترع : التسرع إلى الشيء .

وفي الأصل : « التتابع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التي

لا يفهمها إلا الفطن . ومنه التورية البلاغية التي يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه .

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً وري بغيره ، أي ستره

وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره . وفي الأصل : « التودية » تحريف .

(٥) التكملة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفي هذه المجارى ،
فليس يقف عليها كريم ، [ولا يلتفت لها حليم ^(١)] .

ولست أسميه بكثرة معرفه كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه
غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع
للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة فلو لم ترض لصاحبه
بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم
من الأشراف .

ومتى كانت علته طبيعة البذاء ^(٢) ، وخلقه الشرارة والتسرّع ^(٣) ، فاقتله
قتل العقارب ، وادمغه دمع رءوس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول ، ولا يرصدك بالمكروه إلا لتعطيه
على الخوف ، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل ردك ، واحتل
في منعه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة ، وأعظمته
من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك ، واستدعيت الألسنة
البذية إلى عرضك ، وكنت عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره ، وأنت فيه قسيمه ^(٤) ، إلا أن عليك
غُرمه ولك غُمنه .

(١) التكملة من ب .

(٢) في الأصل : « البذا » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت في ط :
« الداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر يشتر شرارة ، بضم شين المضارع وكسر ها .

(٤) في الأصل : « قسعه » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطَّ عن الحسود نصفَ عقابه ، وأن تقتصر على [بعض^(١)] مقداره ، لأنَّ ألم حسدِه لك قد كفاك مؤونة شَطَر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرضْ له البتة ، [ولا تلتفتْ لِفَتَه^(٢)] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إني وادُّ ، ولا تحكم له بدعواه بأنى جدَّ وامق . وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرفه وتصميمه^(٣) وإلى توقُّفه وتهوُّره . وتأملْ مقدارَ جزعه من قلة اكترائه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عن انصرفِ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلمه من الشر وتعرُّضه له ، وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا تقضِ^(٤) له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهور ، حتى تنقظم الحالات ، وتستوى فيه الأزمان .

نعم ، ثمَّ لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورةً على محبَّتكَ ، ومحنوَّةً على نصيحتك ، بالعلل التي توجب الأفعال . والأسباب التي تسخر القلوب للمودَّات ، كالعلل الثابتة في الصنعة ، والأسباب الموجودة مع مولى

(١) ليست في الأصل .

(٢) التكملة من ب .

(٣) التصميم : المضي في الأمر بعد إرادته . وفي الأصل : « تصميمه » .

(٤) في الأصل : « لا يقضى » .

العَتَاة ؛ فَإِنَّ عَلَّهَمَا خِلَافُ عِلَلِ مَوْلَى الْكَلَالَةِ^(١) ، وَخِلَافُ عِلَلِ الصَّدِيقِ
الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرَى أَنَّهُ مِثْلُكَ ، وَأَنَّهُ يَسْتَوْجِبُ مِنْكَ اسْتِجَابَكَ ، وَلَا سِيَّما إِذَا
كَانَتِ الصَّنِيعَةُ أَنْتَ ابْتَدَأْتَهَا ، وَأَنْتَ أَبُو عُدْرَتِهَا .

فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَحْكَمْ لَهُ بِالْغَايَةِ مَعَ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْعِلَلِ فِيهِ ، وَمَعَ تَوَافُيْهَا إِلَيْهِ ،
وَلَمْ تَقْضِ لَهُ بِأَقْصَى الْغَايَةِ مَعَ تَرَادُفِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَتَكَامُلِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ ،
وَتَعَاوُنِ هَذِهِ الْبَرْهَانَاتِ ، فَكُلُّ خَبَرٍ بَيْنَهُ زُورٌ ، وَكُلُّ دَلَالَةٍ فَاسِدَةٌ . وَقَدْ
قَالَ الْأَوَّلُ : « دَلَائِلُ الْأُمُورِ أَشَدُّ تَثْبِيْتًا مِنْ شَهَادَاتِ الرِّجَالِ » . إِلَّا أَنْ يَكُونَ
فِي الْخَبَرِ دَلِيلٌ ، وَمَعَ الشَّهَادَةِ بَرْهَانٌ ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَنْفَاقُ
وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَبْذُلُ ، وَشَهَادَةُ الْإِنْسَانِ لَا تَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ مَعَهَا أَمَانٌ
مِنْ فُسَادٍ مَا كَانَ الْإِمْكَانُ قَائِمًا .

وَبَعْدَ مَتَى صَارَ اخْتِيَارُ النَّخْلِ عَلَى الزَّرْعِ يُحَقِّدُ الْإِخْوَانَ ، وَمَتَى صَارَ
تَفْضِيلُ الْحَبِّ وَتَقْرِيطُ الشَّعْرِ يُوَرِّثُ الْهَجْرَانَ ، وَمَتَى تَمَيَّزُوا هَذَا التَّمْيِزُ^(٢)
وَتَهَالَكُوا هَذَا التَّهَالُكُ ؟ وَمَتَى صَارَ تَقْدِيمُ النَّخْلَةِ مَلَّةً ، وَتَفْضِيلُ السَّنْبِلَةِ
نَخْلَةً^(٣) ؟ وَمَتَى صَارَ الْحُكْمُ لِلنَّعْجَةِ نَسَبًا وَلِلْكَرْمَةِ صِهْرًا ، وَمَتَى^(٤) تَكُونُ
فِيهَا دِيَانَةٌ وَتَسْتَحْكَمُ فِيهَا بَصِيرَةٌ ، وَيُحَدِّثُ عَنْهَا حَيَّةٌ .

(١) الْكَلَالَةُ مِنَ الْقَرَابَةِ : مَا خِلَا الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « التَّمْيِيزُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « مَنَحَةٌ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَحْتِي » .

وقد كنا نَعجب من حرب البسوس في ضَرع نابٍ^(١) ، ومن حرب
 بُعَاثٍ في مَحَرَفِ تَمَرٍ^(٢) ، ومن حرب غَطَفَانٍ في سَبَقِ دَابَّةٍ^(٣) . فحُتْنَا أَنْتَ
 بنوع من العَجَبِ أَبْطَلَ كُلَّ عَجَبٍ ، وَأَنْسَنَا بِكُلِّ غَرِيبٍ ، وَحَسَّنَ عِنْدَنَا
 كُلَّ قَبِيحٍ ، وَقَرَّبَ عِنْدَنَا كُلَّ بَعِيدٍ .
 فَإِنْ جَهِلْتُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - غَضَبُكَ فَمَثَلِي جَهْلٌ مَالِئَةٌ لَهُ ، وَإِنْ عَجَزْتُ
 عَنْ إِحْتِمَالِ عِقَابِكَ فَمَثَلِي ضَجٌّ مَمْلَأٌ بِطَبَقِ حَمَلِهِ . وَلَا عَارَ عَلَى جَارِعٍ إِلَّا فِيمَا يُمْكِنُ
 فِي مِثَالِهِ الصَّبْرُ ، وَلَا لَوْمَ عَلَى جَاهِلٍ فِيمَا لَا يَنْجِحُ فِي مِثَالِهِ الْفُسْكَرُ .
 وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلَ شَرِّكَ نَصَبْتَهُ ، وَلَا أَوَّلَ كَيْدٍ أَرَعْتَهُ ، وَلَا هِيَ بَأُولِ
 زُبْيَةٍ غَطَّيْتَهَا وَسَتَرْتَهَا ، وَحِيلَةٍ أَكْمَتَهَا وَرَبَّصْتَهَا .
 وَقَدْ كَانَتْ التَّقِيَّةُ وَالْاِقْتِصَادُ أَسْلَمَ ، نَبْلُكَ كَانَتْ الْعَفْوَ أَرْحَمَ ،
 وَالتَّغَافُلُ أَكْرَمَ .

(١) كانت للبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرة ، ناقة يقال لها
 «سراب» ، فرمى كليب ضرع تلك الناقة بسهم وقد رآها غريبة في إبله ، فاستغاثت
 البسوس بخالها جساس ، فطعن جساس كليباً فقتل ، فوقع الشر بينهم لذلك . العقد
 ٥ : ٢١٣ وما بعدها .

(٢) المحرف بكسر الميم : زيل صغير يحترف فيه أطايب الرطب . وفتحتها :
 الحائط من النخل . وانظر لحرب بعث الأغاني ١٥ : ١٥٤ - ١٥٨ وكامل
 ابن الأثير ١ : ٢١٧ ووفاء الوفاء ١ : ٢١٥ حيث تتضح لك إشارة الجاحظ إلى
 المحرف بفتح الميم وكسرها معا .

(٣) السبق ، بالتحريك : الذي يوضع بين أهل السباق ، فمن سبق أخذه .
 يشير بذلك إلى حرب داحس والغبراء ، حين صد أتباع حمل بن بدر صاحب الفرس
 التي تسمى الغبراء ، فرس قيس بن زهير وكان يسمى «داحسا» . فثارت الحرب
 بين عيس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان أربعين سنة . العقد ٥ : ١٥٠ =

ولا خير في عقوبة تشمت العدو المتقادم^(١) ، ويُنادى بها العدو الحادث .
والأناة أبلغ في الحزم ، وأبعد من الذم ، وأحمد مَغَبَّةً وأبعد من خُرق العَجَلَة .
وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُهُ أقدر منك
على ردِّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال^(٢) :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ
بل لو قال : والمتأني يدرك حاجاته أحق ، والمستعجل يفوت حاجاته
أخلق ، لكان قد وفى المعنى حقّه ، وأعطى اللفظ حظّه ، و [إن^(٣)] كان
القول الأوّل موزوناً والثاني منشوراً^(٤) . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من
العجلة لما قرّنه بالتأني . وينبغي أن يكون الذى غلّطه قولهم : « ربَّ
عَجَلَة تَهَب ريثاً » . فجعل الكلام الذى خرج جواباً عند ما يعرض من
السبب ، كاللّام الذى خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .
فإذا سمّيت العمل عَجَلَةً وريثاً فاقضى على الريث بكثرة القوت ، وبقدر ذلك من
العجز ، وعلى العجلة بقلّة التّجحّج ، وبقدر ذلك من الخرق .

والريثُ والأناة في بلوغ الأمل وإدراك النّعمة كاتّهاز الفرصة واهتبال

= والأغنى ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ، وجمهرة أنساب العرب
٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) في الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامي . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجالس

ثعلب ٤٣٧ والمحاسن للبيهقي ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « مبتورا » .

الفرّة . والأناة وإن طالت [فليست من جنس الريث ^(١)] ، وانتهاز الفرصة وإن كان في غاية الشرعة فليس من جنس العجلة .

وربت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جعلت حفظه ، وصارت هي حقه والدالة عليه دون غيره ، كالخزم والعلم ، والحلم والرفق ، والأناة والمدارة ، والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمل ^(٢) ، وكالخرق والعجلة ، والمداينة والتسرع ، والغلو والتقصير .

وربت كلمة تدور مع خلقتها ، وتتقارب مع جاراتها ^(٣) ، وإزاء صاحبها ^(٤) ، وعلى قدر ما تقابل من الحالات ، وتلاقى من الأسباب ، كالحب والبغض ، والغضب والرضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجدة والفتور ^(٥) ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ، ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب العجلة - أعزك الله - صاحب تغرير ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمدته عالم ، وإن لم يظفر قطعته الملاوم . والريث أخو المعجزة ، ومقرون بالحسرة ، وعلى مدرجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالغنى ، ونفع نفسه بشمرة العلم ، وأطاب ذكره دوام شكره ^(٦) ، وحفظ فيه ولده . وإن حرم

(١) هذه التكملة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهي من مقترحات ناشر ط .

(٢) في الأصل : « اليأس والأمن » . وفي م : « اليأس والأمن » .

(٣) في الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما في م .

(٤) في الأصل و م : « وإرادة صاحبها » . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) في الأصل : « والفتوة » ، صوابه في م .

(٦) م : « وطاب ذكره ، ودوام شكره » .

فبِسُوطِ عَذْرِهِ ، وَمُصَوَّبِ رَأْيِهِ مَعَ انْتِفَاعِهِ بِعِلْمِهِ وَمَا يَجِدُ مِنْ عِزِّ حَرْمِهِ وَنَبْلِ صَوَابِهِ^(١) ، وَمَعَ عِلْمِهِ بِالَّذِي لَهُ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ ، وَبِعَذْرِهِ عِنْدَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ .

وَمَا عِنْدِي لَكَ إِلَّا مَا قَالَ الدَّهْقَانُ^(٢) لِأَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٣) وَهُوَ عَلَى خِرَاسَانَ ، حِينَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يُدْهَقُ فِي حَبْسِهِ^(٤) :

إِنْ كُنْتَ تَعْطَى مِنْ تَرْحَمِ فَارْحَمِ مَنْ تَظْلِمُ^(٥) . إِنْ السَّمَوَاتُ تَنْفَرُجُ
لِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ ، فَاحْذَرِ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا جُنَّةٌ إِلَّا الثَّقَةُ بِنَزُولِ
الْغَيْبِ^(٦) ، وَلَا سِلَاحٌ إِلَّا الْإِبْتِهَالُ إِلَى مُوَلَّى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ .

يَا أَسَدُ ، إِنْ الْبَغْيَ بَصَرَ عَ أَهْلَهُ ، وَإِنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعَهُ وَخِيمٌ ، فَلَا تَغْتَرَّ بِإِبْطَاءِ
الْعِقَابِ^(٧) مِنْ نَاصِرٍ مَتَى شَاءَ أَنْ يَغِيثَ أَغَاثَ . وَقَدْ أُمِّلَى لِقَوْمٍ كِي يَزْدَادُوا

(١) فِي الْأَصْلَ : « وَقَبْلَ صَوَابِهِ » ، صَوَابُهُ فِي م .

(٢) الدَّهْقَانُ ، بِالْكَسْرِ : زَعِيمُ فَلَاحِي الْعَجَمِ ، فَارِسِي مَعْرَب .

(٣) هُوَ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ ، أَخُو خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، كَانَ خَالِدًا عَلَى
الْعِرَاقِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْأَهْوَازِ وَفَارَسَ وَالْجِبَالِ ، وَأَخُوهُ أَسَدُ عَلَى خِرَاسَانَ . وَكَانَ بَدْءَ
وَلَايَتِهِمَا فِي سَنَةِ ١٠٦ وَعِزْلَا سَنَةِ ١٢٠ . تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ .

(٤) الدَّهْقُ : التَّعْذِيبُ بِالدَّهْقِ ، وَهُوَ بِالتَّحْرِيكِ : خَشْبَتَانِ يَغْمِزُ بِهِمَا السَّاقُ ،
وَهُوَ بِالْفَارْسِيَةِ « أَشْكَنْجَه » . وَفِي الْأَصْلِ : « فِي حَبْه » تَحْرِيفٌ . وَفِي الْعَقْدِ
٢ : ١٦١ : « وَمَرَّ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ ، وَهُوَ وَالِي خِرَاسَانَ ، بِدَارٍ مِنْ
دُورِ الاسْتِخْرَاجِ ، وَدَّهْقَانٌ يَعْذِبُ فِي حَبْسِهِ ، وَحَوْلَ أَسَدٍ مَسَاكِينٌ يَسْتَجِدُونَهُ ،
فَأَمَرَ لَهُمْ بِدِرَاهِمٍ تَقْسَمُ فِيهِمْ ، فَقَالَ الدَّهْقَانُ ... » .

(٥) فِي الْعَقْدِ : « إِنْ كُنْتَ تَعْطَى مِنْ يَرْحَمُ فَارْحَمِ مَنْ يَظْلِمُ » الْفَعْلَانِ « يَرْحَمُ » ،
و « يَظْلِمُ » بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ .

(٦) الْغَيْبُ : اسْمٌ بِمَعْنَى تَغْيِيرِ الْحَالِ . وَفِي الْأَصْلِ : « التَّغْيِيرُ » .

(٧) فِي الْعَقْدِ : « الْغِيَاثُ » .

إثماً^(١) . وجميع أهل السعادة إمّا سالمٌ من ذنب ، وإما تاركٌ لإصرار^(٢) .
ومن رغب عن التمدى فقد نال أحد الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية
له إلا دار الندوة^(٣) . وسواء - جُعِلَتْ فداك - ظَلَمْتَ بالبطش والغشْم ،
أو ظَلَمْتَ بالدَّحْس والدَّس^(٤) . فشاوِرْ نَبَّكَ ، وناظرْ حَزْمَكَ ، وَقِفْ قَبْلَ
الوُثْبَةِ ، واحذرْ زَلَّةَ العالم .

وقد قال صاحبكم : من استشار الملالة وقدَّ طبيعته الاستطراف ، وجعل
الخطرة ذنباً^(٥) ، والذنب ذنباً ، ومقدار الطرف إصراراً ، والصَّغِيرَ كبيراً ،
والقليل كثيراً ، عاقب^(٦) على المتروك الذي لا يُعْبَأُ به ، وبلغ بالبطش إلى حيث
لا بقيَّةَ معه^(٧) ، ورأى أن القطيعة التي لا صلة معها ، والتخليج الذي لا تجمل
معه ، الحزمُ الحمود ؛ وأنَّ الاعتزامَ في كلِّ موضعٍ هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده
الذي لا يكذبه ، والمتأثر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما لا يهواه على

(١) إلى هنا ينتهى نص العقد . وفيه : « وقد أملى لقوم ليزدادوا إثماً .
فأمر أسد بالكف عنه » .

(٢) في الأصل : « الإصرار » .

(٣) كذا في الأصل ، وجعلت في ط : « الشقوة » .

(٤) الدحس : التدسيس للأمر تستبطنها وتطلبها أخفى ما تقدر عليه .

(٥) الخطرة : ما يقع بالبال والوهم .

(٦) في الأصل : « وعاقب » ، والواو مقحمة .

(٧) البقية : الإبقاء وعدم المبالغة في الإفاد .

ما يهواه^(١) ، ولم ينصر تالد الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المملول المبعّد من المستطرف المقرّب ، ولم يخف أن تجتذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجَهُما ، ويصوّر صورَهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضهما على جهاذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلا مَنْ لا يدرى أىّ النوعين يبنى ، وعلى أيّهما يحامى ، وأيّهما دواؤه وأيّهما دأؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورّطاً في الخطاء مغموراً بالذم^(٢) .

سمعتك وأنت تريدني وكأنّك تريد غيري ، وكأنّك تشير على من غير أن تنصني . وتقول : إني لأعجب ممّن ترك دفاتر علمه متفرقة مبثوثة ، وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتجرّم^(٣) ، وكيف لا يمنعا من التفرّق^(٤) . وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حزامته^(٥) ، وانحلّ شداده ، وتحرّمت رُبُطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنّة ، تفرّق ورقه ؛ وإذا تفرّق ورقه اشتدّ جمعه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربّما ضاع أكثره . والدّفّتان أجمع ، وضُمّ الجلود إليها أضوّن ، والحزم^(٦) لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشباه أن تؤلّف ؛ فإنّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً ، والاجتماع

(١) في الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالذنب » .

(٣) التجرم ، من الجرم وهو القطع . وفي م : « للتخرم » من الحرم .

(٤) م : « التخرق » .

(٥) الحزامه والحزام : اسم لما شد به .

(٦) الأصل : « والحرز » ، صوابه من م .

يحدث للمساوي^(١) في الضعيف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها .

وإذا كانت منظومة ، ومعروفة المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤوتتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادّخرت تلك القوة لنوائب غدك .

وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن^(٢) وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه مفرقا في الصدور ، ولا مبددا في الدفاتر ، ومفرقا في القماطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحموده ، فتوارثه خلف عن سلف ، وتابع عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحديث عن قديم .

ولم أشك في أنها نصيحة حازم ، ومشورة وامق ، أو رأي حضر أو حكمة

(١) في الأصل : « للمساوي » ، وأثبت ما في م .

(٢) تكفل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قديما في أماليه ٦٣ — ٧٠ ببيان نصف القرآن وأثلاثه وأرباعه وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعرج . وكذا فعل السجستاني بعده في الصاحف ١٢٥ — ١٣٠ . رواية عن حميد أيضا .

نَبَغْتُ ، أو صدرٌ جاش فلم يُملَكْ ، أو علمٌ فاض فلم يُردَّ ، استعمله من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتكَ من العلم وحَظَّ عنايتك من النِّقْلِ^(١) ، وجمعتُ البعض إلى البعض^(٢) ، والشَّكل إلى الشَّكل ، وتقدَّمتُ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصَّنَاع ، وفي تحيُّر البياعات^(٣) ، وغرمتُ المال ، وشغلتُ البال ، وجعلتها مصحفًا مصحفًا ، وأجملتها صِنْفًا صِنْفًا ؛ ورأيتُ أني قد أحكمتُ شأني ، وجمعتُ إلى أقطاري ، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ ، استظهاراً على تعب البدن ؛ إذ كانتِ الأسافل مُثْقَلَةً بالأعلى ، وإذا كان الانتصاب يُسرِّع في إدخال الوهن على الأصلاب ؛ ولأنَّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلح لقوَّة الناظر ؛ إذ كُلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدي بِثِقَلِ جِرمه ، وضيقِ صدري بحِفَاءِ حجمه . وإذا ثَقُلَ أنْكَاءُ الصدر ، وأوهنَ العظم .

(١) في الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » مقرونةً بأل في قديم الآثار . وإن كان الأصمعي قد أنكره أشد الإنكار حين سئل عن قول ابن القفيع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً ، قال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعمله الناس حتى سيويوه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهري : « النحويون أجازوا الألف واللام في بعض وكل وإن أباه الأصمعي » . اللسان (بعض) .

(٣) في الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفي اللسان : « والبياعة : السلعة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سِدَرْتُ عَيْنِي^(١) ، وتقوَّسَ ظَهْرِي ،
واجتمع الدمُّ في وجهي ، وأكرهْتُ بَصْرِي على غير جهته ، وأجريت شعاع
ناظري في غير مجراه .

٩٧ و

وقد علمت - أبقاك الله - مع خبرتك بمقايح الأمور ، ومواقع المنافع
والمضارِّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أن من كان على مَقَطْعِ جَبَلٍ ، أو على
شُرُفَاتِ قَصْرِ ، فأراد رؤية السماء على بُعْدِهَا ، وجد ذلك على العين سهلاً
خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قُرْبِهَا ، وجد ذلك على العين عِثّاً
ثَقِيلاً . فإن بدا لي أن يُقَابِلَ عَيْنِي به العبدُ ، أو تُوَاكِهَنِي به الأمة ، كلَّفتُ
أخرقَ النَّاسِ كُفّاً ، وأقلَّهَمَ وَفَقاً^(٢) ، وأكثَرَهَمَ التَّفَاتَا ، وأحضرَهَمَ نَعَاسَا ،
وأقلَّهَمَ على حالٍ واحدةٍ ثَبَاتَا ، وأجهَلَهَمَ بمقدار الموافقة ، ولمقادير المقابلة ،
وبحطَّ اليد ورفَعَهَا ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ في تضجُّرهم وتسكُّرهم
وفِرارهم منه ، ما صيَّرَ تجشُّمي لثقل وزنه ، ومُقَاسَاتِي لِفُجَاءِ حَجْمِهِ ، أهونَ على
يدِي ، وأخفَّ على قلبي . فإن تعاطيته عند ذلك بنفسِي فسَقَاً حَاضِرَ ،
وإن ألزمتُه غيرِي فغِيظَ قَاتِلٍ . وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك دَرَسِهَا
والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ، ومن
شَحَذِ الطَّبِيعَةِ ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن في ذلك إِلَّا الشُّغْلُ عَنْ خَوْضِ الْخَائِضِينَ ، والبُعدُ عَنْ هُوِ
اللَّاهِينَ ، ومن الغيبة للناس والتمنِّي لما في أيديهم ، لقد كان نفعُ ذلك كثيراً ،
وموقعُه من الدِّينِ والفِرَاضِ عَظِيماً .

(١) سدر بصره سدرأ : تمحير فلم يكدر يبصر . (٢) الوقف ، بالفتح : الموافقة .

ومتى ثَقُلَ الدرس تناقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام الاستئصال أحدثَ الهجران . وإذا تطاولَ الكدّ رَسَخَ الزُّهد . وفي ترك النظر عَمَى البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنَّه على قدر غريزة العقل تصحُّ الحوائج^(١) وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرَّك الجارحة ويتصرَّف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرُّف يحدث العي ويظهر العجز ويبطئ الخاطر . ومع ذهاب البيان^(٢) يفسد البرهان ، وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين .

٩٧ ظ

فقد بلغت ما أردت ، ونلت ما حاولت . فحسبك الآن من شجّ من بأسوك ، ومن قتل من يُقتل فيك .

جُعِلت فداك . إنّه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجد . وليس يُنجيني منك مَعْقِلٌ وَعِلٌ ، ولا مَفَاذَةٌ سَبْعٌ ، ولا قَعْرٌ بِحْرٌ ، ولا رَأْسٌ طُودٌ ، ولا دَغَلٌ ولا دَحْلٌ^(٣) ، ولا نَفَقٌ ولا مَغَارَةٌ ولا مَطْمُورَةٌ . وليس ينجيني منك إِلَّا مَفَاذَةُ الْمُهَلَّبِ^(٤) . فإن أعرتنى قلبه وعلمتنى حيلته ، وأمكنتنى من سِكِينِهِ . وإلّا فأنا أوّل من ابتلعتة تلك الحيّة . ولا والله إنّ بى

(١) فى الأصل : « الجوائح » . والجوائح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه ما أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بهذا صحيحها ناشر ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير اللتف . والدحل ، بالفتح : هوة تكون فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل : « دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوة على الثعبان^(١) ، فكيف الثنين . أعفني من حية المهلب ثم اقتلني أي قتلة شئت .

إن احترست منك ألفت لنفسي كدًا شديدًا ، وغمًا طويلًا ، وطال اغترابي وافتراقُ الآلى ، وتعرضت للعدو ، وتحرّشت بالسباع . فإن استرسلت إليك لم تر أن تقتلني إلا شرّ قتلة وآلها ، ولم تعذبني إلا بأشدّ النقم وأطولها . ولو أردت ذبحي لاخترت الكليل على المُرْهَف ، والتطويل على التذفيف^(٢) ، حتى كأني علمت عليك : « شاه مات^(٣) » ، أو أكلت سبعة وأطعمتُك واحدة .

ولقد تقدّمت في المكر واستظهرت على في الكيد ، حتى توليت ذلك في صغار كتبي وفيما لا تحفل به من دوام أمرى ، وعلمت أن الدرس لليل وأن الا^(٤) للنهار ، وأن الكتاب لا يقرأ إلا ليلاً والنيران زاهرة ، والمصابيح مُقَرَّبة . وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظره ، فإنه أبداً أقرب مصباحاً وأعظم ناراً . وأن^(٥) المحرور المحترق ، والممرور الملهب ، والبائس المتهافت ، إذا كان صاحب كتب ودرس ، أنه لا يجد

(١) أي ما بي قوة عليه .

(٢) التذفيف بالذال المعجمة : الإسراع في القتل .

(٣) أي لحقك من الغيظ ما يلحق اللاعب بالشرطي من قول صاحبه له : « شاه مات » .

(٤) يياض في الأصل . وإزاءه في هامش النسخة « حراوبه » .

(٥) في الأصل : « فإن » .

بدأ من الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرض لها .
نخّرتني بين العمى والجهل . وما فيهما حظٌ لمختار .

وقلت : إذا سَخُنَ ^(٢) بدنه سُجِنَ بوله ، وإذا سُجِنَ بوله جَرَحَ مثانته
وأحرق كَلِمَتَهُ ، وطَبَخَ فضول غِذائِهِ ، وجَفَّفَ ما فضل عن استمرائه فأحاله
حَصَى قاتلاً وصخرأ جامداً ، وهو دقيق القضيْب ضيق الإحليل ، فإذا
حصاه يورثه الأسر ^(٣) ، وفي ذلك الأسر تافُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلت : فإن ابتليتُ بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهبَ
عنا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

٩٨ و

جُعِلْتُ فِدَاكَ ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التثبُّع
لغوامض المسألة ، والتعرض لدقائق المكروه ؟ ! وما هذا التغافل في كل
شيء يُحْمَلُ ذكرى ؟ ! وما هذا الترقى إلى كلِّ ما يحطُّ من قدرى ؟ !
وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصَّيْنِيِّ ، ومن الكاغد
الخُرَّاسَانِيِّ ؟ !

قل لي : لِمَ زَيَّنْتَ النَّسَخَ في الجلود ، ولمَ حَثَّنِي على الأَدَمِ ، وأنت
تعلم أنَّ الجلودَ جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بَطَلَتْ ، وإن كان
يَوْمٌ لَثَقِ استرخت . ولو لم يكن فيها إلَّا أنَّها تبغض إلى أربابها نزول الغيث ،
وتكرهه إلى مالكيها الحَيَا ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها .

(١) في الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . في الأصل : « فأرى حصاه » .

قد علمت أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها
جلدا . وإن نديت - فضلا على أن تمطر ، وفضلا على أن تفرق - استرسلت
فامتدت . ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد ، وتشنج قبيح .
وهي أثنى ريحا وأكثر ثمنا ، وأحمل للغش : يغش الكوفي بالواسطي ،
والواسطي بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها^(١) . وهي
أكثر عقداً وعجراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصفرة إليها أسرع ،
وسرعة انسحاق الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر
ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير . ولو أراد مثل ذلك من القطن^(٢)
لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها فإنها أحمل للحك والتغيير ، وأبقى^(٣) على تعاور
العارية وعلى تقلب الأيدي ، ولترديدها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، والمعاد
منها ينوب عن الجدد . وليس لدفاتر القطن أثمان في السوق وإن كان
فيها كل حديث طريف ، ولطف مريح ، وعلم نفيس . ولو عرضت عليهم
عدها في عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ،
لكانت أثمان ، ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكك
والعهود ، وفي الشروط وصور العقارات . وفيها تكون نماذج النقوش ،

(١) في الأصل : « شعره » .

(٢) أي المصنوع من القطن .

(٣) في الأصل : « وأبقاه » .

ومنها تكون خرائط البرد^(١) . وهنَّ أصلح للجرب ولعفاص الجرة وسداد القارورة . وزعمت أنَّ الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سبب المضرّة في اتّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البليّة في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل ، إلى المصاحف التي تُثقل الأيدي وتحطّم الصدور ، وتقوّس الظهور ، وتعمى الأبصار .

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلّد^(٢) ، وألّا يروموا جمع شيء من أبواب التعلّم بين الدفتين ، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم .

دع عنك كلّ شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدٌ يُحيي ذكرى ويحوى ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مُراء يرصدني ، وابن عمّ يحسّدي ، ولا يرتع فيه المعدّلون في زمان السوء^(٣) ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويقضى به الذّمام . فقد رأيت صنيعهم في مال المفقود والمناسخة^(٤) والوارث الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

(١) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق أو الأدم تشرح على مافها . والبرد : جمع برید .

(٢) الجاحظ استعمل كلمة « المصحف » للدلالة على المجلد في نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨ .

(٣) المعدّلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) التناسخ والمناسخة في الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

جُعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكلالة^(١) بما تجود به لأولاد
الأصلاب وما مسَّ تلك الأصلاب ؛ لأنَّ الرحم الماسَّة والقراية الملتصقة ،
واللحمة الملتحمة ، وإن أمَّلت التركة ونازعت إلى المورث ، فمعها ما يطرُّها
ويثنيها ، ويحزنها ويبيكيها ، ويحرك دمها ويستغزر دمعها . وقد يشفع للولد إلى
أبيه حال أبيَّة كانت من أبيه .

وابن العم الذي ليس بالبعيد فيجُتكَ من جسده ، وليس بالتقريب المحنَّو
على رَحِمِهِ ، وسببُه الجاذب^(٢) له إلى تمَّنى مماتى أمتنُّ من سببه إلى تمَّنى بقائى ،
وهو إلى الحال الموجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرفقة
والعطف . وليس ينصرك إذا نصرك ولا يحامى عليك لقرايته منك ، ولكن
لعلمه بأنَّه متى خذلك حلَّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوُّه . فهو
يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوى ضعف غيره بدفع الضعف
عن نفسه .

جعلتُ فداك . ما كان عليك من بُنى صغير يكون لى ، ولا سيمًا ولست
عندك ممن يدرك كسبه أو تُبلِّغ نصرته ، أو يُعائِن بره أو يؤمِّل إمتاعه .
وما كان عليك مع كبر سنِّ وضعف ركنى ، أن يكون لى ريحانةً أضمَّها
وثمرَةً أضمَّها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببًا ، وإلى التلهى سأمًا ، وأن تكثر
لى من جنس سرور الحالم ، وبقدر ما يمتَّع به راجى السَّراب اللامع ، حتَّى
حبَّبت قِصر عمرى إلى وليِّى ، وشوقته إلى ابن عمِّى ؛ وحتَّى زدتَ فيما عنده

(١) الكلالة من القراية : ما عدا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « وسبب الجاذب » .

مع كثرة ما عنده ، وحتى صيرني حُبّه لموتى إلى حبّ موته ، وتأميل مالى
[إلى ^(١)] تأميل فقره ؛ وحتى شغلتنى عمن كان يشغل عدوى عنى .

وسواء أعبت على ألا يكون لى ولدٌ قبل أن يكون ، أو عبت على
ألا يكون بعد أن كان . وإنما يعذبُ الله على النية والقصد ، وعلى
التوخي والعمد .

وكما أنه سواء أن تحتال فى ألا يكون لى مالٌ قبل أن أملكه ، أو احتلت
فى ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدرى ما كان وجهُ حُبِّك لإعنائى ، والتشديد بذكر ترائى ،
والتنويه باسمى ، ولا لم زهدتنى فى طلب الولد ، ورغبتنى فى سيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلا لتعرض ذنبى للفقراء ، ولم تكثُر
مالى إلا لتقوى العلة فى قتلى ، فيألها مكيدة ما أبعد غورها ، ويألها حفرة
ما أبعد قعرها . لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة المسلك ،
وبعد الغاية .

والله لو دبرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها المهلب على
سُفَيان بن الأبرد ، وفُتِحَتْ على هرثمة فى مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو دبرها
لُقيم بن لقمان على لقمان بن عاد ^(٢) ، ولو أراغها ^(٣) قيس بن زهير على حصن
ابن حذيفة ، ولو توجّهت لكهّان بنى أسد على دُهاة قريش - لقد كان ذلك

(١) ليست فى الأصل .

(٢) انظر البيان ١ : ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) أراغها : أرادها وطلبها . وفى الأصل : « أذاغها » ، تحريف .

من تدبيرهم نادراً [بديعاً^(١)] ، ولـ كان في مكايدهم شاذاً غريباً . وإنها لترتفع عن قصير في كيد الزبّاء ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . وما إخالها إلا ستدقُّ على ابن العاص ، وتغمض على ابن هند^(٢) ، ويكلُّ عنها أخو ثقيف^(٣) ، ويستسلم لها ابن سميّة^(٤) .

هذا والله التدبير لا تخاريق العرّاف ، وتزاويق الكاهن ، وتهاويل الحاوي^(٥) ، ولا ما ينتحلها صاحب الرئي^(٦) ؛ بل تضلُّ فيها رُقى الهند ، وتقرُّ بها سحرة بابل .

فلو كنت إذ أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفعت قبل كل شيء المؤانسة ، ثم أبيت المؤاكلة ، ثم قطعت البر^(٧) ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعملت الحرمان ، ثم صرّحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل ، ثم عادت واقتصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ، لـ كنت

(١) التـكلمة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٤) يعنى زياد بن أبيه .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئي : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا . يقال مع فلان رئى . وقد أراى الرجل ، إذا صار له رئى من الجن . فى الأصل : « صاحب الرى » وفى ب : « ينتجها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ . ٢٠٣ : ٦ .

(٧) فى الأصل : « الستر » .

واحدًا تَمَنِّيَ يصبر أو يجزع ، فَلَعَلِّي كُنتَ أَعِيشُ بِالرَّفَقِ^(١) ، وَأَتَبَلَّغُ بِحُشَاشَةِ
النَّفْسِ ، وَأَعْلَلُ نَفْسِي بِالطَّمَعِ الْكَاذِبِ . وَلَكِنْ فُجِئَاتِ الْحَوَادِثِ وَبَغْتَاتِ
الْبَلَاءِ لَا يَقُومُ لَهَا الْحَجَرُ الْقَاسِي ، وَلَا الْجَبَلُ الرَّاسِي . فَلَمْ تَدْعُ غَايَةً فِي صَرْفِ
مَا بَيْنَ طَبَقَاتِ التَّعْذِيبِ إِلَّا أَتَيْتَ عَلَيْهَا ، وَلَا فَضُولَ مَا بَيْنَ قَوَاصِمِ الظُّهْرِ
إِلَّا بَلَغْتَهَا . فَقَدْ مِتُّ الْآنَ فَمَنْ تَعِيشُ ؟ [بَلْ قَدْ قَتَلْتَنِي قَبْلَ الْآنِ
تَعَاشِرَ^(٢) !] ، كَمَا قَالَ دِيوَسْتُ الْمَغْنَى لِكُسْرَى حِينَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ لِقَتْلِهِ تَلْمِيزَهُ
بِلَهْبِذٍ^(٣) : قَتَلْتُ أَنَا بِلَهْبِذٍ ، وَتَقَتَّلَانِي ، فَمَنْ يُطْرُبُكَ ؟ قَالَ : خَلُّوا سَبِيلَهُ ؛ فَإِنَّ
الَّذِي بَقِيَ مِنْ عَمْرِهِ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَهُ بِهِذِهِ الْحَبَّةُ .

وَلَكِنِّي أَقُولُ : قَدْ قَتَلْتَنِي فَمَنْ تَعِيشُ ؟ أَمَعَ الشُّطْرُ نَجِيَّيْنِ ؟ ! فَقَدْ قَالَ
جَالِينُوسُ : إِيَّاكَ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِشَيْءٍ لَا يَعْمُ نَفْعُهُ^(٤) .

إِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا صَارَ أَفْضَلَ مِنَ الصَّمْتِ ؛ لِأَنَّ نَفْعَ الصَّمْتِ لَا يَكَادُ يَعْدُو
الصَّمَامَتِ ، وَنَفْعَ الْكَلَامِ يَعْمُ الْقَائِلُ وَالسَّامِعُ ، وَالْفَائِبُ وَالشَّاهِدُ ، وَالرَّاهِنُ
وَالْفَاقِرُ .

وَقَالُوا : وَمَا يَدُلُّ مِنْ فَضْلِ الْكَلَامِ عَلَى الصَّمْتِ ، أَنَّكَ بِالْكَلامِ
تَخْبِرُ عَنِ الصَّمْتِ وَفَضْلِهِ ، وَلَا تَخْبِرُ بِالصَّمْتِ عَنْ فَضْلِ الْكَلَامِ . وَلَوْ كَانَ

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة المال . ولعل صوابها « الرقيق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل « بلهذ » في هذا الموضع وتاليه .

(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ،
كما تنبه لذلك ناشرنا ط .

الصمتُ أفضلُ لكانت الرسالةُ صمتًا ، ولـ كان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفصل وميّز وحصل ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً فغنم ، أو سكتَ فسلم » . فجعل حظَّ السكوت السلامةَ وحدها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنمة والسلامة . وقد يسلم من لا يغنم ، ولا يغنم إلا من سلم .

فأمّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريم إلى الصّاحب الكريم ؟ ومن يعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة النّعمان : لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ في خير وشرٍّ من صاحب .

ولمّا عزمَ ابن زياد على الحلقنة بعد أن كان تفحّشها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجد أولى بتولّي ذلك من الطيب . قال عُبيد الله : كلاً ، فأين الصاحب . والله أن لو نتجتَ في كلّ عام ألفَ شَبْدِيز^(١) ، وأحبلتَ^(٢) في كلّ ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلّ نهر المبارك^(٣) بدلاً من بعض بابك^(٤) .

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قاتم اللون أصدأ ، ولفظه فارسي . معجم استينجاس ٧٣١ . وفي الأصل : « سبدین » ، صوابه في ب .

(٢) في الأصل : « وقمرت » وأثبت ما في ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احتفروه خالد بن عبد الله القسري لهشام بن عبد الملك . وفي الأصل : « البرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر في بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك . معجم البلدان (نهر الطابق) .

وأكلت رأس الجنيد بن حاق الأشيم^(١)، وأحببت ابن الغز^(٢) من إفراط الشبق، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتلة، ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل، ولو عفوت البتة لكان أمثل.

إن الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب بعرض لجأج. وليس يُعاقب إلا غضبان.

والغضب يغلب العزم على قدر ما مكن، ويحير اللب بقدر ما سُلط.

والغضب بصور لصاحبه مثل ما بصور الشكر لأهله.

والغضبان يُشعله الغضب، ويغلي به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلي بدنه رعدة، وتتزايد أخلاطه، وتنحل عُقده، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيده في دائه، ولا يسمع من جليسه إلا ما يكون مادةً لفساده. وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع، واحترق حتى لا يفهم.

ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله، ولا يقصر في عاداته، لما وسوس إلى الغضبان ولا زين له، ولما أغراه ولا فتح عليه؛ إذ كان قد كفاه، وبلغ أقصى مناه.

وليس يُصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلا صرعه، ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شيء إلا قهره. وإنما يُحتمل له قبل هيئجه،

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن الغز: رجل من إباد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدّهم نكاحاً. ثمار القلوب ١١١ - ١١٢ وأمثال الميداني ٢: ٢٧٣ في قولهم (أنكح من ابن الغز) واللسان (لغز). وفي الأصل: «واحتلت بين الغر»، صوابه في ب.

وَيُتَوَقَّعُ مِنْهُ قَبْلَ حَرَكَتِهِ ، وَيُتَقَدَّمُ فِي حَسْمِ أَسْبَابِهِ وَفِي قَطْعِ عِلَالِهِ . فَإِنَّمَا إِذَا تَمَكَّنَ وَاسْتَفْجَلَ ، وَأَذْكَى نَارَهُ وَاشْتَعَلَ ، ثُمَّ لَاقَى ذَلِكَ مِنْ صَاحِبِهِ قُدْرَةً ، وَمِنْ أَعْوَانِهِ سَمْعًا وَطَاعَةً ، فَلَوْ سَعَطَتْهُ بِالتَّوْرَةِ ، وَوَجَّرَتْهُ بِالْإِنْجِيلِ ، وَلَدَدَتْهُ بِالزَّبُورِ ^(١) ، وَأَفْرَغَتْ عَلَى رَأْسِهِ الْقُرْآنَ إِفْرَاغًا ، وَأَتَيْتَهُ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَفِيعًا لَمَّا قَصَّرَ دُونَ أَقْصَى قُوَّتِهِ ، وَلَمَتْنِي أَنْ يُعَارَ أَوْعَافُ قُدْرَتِهِ .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب . ١٠٠ ظ

قال قتادة : ليس يُسْكَنُ الْغَضَبُ إِلَّا ذِكْرُ غَضَبِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ .
وقال عمرو بن عبَّيد : ذكر غضب الربِّ يمنع من الغضب . إِلَّا أَنْ يُرِيدَ
الذِّكْرَ بِاللِّسَانِ ^(٢) .

وَيُسَمَّى الْمُتَوَجِّدُ غَضْبَانًا ، وَالذِّكُّورُ حَقُودًا .
فَلَا تَقِفْ - حَفِظْكَ اللَّهُ - بَعْدَ مَضِيِّكَ فِي عِقَابِي التَّمَاثُلَ لِلْعَفْوِ عَنِّي ،
وَلَا تَقْصُرْ عَنِ إِفْرَاطِكَ مِنْ طَرِيقِ الرَّحْمَةِ لِي ؛ وَلَكِنْ قِفْ وَقْفَةً مِنْ يَتَهُمُ
الْغَضَبَ عَلَى عَقْلِهِ ، وَالشَّيْطَانُ عَلَى دِينِهِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ لِلْعَقْلِ خُصُومًا ،
وَاللِّكْرِمِ أَعْدَاءً .

وإنَّ مِنَ النِّصْفِ أَنْ تَنْتَصِفَ لِعَقْلِكَ مِنْ خَصْمِهِ ، وَتَنْتَصِفَ لِكْرَمِكَ مِنْ
عَدُوِّهِ ، وَتُمْسِكَ إِمْسَاكَكَ مِنْ لَا يَبْرِيءُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَوَى ، وَلَا يَبْرِيءُ الْهَوَى
مِنَ الْخَطَا .

(١) سَعَطَهُ الدَّوَاءُ : أَدْخَلَهُ فِي أَتْنِهِ بِالْمَسْعُطِ . وَأَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ : أَدْخَلَهُ فِي فُوهِهِ
بِالْمِيجَرِ . وَلَدَهُ بِاللَّدُودِ : صَبَّهُ بِالْمَسْعُطِ فِي أَحَدِ شَقِي الْقَمَرِ .
(٢) أَيْ إِنْ ذَكَرَ غَضَبَ الرَّحْمَنِ بِاللِّسَانِ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا مَرَادُهُ ذِكْرَ الْغَضَبِ
بِالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ .

ولا تُنكر لنفسِكَ أن تُزلَّ ، ولعقلِكَ أن يهفو ؛ فقد زلَّ آدمُ عليه السلامُ وهفأَ ، وعصى ربَّه وغوى ، وغرَّهُ عدوُّه وخدعه خصمه ، وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته^(١) . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار أمنه ، وأسجدَ له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع الأسماء بجميع المعاني . ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغوٌ ، كالظَّرف الخالي . والأسماء^(٢) في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدنٌ ، والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معاني لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حسَّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمَّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسمٌ إلا وله معنى .

في قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾^(٣) ، إخبارٌ أنه قد علمه المعاني كلها . ولسنا نعني معاني تراكيب الألوان والطعوم والأرايح ، وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهى ولا تتناهى . وليس لما فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسمٌ إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شيء ، ومعنى .

الأسماء التي تدور بين الناس إنما وُضعتْ علاماتٍ لخصائص الحالات ،

(١) في الأصل : « نعته » ، وأثبت ما في ب .

(٢) في الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لتأنيج التركيبات . وكذلك خاص الخاص لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها لتحيط بها وتشتمل .

١٠١ و

فأما العلوم المبسوطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهي .

فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما تعني نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوي وأنت أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة والفرع أولى بالضعف .

فلست أسالك أن تمسك إلا ريثما تسكن إليك نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ، وحتى توازن بين شفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدث ، وترى تضرثم الغضب^(١) وما يفضي لأهله من فضل القوة .

على أن العقل إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يُصيب الخمور إذا خرج من سكر شرابه ، والمنهزم إذا عاد إلى أهله ، والمُبرسم إذا أفاق من برسامه^(٢) .

وما أشك أن العقل حين يُطلق من إسهاره كالمقيد حين يفك من قيوده ؛ يمشي كالنزيف ، ويحجل كالغراب . فإذا وجب عليك أن تحذر على عقلك مُحامرة داء الغضب بعد تخلّصه ، وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلّصه

(١) في الأصل : « الغرض » .

(٢) البرسام : ذات الجنب ، وهو النهاب في الغشاء المحيط بالرئة . المعجم الوسيط .

من يده ، فما ظنك به وهو أسيرٌ في مُلكه ، وصريع تحت كلكه ، وقد غطّه في بحره ، وغمره بفضل قوّته .

وقد زعموا أنّ الحسنَ حضر أميراً قد أفرطَ في عقوبة بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يحفل بكلامه ، وخوّفه فلم يتعظ بزجره ، فقال : إنك إنما تضرب نفسك ، فإن شئت الآن فأقلّ ، وإن شئت فأكثر .

ومعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدى ، والمصمّم القاسى ، ولكنّي أقول : اعلم أنّك تضرب من قد جعلك من قتله في حلٍّ . وإن كان القتل يحلّ بإحلال المقتول ، ويسقط عنه عقابُه بهبة المظلوم ؛ ولو أمكن في الدين تواهبُ قصاص الآخرة في الدنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يوم الحاجة إلى الثواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً - لكنتُ أوّل من أسمحت بذلك^(١) نفسه ، وانشرح به صدره .

١٠١ ظ

جعلت فداك ، إنّي قد أحصيتُ جميع أسباب التعادى ، وحصلت جميع علل التضامن ، إلّا علةَ عداوة الشيطان للإنسان ؛ فإنّي لا أعرف إلّا مجازها في الجملة ولا أحقّ خاصتها على التحصيل . وعلى حال^(٢) فقد عرفتُها من طريق الجملة وإن جهلتها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنّي فلم أعرفه في خاصٍّ ولا عام .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرايات ، وتحاسدُ الأشكال في الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل ،

(١) في الأصل : « ذلك » . أسمحت : أطاعت وانتادت .

(٢) كذا في الأصل وب . وإخالها من لغة الجاحظ ، وليس ما يدعو إلى أن يجعل

« وعلى كل حال » .

وأقدحها في العرض وأحطبها على الدين^(١) ، التشاح على المواريث ، والتنازع في تخوم الأرضين . فإن اتفق أن يكون بين المتشاكليين في القرابة كان السبب أقوى ، والداء أدوى . وعلى حساب ذلك إن جمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواء الخط في الصناعة . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى قضائه : أن ردوا القرابات عن حرّ القضاء^(٢) فإن ذلك يورث التضامن . ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغلظ قلبك ، ودورنا بالعسكر متجاورة ، ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علم واحد ، ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتدّ عجبى منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس^(٣) ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نتاج ، وصناعتك جودة الخط وصناعتى جودة الحو^(٤) ، وأنت كاتب وأنا أُمّى ، وأنت خراجى وأنا عُشرى ، وأنت زرعى وأنا نخلى . فلو كنت إذ كنت من بكر كنت من تميم ، كان ذلك^(٥) إلى العداوة سبباً ، وإلى المنافسة سُلماً .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصلع وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركين وأنا عجول ، وأنت تدبر لنفسك وتقيم أود غيرك ، وتنسج لجميع الرعية ، وتبلغ

(١) الخطب : الجمع للجد والردى ، والمراد الإفساد .

(٢) الحرا : الساحة والناحية . وفي الأصل : « حر القضاء » ، مع ضبط الحاء بالفتح .

(٣) فرغانة ، بالفتح : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لتركستان .

(٤) كذا في ب وفي الأصل : « النجوم » .

(٥) في الأصل « كان لك » .

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسي وعن تدبير أمتي وعبدى .
 وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سوقة ، وأنت مصطنع وأنا
 صنيع ، وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مقدّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعت
 الرجال وناهضت الأكفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت
 قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيت
 الأمور على حقائقها ، وسَلّمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد
 قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكَلّمت ^(١) ندمتُ ، [وإن جارت
 أبدعت ^(٢)] ورأيي كله دَبْرِي . وأنت تُعدُّ في الشطرنج زبرب ، وأنا في
 الشُّطرنج لا أحد ^(٣) .

١٠٢ و

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا في الإيثار بخبز الخُشكار
 على الحواري ^(٤) ، والباقي على الجوزينج ^(٥) ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة .

(١) م : « حلت » .

(٢) التكملة من م وفيها : « جازيت » ، وفي ب : « وإن حاربت هربت » .
 أبدع ، بالبناء للمجهول وللعلوم أيضاً : كلت راحلته أو عطبت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) في الألفاظ الفارسية ٥٥ : « الحشكر : ما خشن من الطعن ، فارسيته خشكار ،

وهو القصرى » . وانظر استينجاس ٤٠٢ والبخلاء ٨٤ . والقصرى ، كبشرى :

ما يبقى في المنخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة . والحواري بضم الحاء

وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٥) الباقي : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع المد :

الحب المعروف بالفول والجرجر ، وهو الباقلاء النبطية ، أما الباقلاء المصرية

فهي الترمس . اللسان ، وتذكرة داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع

من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

فقد بلغ الآن من جُرمي في مساواتك في خبز الخُشكار ، وإيثاري الباقي ،
والمعرفة بتقدير المذُن وإجراء القنَى ، أن أنقَى من جميع الأرض ، وأن تجعل
في دمي الجمائل ^(١) ؛ فإنني قد هجرت الخُبزَ البتّة إلى مواصلة التمر ، وزلت
الوبرَ بدلاً من المدر .

دعنا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به عليماً ، وكفى به شهيداً ،
وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بجراًة من يعلمه مالا يعلم جُراًة وتعرّضاً ،
وكفى بحاله عند الله بعداً ومقتاً - لقد أردتُ أن أفديك بنفسي في بعض كتبي ،
وكننت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيزِ الهلكى ، فرأيت أن من الخيانة
لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي ميتة ، وأن أريك أني قد
جُدتُ لك بأنفس عِلْقٍ والعِلْق معدوم . ليس أن من قد فدّاك فقد جُعل
فدّاك ، ولكنها نهايةٌ من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد .
ومن أعلن الاجتهاد لك واستسرَّ خلافَ ذلك فقد نافق وخان ، وغشَّ
والآلام ^(٢) . وأخلقُ بمن أخلَّ بهذه ألا يرعى حقاً ، ولا يرجع إلى صحّة
ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا يشفيك مني السمُّ المجْهِز ، ولا السمُّ السارى ؛ فإنه أبعد غايةً
في التطويل وأبلغ في التعذيب . لا ولا ألعاب الأفاعي وداهية الدّواهي ، فإنه
يُعجز الرُّقَى ويفوت ذرع الأطباء . لا ولا نارُ الدُّنيا ، بل لا يشفيك من نار
الآخرة إلاّ الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أن أرى في سوائه ^(٣) وفي

(١) الجمائل : جمع جمالة ، وهي بتثنية الجيم ما يجعل في مقابل العمل .

(٢) آلام : آنى بما يلام عليه .

(٣) سواء الشيء وسطه .

أُصْطَمَّة ناره^(١) ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الصِّمِّم من هيبه . بل لا تكفى بذلك دون الدَّرْك الأسفل ، بل لا يُرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى إلا بعذاب آل فرعون ، أشدّ العذاب ، بل لا يرضيك إلا عذاب إبليس الذي زين الختر للعباد ، وبثّه في البلاد ، والذي خطأ الربّ وعانده وردّ قوله ، وغير عليه تدبيره ، ولم يزدّه إلا شكاً ولجاجة ، وتمادياً^(٢) وإصراراً . ثم لم يرضَ من الجدّ في مخالفة أمره ، وخلع العذار في شدة الخلاف عليه إلا بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزّته ، فجعل العزّة المانعة من إسقاطه سبيلاً إلى إسقاطه ، والقسم الحازر دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبعزّتك لا أغوينهم أجمعين ﴾^(٣) .

فعليك عافاك الله بإبليس إن كنت لله تغضب ، أو عليك بالأ كفاء إن كنت لنفسك تتشقى .

لا ولكنّك استغمرتني واستضعفتني ، وجعلتني فرّوج الرّقاء^(٤) ، وتريد أن تتعلّم فيّ معاقبة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعف مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني . سبحان الله ، يَسلم عليك حيدر الأفشين^(٥) ، ويهلك عليك عمرو الجاحظ ،

(١) الأسطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .

(٢) في الأصل : « تباينا » ، صوابه في ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة ص .

(٤) الفروج ، لعل المراد به اللجاجة ، وهي كبة الغزل .

(٥) يذكر ابن خلكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الحاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها . قال : « وإنما قيده لأنه يصحف على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهملة » واسم أبيه كلوس ، كما في الأغاني ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد^(١) بك أبعدُ البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل
الجبال التماساً للتسليم وحباً للسلامة ، وتغلغلُ إلى المحقرات طلباً للتعريض
وحباً للشر .

ومتى قدرتَ على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى
لم تتغافل عنه تكرماً أو تدعاه احتقاراً ، ومتى اكرثت لكبير وضاق
صدرُك عن شيء عظيم فهانذا بين يديك ، فكُنْني بخُلٍّ وخرذل ؛ فوالله
إنَّك لتأكله غثاً غير مرىء ، وخبيثاً غير شهى .

لا والله ، لكأنَّك وقعتَ على مطمورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت
أظنَّ أنَّ الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأنَّ ظَرْفَ الإنسان وأصالة الرأي
لا يفترقان^(٢) ، وأنَّ النَّزَقَ والخفة مقرونان بخفة البدن ، وأنَّ الرَّكَّانة والأناة
مجموعان لصاحب السَّمن ، حتى رأيتُك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي ،
واستبدلت فيك ضدَّ ذلك الظَّنِّ . فتركتني حتى إذا نازعتُ الرجال ، وتعرَّضت
للشَّجَى ، وشغلتُ نفسي بثلَبِ الخِصام^(٣) ، وانقطعتُ إلى أصحاب القدود ،
وجعلتُ عُدَّوائي^(٤) في تقديم القِضاف^(٥) ، وطالَ لِسَانِي ، وأظهرت الاستبصار
في فضلك ، وجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدالك هو النهاية ، وطبيعتك

(١) في الأصل : « ويسود » .

(٢) في الأصل : « وإطالة الرأي لا يعترفان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفي الأصل : « عداوتي » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشوق الجسم .

هي المُسَكَّة^(١)؛ وزعمتُ أنَ منظرِكَ يغني عن مخبرِكَ، وأنَّ أوَّلَكَ يُجَلِّي عن آخرِكَ - شددتَ على شِدَّةِ المَهرِ الأَرِنِ، وتسرَّعتَ إلى تسرُّعِ الفِرِّ النَّزِقِ، وألححتَ [على^(٢)] إلحاحَ اللَّجوجِ الحَنِيقِ. كأنَّكَ لم تحفل بما يشيع لك من اسمِ المتسرِّعِ، وبما تضاف إليه من سُخفِ المتترِّعِ^(٣)، بعد أن تكذَّبَ قولي وتفنَّدَ خبري^(٤).

وقد تقدَّمتِ التَّجربةُ أنَ الحديدَ لا يكون حقوداً^(٥)، وأن المصطنع لا يكون للصَّنِيعَةِ حاسداً، فقصدتَ على رأسِ^(٦) إلى القياسِ الممتَحَنِ فأفسدته، وإلى الطَّبائِعِ المعتدلةِ فنقضتَها، وإلى القضاياِ الصحيحةِ فرددتَها.

وقالوا بأجمعهم: حالان لا تقبلان الحسدَ، ولا يحلوان من الرِّشْدِ: حال الصَّنِيعَةِ لمصطنعِهِ^(٧)، وحال المولى لمعتقه. فكيف إذا كان الصَّنِيعَةُ صديقاً، وكان للخاصَّةِ محتملاً.

وإنما صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها، واختلاف أخلاطها، وتباعد أماكنها، نفساً واحدة وجسداً واحداً،

(١) المسكَّة، بالضم: القوة، والعقل. وفي الأصل: «المسكنة».

(٢) التكملة من ب.

(٣) المتترع: الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي له. وفي الأصل: «المتبرع».

(٤) التفنيد: التكذيب. وفي الأصل: «وتفسد».

(٥) الحديد: ذو الحدة، وهي الغضب والنشاط والسرعة في الأمور. ولكن

الحجاج بن يوسف كان يقول: «أنا حديد حقود». الحيوان ٣: ٤٧٠ / ٥: ٥٩٢ والبيان ٣: ٢٥٥.

(٦) في الأصل «على رأسي».

(٧) يقال فلان صنيعه فلان، إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه.

لاستواء الخواطر ، ولا تفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافق ، وخليك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المَحَابَةِ ، متفقان في الهوى ، متشاكلان في الشهوة ؛ وتعاونكما كتعاون جوارح أحكما ، وتسالمكما كتسالم المتفق من طبائعكما . فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كالمعانى المضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها . فموتى هو موتُ صديقي ، وحياتى هى حياة صديقي . فلا تبتعدنه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعلّ بعضَ طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلِّ عدو ، وأقطع من كلِّ سيف ، وأخوف عليك من الأسد الضارى ، ومن السمِّ السارى .

ثم اعلم أنَّ الموثق بمودّته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه فى صحّة العقدة ، وفى كرم الغيب والعشرة ، عنقاء مُغْرِبٍ^(١) . ولا أعلم الكبريت الأحرَ إلاَّ أوجدَ منه . وإنى لأظنّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَ من جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لا نقطاع سببه قناعةً .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شيء أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديقٌ قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع المدح^(٢) .

(١) عنقاء مغرب . بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلٌ للندرة أو لما لا يكون ، قال فى القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد فى طيرانه ، أو من الأنماط الدالة على غير معنى » .

(٢) جعلت فى ط « المرح » .

لا والله إن تعرف^(١) على ظهرها موضعاً للسر ، ولا مكاناً للشكوى ،
ولا روحاً تأنس بها ، ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من
جميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحتمل الفقر قليل ،
ومحتمل الغنى عديم .

إنَّ الخير — أبقاك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك به في أيام
قلته ، وإن الشرَّ في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به في أيام كثرته ، وأنت
غريبٌ في المصطنعين . وأنا غريبٌ في الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ،
ونسب للمشكلة وقرابة الطبيعة الموافقة ، أقربُ من نسب الرحيم ؛ لأنَّ
الأرحامَ مولعةٌ بالتحاسد ، لهجةً بالتقاطع ، وأن التحابَّ على طبع المشكلة .
والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التماسد ، وأبعد من التعادى .
وسببُ التعادى عَرَضٌ في طبائع الغرباء ، وجوهرٌ في طبائع الأقرباء .

واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة ، وفي غربة إلى غربة ، وفي
تفكر العيش وتسخط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بثك ، وتفضي إليه بذات
نفسك . ومتى رأيت عجباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارك
إياه . فمن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أن شيبتي التي بها استعطفتك ، وكبرة سني التي بها استرحمتك ،
اللتان لم يحدثا عليَّ إلا وأنا في ذراك ، ولم يُحَلَّ بي إلا وأنا في ظلك ، لكان
في شفاعة الكبرة ، واسترحام الضعف والوهنة ، ما يردعك عن أشدَّ الردع ،

(١) جعلت في ط : « لن تعرف » .

ويؤثر في طباعك أبين الأثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن تهينني خلقاً ، وقويت عظمي أغلظ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرق ما كان . وهل هربت إلّا في طاعتك ، وهل أخلقني إلّا معاناة خدمتك ! .

قال علي بن أبي طالب : رأى الشيخ الضعيف أحب إلينا من جلد الشاب القوي^(١) .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف^(٢) : مودة الأخ التالذ وإن أخلق خيراً من من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته ، وراعتك جدته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه^(٣) ، وليس بفان من بقي أثره .

وما كمل العقل ولا^(٤) وفر التجربة شيء كنفقسان البدن ، وكأخذ الأيام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما قبح الرجال شيء كالو كال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخير الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى .

(١) البيان ٢ : ١٤ وفي أمثال الميداني ١ : ٢٦٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » ، وأشار الميداني إلى أن علياً قالها في بعض حروبه .

(٢) يعني الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

(٤) في الأصل : « إلا » .

ولقد منحتك جلد شبابي كملا ، وغرب نشاطي مقتبلا ، وكان لك
مهناه^(١) ، وثمره قواه^(٢) ، واحتملت دونك غرامه وغربه^(٣) ، وكان لك
غفمه وعلى غرمه ، وأعطيتك عند إدار بدني قوة رأي ، وعند تكامل معرفتي
نتيجة تجربتي ، واحتملت دونك وهن الكبر وإسقام الهرم .

وخير شركائك من أعطاك ما صفا ، وأخذ لنفسه ما كدر . وأفضل
خاطائك من كفأك مؤونته ، وأحضرك معونته ، وكان كلاله عليه ،
ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمليك من لا يظن أنك تسمى
جزيل ما تحتل في بذلك ومواساتك مؤونة ، ولا تتابع إحسانك إليه
نعمة ، بل يرى أنَّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ، ونعمة الواد المخلص
فوق نعمة الجواد المغنى ؛ وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع
جميع ماله إلى مؤمليه والمتحرمين به ، حسن نية الشاكر الوامق ، وحق
تمنى الواد العارف .

ولو اقتضيت جميع حقوقك على ، وأنكرت جميع حقوق عليك ،
أو جعلت حقَّ عليك حقَّا لك ، ثم زعمت أن حقك لا يؤدى إلى شكره ،
وأن حق لا يلزم حكمه ، وأن إحسانى إساءة ، وأن الصغير من ذنوبى كبير ،
وأن اللئيم منى إصرار ، وأن خطائى عمد ، وأن عمدى كله كفر ، وأن

١٠٤ ظ

(١) أى مهناه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) فى الأصل : « قوله » صوابه فى م .

(٣) فى الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « وعدمه »

صوابه فى م . والعرام : بضم العين : الشدة . والغرب : الحدة .

كفرى يوجب القمع^(١) ويمنع من التزوع لِمَا كان عندك . وما اتسع
قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغي أن
يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارى النَّسَم في دار البقاء ، لا في دار الفناء .
[و] الذى يجوز بين العباد إنما هو تعزيز أو حد ، أو قود أو قصاص ،
أو حبس أو تغريب ، أو إغرام^(٢) أو إسقاط عدالة ، أو إلزام اسم العداوة ،
أو عقاب يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مَضْضُ الألم جزاء له^(٣)
ومعدلاً لأسبابه .

وربما قصر الإيقاع على السُّخْط وجاوز حدَّ الغضب . وربما كان
مقصوراً على مقدارها ، ومحسوساً على نهاية حالها .

وليس كلُّ عقاب نتيجة سُخْط ، وقد لا يسمَّى ذلك الموضع والمعاقب
واجداً كما يسمَّى ساخطاً ، ولا يسمَّى عاتباً كما يسمَّى غضبان ، فيخرج كما ترى
من أن يسمَّى سُخْطاً أو مَوْجِدَةً وَغَضَباً ، كما خرج عقابُ آدم عليه السلام
من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار
الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والحنة ؛ ومع ما فى ذلك من إعراء الجلد ،
والتَّسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم ، والاعتزاز بيمين الخصم .

والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل
عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم
صديقك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلذُّ ضَرْبَ السَّيَاط ورضَّ العظام ،

(١) فى الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التَّغريم . وهو العقوبة المالية .

(٣) فى الأصل : « أجرا له » .

فَجَنَّبَ « دندن » أحمل ، والسَّوْطُ في ظهر قاسم أحسن ، وأبدانها تحت
السيَّاط أثبت ، وإنَّ أرواحها أبقى ، وهى بأرواح الكلاب أشبه ، وإلى
طبائع الضَّباب أقرب ، وأرحامهم بالحير أمس ، ومن يُشير فيهم بذلك
أكثر ، والأجر في ضربهم أعظم . فاستديم اللذة بطريق اللذة ، وضع
الأمور في مواضعها بطل سرورك بها .

١٠٥ و إنَّ عتاق الخيل وأحرار الطَّير أدقَّ حسًّا ، وأشدُّ اكترًا .
والكوادِنُ الغلاظ والحامِرُ الثَّقَالُ (١) ، أكلٌ حسًّا وأقلُّ اكترًا .
وليس الصَّبر بالصَّمت والسكوت ، ولا بقلة الصَّياح والضُّمُور (٢) . وقد يصيح
تحت السَّوْط مَنْ لا يقرئ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب
المضروب يجمع الصَّياح والهرب ، والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر
كلَّه كظوم ضامز (٣) ، والمخلب كلُّه ضجور صياح ، والضَّجر في الخُفِّ عام ،
والبخاني أضجر . فسمِن الظِّلْفُ عام ، وهو في الضَّان أخفى ، وكلَّ مضروب
هارب صياح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من
المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛ كالذى يعتري العير السقيم (٤) وتجدّه
في الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدته .

(١) الحامِر : جمع محمر ، يقال فرس محمر ، أى لثيم يشبه الحمار في
جريه من بطئه . ويقال للفرس الهجين محمر أيضاً ، فارسيته « بالاني » . والجمع
الحامِر والمحامير .

(٢) الضُّمُور ، بالزاي : السكوت . وفي الأصل : « الضُّمُور » ، تصحيف .

(٣) في الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) في الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفي المثل : « مارُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شيءٍ ذمّا »^(١) . والكلب لئيم ، والضَّبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنا ، وأجلّ جمالا ، وأعنى صيدا^(٢) ، وأنبِل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يُنَحَّ كُنْدُرتَه عن قربهِ أو هُنْ نفسه^(٣) . ثم بلغ من رقة طبع^(٤) البازي وعِتقه أنه ينقطع برَدِّ البازيار له^(٥) إلى مسقطه من يده . والصَّقر يتعلّق بسباقيه^(٦) من رجل حمل بدرع^(٧) فيضطرب منكسّا إلى الصُّبح ، ثم تجده وكأنّه لم يزل على كُنْدُرتَه وعلى مسقطه الذي بوئى له .

(١) الدماء ، كسحاب : بقية الروح في المذبوح . وانظر الحيوان ٢ . ١٧٥ و ٣ : ٥٠٨ و ٥ : ٢٥١ و ٦ : ٥٤ ، ٦٤ ، ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشيء يعفو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة . بضم الكاف والذال كما في اللسان ، وبفتحهما كما في القاموس ، هي مجثم البازي الذي يهيا له من خشب أو مدر . قال في اللسان : « وهو دخيل ليس بعربي » . وأوهق نفسه : جعلها في الوهق ، وهو جبل مغاري رمي ، فيه أنشوطه ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفي الأصل : « أرهق » .

(٤) في الأصل : « طمع » .

(٥) في الأصل : « برده البازيار له » ، والبازيار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناهما واحد ، وهو القائم بأمر البازي ويعرب فيقال له « البزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان في رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره . وفي ط : « بساقيه » ، خلافا لما في الأصل .

(٧) كذا في الأصل .

فليس بدنى من أبدان الاحتمال فأمتعت بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العير الكليل الحسن ، ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحداً ما تتمتع به ، وتذكر به حاجات نفسك .

وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذتك ، وتتمام شهوتك ؛ فإن زعمت أن الذى يثبت روح دندن فى بدنه ، وروح القاسم فى جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما فى أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرق بينهما وبين تلك الأموال التى تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضى فىهما حكم الكتاب والسنة ؛ فإنه سيحل عقدة أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتحبب به إلى الأمة ؛ فتكون قد أحسنت فى صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله .
والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

١٠٥ ظ

* * *

تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

٦

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ

بْنِي

نَفَى التَّشْبِيهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، في نفي التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضي بغداد في خلافة المتوكل ، ولاء القضاء بعد أن فليج أبوه أحمد بن أبي دواد ، ثم عزله المتوكل ومات في حياة أبيه أحمد في ذي الحجة سنة ٢٣٩ . وترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ - ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داما ، وعليها اعتمادنا في إخراج هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ في أيام الخليفة المعتصم ، كما نص على ذلك في أواخرها .

أطال الله بقاءك وحَفِظَكَ ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

قد عَرَفْتَ - أكرمك الله - ما كان النَّاسُ فيه من القَوْل بالتَّشْبِيهِ والتَّعَاوُن عليه والمعَاذَة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والفِرْيَة الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقُوَّة الظاهرة ، والسُّلْطَان المكين ، مع تقليد العوامِّ وميل السَّفَلَة والطَّعَام .

ولست للخاصَّة قوَّة بالعامة ، ولا للعِليَّة قوَّة على الأراذل ؛ فقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعاذة بالله منهم :

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يُمْلِكُوا ، وإذا تفرَّقوا لم يُعْرِفُوا .

وقال واصل بن عطاء : « ما اجتمعوا إلَّا ضَرُّوا ، ولا تفرَّقوا إلَّا نفعوا » فقيل له : قد عرفنا مضرَّة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطَّيَّان إلى تطيينه ، والحائلك إلى حياكته ، والمَّلَّاح إلى مِلاحته ، والصَّائِغ إلى صياغته ، وكلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكلُّ ذلك مَرَفُوقٌ للمسلمين ، ومَعُونَةٌ للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا نظَرَ إلى الطَّعَام والحَشْو قال : « قَبِّحَ اللهُ هذه الوجوه ، لا تُعْرِفُ إلَّا عند الشرِّ » .

وقال الخريّم^(١) عند ذكره إياهم ، في شعره ، بالتعاوى مع الخلوغ^(٢) :
 من البوّارى ترأسها ومن الـ خوص إذا استلأمت مغافرها^(٣)
 لا الرزق تبغى ولا العطاء ولا يحشرها بالفناء حاشرها^(٤)
 وقال شبيب بن شيبه : قاربوا هذه السفلة وابعدوها ، وكونوا معها
 وفارقوها ، واعلموا أن الغلبة لمن كانت معه ، وأن المقهور من صارت عليه .
 وقد وصفهم بعض العلماء فقال : يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون
 من حيث يجتمعون ، لا يُقلّ غربهم إذا صالوا ، ولا تنجع فيهم الحيلة
 إذا هاجوا .

والعوام - أبقاك الله - إذا كانت نشرًا^(٥) فأمّرها أيسر ، ومُدّة هيجها
 أقصر . فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبّر ، وإمام مقلّد ، فعند ذلك

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهي . قال الخطيب : « وأصله من خراسان
 من بلاد السغد ، وكان متصلاً بخريم بن ناعم المري وآله ، فنسب إليه . وقيل : كان
 اتصاله بعتمان بن خريم . وأبوه خريم الموصوف بالناعم » . تاريخ بغداد ٣٣٦٩ .

(٢) تعاووا معه : اجتمعوا . والخلوغ هو الخليفة الأمين أخو المأمون . وقصيدة
 خريم رواها الطبري في تاريخه ١٠ : ١٧٦ - ١٨١ في حوادث سنة ١٩٧ وبعض
 آياتها في الحيوان ١ : ٢٢٥ .

(٣) البوّارى : الحصير المنسوج ، واحده بورى وبورية ، وبارى وبارية .
 والتراس : جمع ترس . استلأمت : لبست اللأمة ، وهى الدرع . والمغافر :
 جمع مغفر ، وهو زرد يلبس تحت القلنسوة . والبيت وتاليه وبينهما ثالث في الطبرى
 ١٠ : ١٧٨ .

(٤) فى الطبرى : « ولا يحشرها للقاء حاشرها » .

(٥) النشر بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجتمعهم رئيس

ينقطع الطمع ، ويموت الحق ويُقتل المحق . فلولا أن لهم متكلمين ، وقصاصاً ١٠٧ و متفقيين ، وقوماً قد باينوهم في المعرفة بعض المباينة ، لم ياحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم .

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحدين وإخافة علماء المتكلمين . ولولا الكلام لم يقم لله دين ، ولم ينب من الملحددين ، ولم يكن بين الباطل والحق فرق ، ولا بين النبي والمتنبى فصل ، ولا بانت الحجة من الحيلة ، والدليل من الشبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلة على كل صناعة ، ومزية على كل أدب . ولذلك جعلوا الكلام عياراً على كل نظر ، وزمماً على كل قياس . وإنما جعلوا له الأمور وخصوه^(١) بالفضيلة لحاجة كل عالم إليه ، و [عدم^(٢)] استغنائه عنه .

فلم يزل - أكرمك الله - كذلك حتى وضع الله من عزهم ، ونقص من قوتهم . وليس لأمر الله مرد ، ولا لقضائه مدفع . وحتى تحوّل إلينا رجال من قاداتهم ومن أعلامهم ، والمطاعين فيهم ، وارتاب قوم وناق آخرون . وحتى تحوّل الحنة عليهم ، والتقية فيهم . وذلك كله على يد شيخك وشيخنا بعدك - أعزه الله - بما بذل من جهده ، وعرض من نفسه ، وتفرّد بمكروهه ، وغرغر مراره ، صابراً على جسيمه ؛ يرى الكثير في ذلك قايلاً ، والإغراق

(١) في الأصل : « وخصوا » .

(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذل النفس سيرا . على حين خار^(١) كل بطل ، وحاد كل مُقدم ،
وعرّد كل رئيس ، وأضاف كل مستبصر^(٢) ، وطاح كل نفّاج ، واستخفى كل
مُراء . وحتى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملاينة ، ويحسنون عنده المقاربة ،
ويخوّفونه العاقبة ، ويزعمون أن لكلّ زمان تديراً ومصلحة ، وأن إبعادهم
أقبر^(٣) لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم . وحتى سمّوا المداهنة
مدارة ، وإعطاء الرضا تقية ، والشدة عند الفرصة خرقا ، والانحياز مع صواب
الإقدام رفقا ، وموالاته المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ،
والضعف في الدين احتمالا . كما سمى قوم الفرار انحيازا ، والبخل اقتصادا ،
والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخلل بلاغة . فكذلك كانوا وكان .
وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

١٠٧ ظ

ثم يصول أحدهم على من شتمه ، ويسالم من شتم ربه ، ويعضّب على
من شبّه أباه بعبده ، ولا يعضّب على من شبّه الله بخلقه ، ويزعم أن [في^(٤)]
أحاديث المشبهة تأويلاً ومجازاً ومخارج^(٥) ، وأنها حقٌ وصديق . فإذا
قيس^(٦) طلب لهذا المجاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

(١) خار : ضعف . وفي الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : : أشفق وحذر . وفي الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) ليست في الأصل .

(٥) في الأصل : « ومخارجا » .

(٦) يياض في الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته^(١) لصحة أحاديثهم مُقَرَّرًا ، فيصير فيما يدَّعى من خلاف تأويلهم مدَّعيًا . ولو كانت هذه الأحاديث كلها حقًا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الكذب بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمن يفتحل طريقتنا ، ويسلك بزعمه سبيلنا ، جورٌ شديد ، ومذاهبُ قبيحة ، وتقرب^(٢) فاحش .

وليس ينبغي لديان أن يوادَّ من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

فمتى إذن تزولُ التَّقِيَّةُ ، ويجبُ إظهار الحقِّ والنَّصْرَةُ للدين ، والمباينة للمُخالفين ؟ ! أحين يموت الخصم ويبيدُ أثره ويهلك عَقِبُهُ ويقُلُّ ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السَّلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحقِّ مطيعاً ، والله معظماً ؟ !

فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقة . وهل المعصية إلا ما زجه الهوى والشهوة ، وهل الطاعة إلا ما شابه المَكْرُوهُ والكُلْفَةَ^(٣) ، وكيف يُتَكَلَّفُ مالا مؤونة فيه ، وكيف يُحَمَّدُ مالا مَرَزِيَّةً عليه . وكيف يكون شجاعاً مَنْ أقدمَ في الأمن ، وتكتمن في الخوف . أو ليست النارُ مخفوفةً بالشهوات ، أو ليست الجنةُ مخفوفةً بالمكاره . وكيف صاروا في باطلهم أيامَ قُدْرَتِهِمْ أقوى منا في حقنا أيامَ قُدْرَتِنَا .

(١) في الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) شابه ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت - أرشد الله أمرك - أن التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومُهَانِينَ وَمُمْتَحَنِينَ ، فإنَّ عدد الجاحم على حاله ، وضمير أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليلٌ من كثير . ونحن لا ننتفع بالمنافق ، ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجاحح ، وإن كانت المبادأه قد نقصت فإنَّ القلوب أفسدُ ما كانت .

١٠٨ و

وقد كانوا يتكلمون على السلطان والقدرة ، وعلى العدد والثروة ، وعلى طاعة الرعاع والسفلة ؛ فقد صاروا اليوم إلى المنازعة ^(١) أميل ، وبها أكلف ؛ لأنهم حينما يؤسوا ^(٢) من القهر بالحشوة والسفلة ، وبالبيعة ، وبالولاية الفسقة ، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة . ولا بد لمن كانت هذه صفته ، وهذا نعته ، من أن يستعمل الحيلة والحجة ، إذ أعجزه البطش والصلوة . وكلُّ مَنْ كان غيظه يفضل عن حلمه ، وحاجته تفضل عن قناعته ، فواجب أن ينكشف قناعه ، ويظهر سره ، ويبدو مكنونه .

وقد أطمعني فيهم مناظرتهم لنا ، ومقايستهم لأصحابنا . وقد صاروا بعد السبِّ يحفون ^(٣) ، وبعد تحريم الكلام يحالسون ، وبعد التصام يستمعون ، وبعد التجليح يدارون ^(٤) ؛ والعامه لا تظن لتأويل كفها ، ولا تعرف مقاربتها . فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من ميلها ، وأصفت لما ترى من استماعها .

(١) في الأصل : « على المنازعة » .

(٢) في الأصل : « سوا » .

(٣) حفه يحفه : مدحه . وفي المثل : « من حفنا أورفنا فليقتصد » يقول :

من مدحنا فلا يغفلون في ذلك ولكن ليتكلم بالحق منه .

(٤) التجليح : المكاشفة في الكلام .

وقد كتبت - مد الله في عمرك - في الرد على المشبهة كتاباً لا يرتفع عنه الخافق المستغنى ، ولا يرتفع عن الریض المبتدئ . وأكثر ما يعتمد عليه العامة ودعاهم أهل التشبيه من هذه الأمور ويشتمل عليه الفضل من حُشوة الناس^(١) ، ويُخمدع به المُحدثون من الجمهور الأعظم ، تحريف أي كثيرة إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بينت ذلك بالوجوه القريبة ، والدلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدت الكلام المعروف ، والقياس على الموجود .

وهو مع ذلك كله كتاب قصْد ، ومقدار عدل ، لم يفضل عن الحاجة ، ولم يتصر عن مقدار البُغية . على أن الكلام لا ينبغي أن يكثروا إن كان حسناً كله ، إذا كان السامع لا يذْشَطُّ له ، وجاز قدر احتمالهِ ؛ لأن غاية المتكلم انتفاع المستمع . وقد قال الأولون : « قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ ، خير من كثير وافق من الأسماع^(٢) نبوة ، ومن القلوب ملالة » . ١٠٨ ظ

قال بكر بن عبد الله المزني^(٣) : ليس الواعظ من جهل أقدار السامعين ، وإنابة المرتدين ، وملالة المستطرفين .

وقال علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « إن هذه القلوب تمَلُّ كما تمَلُّ الأبدان ، فابتغوا لها طرْف الحكمة » .

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس .

(٢) في الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزينة ، ثقة جليل توفي سنة ١٠٦ . تهذيب

التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .

وقد كان يقال : إنَّ للقلوب شهوة وإقبالاً ، وفترة وإدباراً ؛ فأتوها من حيث شهوتها وإقبالها .

وكان يقال : إذا أُكْرِهَ القابُ عَمِيَ .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُكَلِّلُ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عمران بن حدير^(١) قال : قال قسامة بن زهير^(٢) : روَّحُوا هذه القلوبَ تَعِ الذِّكْرَ^(٣) .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدرداء : إني لأستجِمُ نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحملَ عليها من الحقِّ فأكلَّها^(٤) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسية : أنْ جَنَّبْنَهُمْ حديثَ الجاهلية ؛ فإنه يذكِّرُ الأحقاد . وعِظْهُمْ بأيَّامِ الله ما نَشِطُوا الاستماعَ .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بالموعظة^(٥) .

ولذلك أمروا بالجَمَامِ^(٦) وزيارة الغب .

(١) من رواية قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . في الأصل : « عمر بن أبي حدنه » .

(٢) قسامة بن زهير المازني ، له إدراك ، وكان ممن افتتح الأبله مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً في تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨٠ . وتهذيب التهذيب

(٣) في الأصل : « يعنى من الذكر » ، صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) في الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يملها » .

(٥) يتخولنا : يتعهدنا ، وذلك مخافة السامة علينا .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ورروا أن شرَّ السَّيرِ الحقِّقة^(١) .

ولأنَّ ينقُصَ الكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلىَّ من أن يَفْضَلَ عن مقدار القوَّة ؛ لأنَّ المِلاَّةَ تبغُضُ [في] الجميع ، وتزهدُ في الكلِّ .
فأنا أسألك - أكرمك الله - أن ترى هذا الكتابَ وتقرأ ما خُفَّ عليك منه . فإن يصلح الكلامُ [و] كان كما وصفتُ وكما ضمنتُ ، حثتَ على قراءته وعلى اتِّخاذِهِ ، وعلى تخلُّيده وعلى تدوينه ، وأمرت مَنْ يحتاج إلى المادَّة ، وإلى حُسن المعونة من الموافقين والإخوان الصَّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يبشَّروه وبشيعوه .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصياً ؛ ولكنَّ الرجلَ الرفيع إذا رَفَعَ الشَّيءَ ارتفع ، كما أنَّه إذا وضع الشَّيءَ اتَّضع .
وإن كنتَ فيه غَلِظاً^(٢) أو لعلَّته مستكثراً ، كان لك بحُسن نيتك وصلاح مذهبك ، والذي رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العامَّة ، الأجرُ الكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ما تنقضي بذلك من ذِمِّم المتحرِّم بك ، والمتحلِّي من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنيع المشكور .

وحرامٌ على كلِّ متكلمٍ عالم ، وفقهه مطاع ، وخطيب مغوَّه إن كان^(٣)

(١) الحقِّقة : شدة السير . وهو في حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، العلم أفضل العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقِّقة » أمثال الميداني ١ : ٣٢٧ واللسان (حقق) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) الغلق : الضجر . وفي الأصل : « غلظا » .

(٣) في الأصل : « كلف » .

عنده من الأمر شيء ، إلا أن يأتيكم به ، ويذكركم بما عنده ، قل ذلك أو أكثر ،
وصادف منكم شغلاً أو فراغاً ، لأن ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ،
والقلوب إليه أسكن ، وهو في العيون أعظم ، لِمَا جعل الله عندكم من حُسن
الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذ كنتم المَفْرَع والمقنع ،
والأئمة والمنزع . ولولا ما قُلِّدتم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصة والعامة ،
وأن الشغل برعاية حقها والدفاع عنها ، لم يُبق في قواكم فضلاً للدعاء
والمنازعة ، ولو ضَع الكتب بالجواب والمسألة - لبدأ بكم الفرض ، ولكنتم
أحق بهذا الأمر .

على أننا لم ننطق إلا بالسنتكم ، ولم نحتد إلا على مثالكم ، ولم نقو
إلا بما أعزمتونا من فضل قوتكم . وعلى الرؤاة من الأدباء ، وعلى أهل
اللسن من الخطباء ، معاونتكم ومكاتفتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع
منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن ينفذوا لطاعتكم ، وأن يخلصوا في الدعاء ،
وأن يمحضوا النصيحة ، وأن يضمروا غاية المحبة ، وأن يعملوا في كَف^(١)
الغل والحسد ، وأن لا يرضوا من أنفسهم بالنفاق ، وأن يعلموا أن الحسد
لا يقع إلا بين الأشكال ، وأن التنافس لا يكون إلا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .
وكان يقال : ثلاثة توجب الضغن وتكثر من الغل : المجاورة في المنزل ،
والاستواء في النسب ، والمشاكلة في الصناعة .

ولذلك قال شبيب بن شيبه لرجل ادعى محبته ونصيحته : « وكيف

(١) في الأصل : « كفي » .

لا يكون كما وصفتَ وكما ذكرتَ ، ولستَ بخطيبٍ ، ولا جارٍ قريبٍ ،
ولا ابنِ عمٍّ نسيبٍ » .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لؤم الحسد إلا أنه موكل
بالأدنى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين المتباينين ، ولا يجوز في المتقاربين .

ولا يكون الطلبُ إلا بالطمع ، ولا يكون الطمعُ إلا بالسببُ . فإذا
انقطع السببُ انقطع الطمع ، وفي عدم الطمع [عدم] الطلب . وكيف
يتكلف الطيرَان مَنْ لا جناحَ له ، وكيف يرجو صلاحَ أمرِ العامة وترتيبَ
الخاصة من عجزَ عن تدبيرِ بيته ، وقصّرَ عن تدبيرِ عبده ؟ !
وإنصاف اللسان قليل ، وإنصاف القاب أقلُّ منه .

ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ؛ فإنَّ في صلاحهم صلاحَ قلوبنا لهم .
وقد جعل الله الشكرَ موصولاً بالمزيد ، ومن الشكر على نعمة الله علينا
بكم أن نعظم ما عظم الله من أمركم . ومن صغر ما عظم الله فقد عظم ما صغر
الله . ولا يفعل ذلك إلا الصغير القدر ، والجاهل الذكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون^(١) على ما خبّرتُ وكما وصفتُ ، وقد أغنيتم من
العيلة ، وآنستم من الوحشة ، وجمعتم السمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم
الظلمة ، وأحييتم الشفة ، وأبرزتم التوحيدَ بعد اكتتامه ، وأظهرتموه بعد
استخفائه ، واحتملتم عداوة الجميع ، ووترتم المطاعنين في تقويتنا .

ونحن لا نطالب ما كنتم قياماً ، ولا نذكر ما كنتم شهوداً . ونحن
مع قلة علمنا لا نجد أبداً عملنا إلا مقصراً عن علمنا . وأتم مع اتساع قلوبكم ،

(١) في الأصل : « يكونون » .

أعمالكم وفق علومكم ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ بذلَ كلَّ مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نِعَمه كالجميع من نِعَم غيره ، مع خِذلان الموافق ونُكوص المؤازر ، ثمَّ لم تزدْه الشدائد إلَّا شدَّةً ، والوحدة [إلَّا] أنسة - حقيقٌ بالتَّفضيل والتَّعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

ولعلَّ قائلًا أن يقول : أدخله في جملة صفات أبيه ، وجِلَّة مشيخته وأقربيه ، حيث خَصَّهم بالتَّقديم ، وأبأنهم بالتَّعظيم . بل كيف يقدِّم من صغُر سنُّه وقلَّت تجربته على من تقاربت سنُّه وكثرت تجربته . وكيف تمكَّن الطاعة الكثيرة في الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحبُ تحصيلٍ ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلتُ ذلك - حفظك الله - ولا انتحلته ، إلَّا وبرهاني حاضر ، وشاهدي شاهد . وذلك أنَّ للشَّباب^(١) سَكْرَةً وطِاحًا ، وقِرَاعًا وَصَوْلَةً . والهرمُ داخلٌ على جميع الأعضاء ، وآخذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف يكلُّ ناظره وسامعه ، وذائقه وشامه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تُنقصُ على مرور الأيام قوَّته ، وكذلك قلبه وكلُّ ما بطن من أمره ، على قدر ما نقص من قوَى جسمه وتُنقص من قوَى شهوته . [و] يخفُّ عليه مخالفةُ هواه ، ومحاربة نوازعه^(٢) . ومن حمَل^(٣) على نفسه في كمال شبابه وأيام سكرته ، وفي سلطان حدِّته وكمال قوَّته ، فظَلَمَهَا مرَّةً^(٤) وكبحها

و ١١٠

(١) في الأصل : « للشارب » .

(٢) في الأصل : « ، وادعه » .

(٣) في الأصل : « لمن جعل » .

(٤) ظلف نفسه : منعها هواها .

أخرى ، وعان تلك التكاليف ، وغاب تلك الرِّيح كان أبرزَ طاعة ؛ إذ كان أحملَ للمشقة .

وعلى قدر المشقة تكون المثوبة ، وتعظم عند الله المنزلة ، وتقع له في قلوب الناس المحبة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد ابن أبي وقاص ، حين وجهه إلى العراق : « يا سعد بن وهيب ^(١) ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى خلقه . فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثلُ ماله عندك ^(٢) . ونحن نعتبر حالك عند الله بالذي نجد لك في قلوب عباده . وقد ملَّك الله بعضَ الناس أبدانَ بعض ، ولم يملك القلوبَ أحداً غيره . »

وأما قولهم : إن الغرارة مقرونة بالحدائث ، والحنكة موصولة بطول التجربة ، فإنَّ الذَّهن الحديد والطَّبع الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال في الأيام اليسيرة ، ويدرك في الدُّهور القصيرة ، مالاتدركه العقول المخدوجة ^(٣) ، ولا الطبايع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، في الأيام السَّكثيرة ، والدُّهور الطويلة .

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبي وقاص بن وهيب . واسم أبي وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٢٩ والإصابة ٢١٨٩ وفي البيان ١ : ٢٦١ : « يا سعد ، سعد بن أهيب » . وأهيب ووهيب لغتان .

(٢) إلى ينتهي الخبر في البيان والتبيين .

(٣) المخدوجة : الناقصة ، من قولهم : خدجت الناقة : ألفت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخدجته بمعنى واحد .

وربما صادف القائل مع ذكائه وكثرة قراءته^(١) وجوده اعتباره ،
 زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهرته أقل ، وأيامه
 أقصر ، فينال مع قلة الأيام مالا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيما إذا أُعِينَ
 بحفظ ، وأحسن من نفسه بفضل بيان . ١١٠ ظ

وليس من نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة
 به والهرب إليه ؛ لأن النفس لا تُسمح بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة ،
 وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة . والسامة إلى من كانت هذه
 صفتة أقرب ، وله ألزم . ولولا ذلك لما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 مُعَاذَ بْنِ جَبَلٍ الْيَمَنَ ، وجعل^(٢) إليه قبض الصدقات ، ومحاسبة العمال ،
 وقلده الأحكام وتعاليم^(٣) الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة . ولا يدفع
 ذلك صاحب خير ولا حامل أثر .

وعلى مثل ذلك عقد لأسامة بن زيد الإمرة ، وأبانه بالتقدمة على
 جلة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السلف المتقدمين .

وعلى مثل ذلك ولى عتّاب بن أسيد^(٤) مكة ، وبها عظماء قريش
 وكبراء العرب وذوو الأخطار من كل قبيلة ، وذوو الأسنان من كل جيل .

(١) في الأصل : « فوابله » بالإهمال .

(٢) في الأصل : « وحمل » .

(٣) في الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الهمزة ، كما في الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ،
 واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكة فتُفتح الفتوح ، وأمُّ القرى ، وخاتمة الهجرة وقبلة العرب ، وموضع الحرم والموسم الأعظم والحج الأكبر ، والأصل والمفخر .

وقد رأيتُم ما بلغ بخالد بن يزيد في السُّودد والحِبة ، وقوَدُ الجيوش والهيبة ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر ذلك الكميت بن زيد فقال :
 قاد الجيوش الخمس عشرة حجةً ولداته عن ذاك في أشغال^(١)
 قعدت بهم همتهم وسما به همهم الملوك وسورة الأبطال^(٢)

فأما ابن بيض^(٣) فقال :

بلغت لعشر مضت من سنه لك ما يبلغ السيد الأشيبُ
 فهتكت فيها جسام الأمور وهم لداتك أن يلعبوا

(١) البيت في فتوح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » .
 وفي الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) في الأصل : « قعدت بهم هاته » . وعند البلاذري أن الشعر مقول
 في عهد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفي . شاعر إسلامي
 من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خليع ماجن كان منقطعا إلى المهلب بن أبي صفرة
 وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبي بردة ، واكتسب بشعره مالا
 بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغاني ١٥ : ١٤ - ٢٥ والمؤتلف
 ١٠٠ وحواشي الحيوان ٥ : ٤٥٤ - ٤٥٥ . وفي عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة
 ابن بيض قل البيتين لخالد بن يزيد بن المهلب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدق في يزيد بن المهلب :

ما زال مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ ودنا وكان لخمسة الأشبار^(١)

وإذا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خُضَعَ الرِّقَابُ نَوَاكِسَ الْأَبْصَارِ ١١١ و

وعلى هذا المجرى مدح الشاعر مَنْ مدح فقال :

مَا زِلْتَ فِي عَقْلِ الْكَبِيرِ وَأَنْتَ فِي سَنِّ الصَّغِيرِ

وقد رأيت ما بلغ محمد بن القاسم^(٢) من الفتوح العظام والأيام الجسام ،
والقهر للأعداء ، وبلوغ الحجة في الأولياء ، وهو ابنُ خمسَ عشرة سنة . وقد
ذكر ذلك زياد الأعجم فقال :

مَا إِنْ سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ عَجِيئَةً كَمُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٣)

قَادَ الْجِيُوشَ بِخَمْسَ عَشْرَةَ حِجَّةً يَا قُرْبَ ذَلِكَ سُودْدًا مِنْ مَوْلَدٍ^(٤)

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والحزاة ١ : ١٠٣ . والرواية في الديوان : « فدنا
فأدرك خمسة الأشبار » . وفي الحزاة : « وصما فأدرك خمسة الأشبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل ، أحد ولادة الحجاج ،
غزا السند وفتحها في أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذري ٦١٢ - ٦١٩ .

(٣) في فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن المروءة والسماحة والندی لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) في الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت لمكن في فتوح البلدان
« ساس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفي عيون الأخبار : « قَادَ الْجِيُوشَ
لسبع عشرة » .

وقال الآخر^(١) :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فطلبها كهلاً عليه عسير^(٢)

وقال آخر^(٣) :

إذا ما ترعرع فينا الغلام فليس يقال له من هـو^(٤)

إذا لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينا الذي لا هو

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطورا هو^(٥)

وزعموا أن عمرو بن سعيد^(٦) قال له معاوية - وذلك قبل أن يبلغ

ويحتلم - إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلى ولم يوص بي .

قال : فبم أوصاك ؟ قال : أوصاني ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه^(٧) .

(١) هو المعلوط بن بدل القريني ، كما في التنبية على الحماسة لابن جني ،
وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفي الحماسة بشرح الرزوقي ١١٤٨ : « وقال رجل
من بني قريع » .

(٢) في الأصل : « كهل » ، صوابه في المراجع المتقدمة . وأما « عسير »
فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية في الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما في ديوانه ٤٢٢ واللسان : (شصب) وثمار
القلوب ٥٥ . وللابيات قصة في الديوان واللسان . ورويت في الحيوان ٦ : ٢٣١
بدون نسبة .

(٤) في الديوان واللسان : « فما إن يقال له » .

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية ،
المعروف بالأشدق . جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبري ٧ :

١٧٨ - ١٨١ وحواشي البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) في البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر في عيون الأخبار ١ : ٢٣٥

وأمالى المرتضى ١ : ٢٧٧ .



فهذا كله دليل واضح ، وبرهان بين .

ولعل قائل أن يقول : إنما الفضل في خشونة الملابس ؛ وليس ذلك لمن مدحت ، ولا هذه صفة من وصفت .

وهذا باب - أبقاك الله - قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفطن ما لم يكن ثاقباً ، والأريب ما لم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرياسة والقدر والنباهة على قدر قسَف الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصوم ، وإيثار الوحشة والسياسة - لكان عثمان بن مظعون متقدماً لأبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بلال بن رباح غامراً لعثمان بن عفان رضي الله عنهما .

وقد قال ابن شهاب الزهري : ليس الناسك^(١) إلا من غلب الحرام صبره ، والحلال شكره .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكننا من الاحتجاج . وما أشك أن من خبر أمرك أكثر من اختباري كان عنده أكثر من علمي . وعلى أن منظر ك - أسعدك الله - يغني عن الخبر ، والفراصة فيك تكفي مؤونة التجربة لك . وقد تقيلت بحمد الله أخلاق شيخك^(٢) ، واحتذيت على مثاله كما احتذى على مثال من كان قبله . ولولم يتعقبوا أمرك ، ويتصفحوا سيرتك في نفسك ثم في خاصتك وعامتك ، لكان في صدق الفراسة وظهور المحبة ما تقضى به النفوس ، ويستدل به الجرب .

وظن العاقل كيقين غيره .

(١) في الأصل : « ليس الناس » . وفي البيان ٢ : ١٨٧ : « وقيل له أيضاً :

ما الزهد في الدنيا : قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .

(٢) تقيله : تشبه به .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إِنَّكَ لَنْ تَنْتَفِعَ بِعَقْلِهِ حَتَّى تَنْتَفِعَ بِظَنِّهِ .
وقال أوس بن حجر :

الأملى الذى يظن لك الظنَّ نَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا^(١)
وقال وهو يمدح ابن كَلْدَةَ بِصِدْقِ الْحَسِّ ، وَصَوَابِ الْحَدْسِ ، وَجَوْدَةِ
الظَّنِّ :

أَرَيْبُ أَدِيبٍ أَخُو مَأْزِقٍ نِقَابًا يَخْبِرُ بِالْغَائِبِ^(٢)
وقال آخر^(٣) يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان :

رَأَيْتُ أَبَا الْوَلِيدِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِهِ شَيْبٌ وَمَا فَقَدَ الشَّيْبُ أَبَا^(٤)
وَلَكِنْ تَحْتَ ذَلِكَ الشَّيْبِ حَزْمٌ إِذَا مَا ظَنَّ أَمْرًا أَوْ أَصَابَا^(٥)
وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾^(٦) .
وقال : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾^(٧) . وفى ذكره البعض دليل على أن سائر
ذلك صواب وطاعة .

(١) ديوان أوس بن حجر ٣ هـ والكمال ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ :
٦٨ يرثى به فضالة بن كلداء . ويروى : « يظن بك الظن » .

(٢) ديوان أوس ١٢ والحيوان ٣ : ٦٠ . والنقاب الرجل العالم بالأشياء المبحث
عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وقد وردت « نقابا » فى الأصل منصوبة ، ويروى :
« نقاب » .

(٣) هو كثير . كما فى الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أمرض : قارب الصواب فى رأى وإن لم يصب كل الصواب . وفى الأصل :

« أعرض » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان (مرض) .

(٦) الآية ٢٠ من سورة سبأ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دفعي إليك هذا الكتاب — أبقاك الله — دون
أبي عبد الله^(١) أكرمه الله ، أنكما قد تجريان في بعض الأمور مجرى وحداً ،
ولأنك وإن كنت كثير الشغل فهو أقل فراغاً منك على كثرة شغلك ، وفرط
عنايتك بما استكفأك واسترعاك . وإن جعلت لي قسماً من وقت فراغك ،
ونصيباً من ساعة نشاطك . رجوت أن يصير إلى ما أملناه عندك من الإناعم
على ، والاسترهان لشكري ؛ فإن العرب لم تعظم شيئاً قط كتعظيمها موقع
الإناعم والشكر والأحدوثة الحسنة ، والذكر والتميز ، والاستمداد للنعم ،
والكفر حائل بين العود والبدء .

١١٢ ظ

قال عنتره :

نبئت بشراً غير شاكرٍ نعمتي والكفر مخبئةٌ لنفس المنعم^(٢)
وقال السندي :

فلم أجز بالحسنى وعادت مشاربي بلاقع يقرؤها الحمام المقرقر
تبدلت بالإحسان سوءاً وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد القاضي ، والد من كتب إليه الجاحظ :
هذه الرسالة . وأبو دواد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دهمي » وقيل « طاحه » .
ولى أحمد القضاء للمعتصم ثم للوائق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق
ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن في أيام المعتصم والوائق .
ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفي سنة ٢٤٠ في بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ - ١٥٦
وفيات الأعيان ١ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنتره . والرواية : « نبئت عمراً » . انظر شرح
القوائد السبع الطوال لابن الأنباري ٣٥٥ .

ويدل على حبهم للثناء وجميل الذِّكر قولُ الأسدَى :
فإنِّي أحبُّ الخلدَ لو أستطيعه وكان الخلدُ عندي أن أموتَ ولم أَلَمْ^(١)
وقال :

فأثْنُوا علينا لا أبا لأبيكم بمَسَاعِثِنَا إِنَّ الثَّناءَ هو الخلدُ^(٢)
وقال الغنَوَى :

فإذا بلغتم أهلَكُم فتحدَّثُوا إِنَّ الحديثَ مَهَالِكٌ وِخلودُ^(٣)
فجعلوا الذِّكرَ بالجميلِ مثلَ الخلودِ في النعيمِ .
وعلى هذا المعنى قال في درك الثَّار :

فَقَتَلًا بِنَقِيلٍ وَعَقْرًا كَعَقْرِكُمْ جزاءُ العُطاسِ لا يَمُوتُ من أثَارِ^(٤)
وقال حكيمُ الفرسِ حينَ بَلَغَهُ موتُ الإسكندرَ ، وهو قاتلُ دارا بنِ دارا :
ما ظننتُ أن قاتلَ دارا يَمُوتُ !

وهذا القولُ هو أمدحُ منه لقاتله . ولم أسمعَ للعجمِ كلمةً قطُّ أمدحَ منها .
فأمَّا العربُ فقد أصبَتْ لهُم من هذا الضَّرْبِ كلاماً كثيراً .

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والروايةُ فيهما « يا حساننا » .

(٣) في بعضِ نسخِ الحيوان : « بلغتم أرضكم » و « متالف وِخلود » . انظر

الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل ، كما في البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدونُ نسبةٍ في الحيوان ٣ : ٤٧٥ . تحريفٌ . وفي الأصل : « وعفوا كعفوكم » تحريفٌ . والعقر : القتل والإهلاك . جزاءُ العطاسِ ، هو تسميتُ العطاسِ والدعاءُ له بالخير ؛ أي نَعَجِلُ بذلك كقدر ما بين العطاسِ والتسميتِ . وانظر اللسان (عقب ١١٠ جزى ١٥٩) .
لا يموتُ من أثارِ ، أي لا يموتُ ذكره . أثارٌ : أدرك ثأره .

ومما يدلُّ على قدر عِظَم الشُّكر عند الشَّاكر والمشكور له من العرب ،
قولُ أوسِ بنِ حجرٍ في حَلِمة^(١) :

سَنَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنَّا [مُثَوَّبٌ]

وَحَسْبُكَ أَنْ يُبْذَنِي عَلَيْكَ وَتُحَمَّدِي^(٢)

وقال بعض الشعراء^(٣) :

فلم أجْزِهْ إِلَّا النَّشْكَرَ جَاهِدًا وحسبك مِنِّي أَنْ أَقُولَ فَأَحْدَا^(٤)

١١٤ و

وكانوا يرون للذَّنْبِ مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حجر :

* وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ^(٥) *

(١) هي حليلة بنت فضالة بن كعدة . وكانت قد أسدت إليه صنيعة حين جالت به ناقة فصرعته ، في قصة رواها أبو الفرج في الأغاني ١٠ : ٧ .

(٢) المثوب : المجازي ، يقال أثابه وأثوبه وثوبته ، وفي الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة بياض في الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ٢٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . ويروى : « عني مثوب » ويروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما في الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) في الحيوان :

فلم أجْزِهْ إِلَّا الْمَوْدَةَ جَاهِدًا وحسبك مِنِّي أَنْ أَوْدَ وَأَجْهِدَا
وفي بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحمدا » .

(٥) صدره في ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

* وَلَوْ عَنْ ثَنَاءٍ غَيْرِهِ جَاءَنِي *

وقال جرير :

* وَالسَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا ^(١) *

في أشعار كثيرة .

ولست أُمْتُ إِلَيْكَ — أكرمك الله — بعد التوحيد ونفى التشبيه ،
ونصرتي للدين ، بأمر أنا به أوثق من رغبتك في شكر الكرام والأحدوث
الحسنة . قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ^(٢) ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهُ
لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ^(٣) ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئة لما رَغِبَهم فيه ،
ولا عُذَّ في نِعَمه .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين ، والمعتصم
رب العالمين ، الذي حقق الله به الدين وسدَّد به الثغور ، وردَّ به المظالم ،
وحَسَم به عِرْق البَغْي ونَوَاجِمَ الْفِتْنَةِ ؛ الذي لم يَزَلِ اللهُ يزيده في كلِّ طَرْفَةٍ
مَحَبَّةً ، ومع كلِّ مَحَبَّةٍ هَيِّبَةً ، ومع كلِّ نِعْمَةٍ شُكْرًا ، ومع كلِّ شُكْرٍ فَضْلًا .
وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذي عليه تدور الرَّحَى ، وعلى
مِثَالِهِ احْتَدَى من احتذى ، وبلسانه نَطَقَ ، وعن رأيه صَدَرَ . وبُيُمن نَقِيبَتِهِ
ظَهَرَ ، وبِفَضْل قُوَّتِهِ نَهَضَ . وهو أول هذا الأمرِ ووسطه ، به يتم
إن شاء الله تعالى .

(١) صدره في ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

* وليس لسيفي في العظام بقية *

أى هو يكسر العظام ويتجاوزها لا يغيب فيه . أشوى ، من الشوى ، وهو
إخطاء المقتل . يعنى أن لسانه أشد فتكاً من سيفه ، على ما في سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الزخرف .

قلنا : إنَّ عقلَ الرَّسول يدلُّ على مُرسِله ، واعتدال القناة يدلُّ على حَذقِ
 المثقَّف ، ومَدِيحُكَ الوزيرَ راجعٌ إلى مَنْ اختاره ، وإنَّ تصوُّبَ ظنِّ المتفرِّسِ
 فيه ومَدِيحَنَا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمُحتَذَى على مثاله ، بل قد علم النَّاسُ
 أنَّ الحِظَّ الأكبرَ للأمرِ دونَ المطيع ، والمَعْلَمُ دونَ القائل ، ولأنَّ المسبَّبَ في
 عداله ^(١) وعند النَّظر والتحصيل ، أفضلُ من المسبَّب ،
 والمتبوعَ خيرُ من التابع . ألا تَرى أنَّ مَنْ مَدَحَ الأنصارَ فهو للنبيِّ صلى الله
 عليه وسلم والمهاجرين أمدحُ ، وإن لم يُظهِرْ ذَكَرَهُمْ في الوصف .

قال جرير :

١١٤ ظ

* تَلَكُمُ قُرَيْشِي وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارِي ^(٢) *

وقال رؤبة :

* وَمَنْ عَلَى الْمَنْبَرِ لِي وَالْمَنْبَرُ *

وربما كانت الكناية أبلغَ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح
 والشرح . وربما أتى من السكوت بما يَعْجِزُ القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته
 وغاية أمنيته بالإيماء والإشارة ، حتَّى يكون تسكُّفُ القولِ فضلاً ، والكلامُ
 خطلاً .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قَوِيَ عقله بطبيعته ، وانتصف عزمه من
 شهوته ، وكان عمله وَفَّقَ علمه ، وعمله غامراً لخصمه .

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) صدره في ديوان جرير ٣١١ :

* إن الذين اجتنوا مجدا ومكرمة *

وفي الأصل : « نبيهم قرشي والأنصار الصابرين » .

وقد يجرى المليك على عرقٍ صالح ومنشأ سوءٍ ، فيقدح ذلك في عرقه وإن لم يستأصله ، وقد يكون له عرقٌ صالحٌ ومنشأٌ صديقٍ ، وتكون أدواته تامةً ويكون مؤثرًا لهواه ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كمن فسد عرقه وخبث منشؤه .

وقد جمع الله لأمر المؤمنين^(١) مع كرم العروق وصلاح المنشأ ، البعد من إيثار الهوى . وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقاً أشبه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فنسأل الله الذي أسندنا بخلافته ، أن يمنَّ علينا بطول بقائه ، وأن يخصَّنا بحسن نظره كما خصَّنا بمعرفة حقه ، والاحتجاج لملكه ، والذب عن سلطانه .

ولربما كان اللسان أنفذ من السنان ، وأقطع من السيف اليمان .
أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً
وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامه .

(١) يعنى الخليفة المعتمد .

٧
رِسَالَةٌ

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد
مخبره فيها بكتاب

الفِصِيحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي فقد سبقت ترجمته في أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتيا في الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتيا ، وليست هي كتاب الفتيا بعينه .

وتم أجد لهذه الرسالة أصلا في غير مجموعة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادى في إخراج هذه الرسالة .

أطال الله بقاءك وأعزك ، وأصلح على يدك .

كان يقال : السلطان سوق ، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها .
وأنت أيها العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي إليه ، وحامل الناس عليه -
من موضع السلطان بأرفع المكان ؛ لأن من جعل الله إليه مظالم العباد ،
ومصالح البلاد ، وجعله متصفحا على القضاة ^(١) ، وعتادا على الولاة ، ثم جعله
الله موزع العلماء ، وموزع الضعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بأرفع
المنازل ، وأسمى المراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التجربة والفهم : « لما يزرع الله بالسلطان
أكثر مما يزرع بالقرآن ^(٢) » .

وقد كان يقال : شيثان متباينان ، إن صلح أحدهما صلح الآخر : السلطان
والرعية .

فقد صلح السلطان ، وعلى الله تمام النعمة في صلاح الرعية ، حتى يحقق
الأثر ، وتصدق الشهادة في الخبر .

(١) إشارة إلى أنه كان قاضي القضاة .

(٢) في اللسان (وزع) : « وفي الحديث : من يزرع السلطان أكثر ممن
يزرع القرآن » . قال : معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان
ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصي أكثر ممن
يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار .

فَنَسَأَلُ الَّذِي مَنَحَكَ حُسْنَ الرَّعَايَةِ أَنْ يَمْنَحَنَا حُسْنَ الطَّاعَةِ .

وَقَدْ نَظَرْتُ فِي التَّجَارَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا ، وَالشُّوقَ الَّتِي أَقْمَتَهَا ، فَلَمْ أَرْ فِيهَا شَيْئًا
يَنْفَقُ إِلَّا الْعِلْمُ وَالْبَيَانُ عَنْهُ ، وَإِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالِدُّعَاءُ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا التَّعَاوُنُ
عَلَى مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ ، وَنَفَى الْفَسَادِ عَنِ الْبِلَادِ .

وَأَنَا - مَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ ، وَمِنْ حُمَالِ الْأَثَرِ ،
وَلَا أَكْمُلُ لِكُلِّ ذَلِكَ وَلَا أَفِي ؛ إِلَّا أُنِّي فِي سَبِيلِ أَهْلِهِ وَعَلَى مِنْهَاجِ أَصْحَابِهِ .
وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ .

وَعِنْدِي - أَبْقَاكَ اللَّهُ - كِتَابٌ جَامِعٌ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي أَصُولِ الْفُتْيَا ،
الَّتِي عَلَيْهَا اخْتَلَفَتِ الْفُرُوعُ وَتَضَادَّتِ الْأَحْكَامُ ، وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ جَمِيعَ الدَّعَاوَى
مَعَ جَمِيعِ الْعُلَلِ . وَلَيْسَ يَكُونُ الْكِتَابُ تَامًا ، وَلِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ جَامِعًا ، حَتَّى
تَحْتَجَّ لِكُلِّ قَوْلٍ بِمَا لَا يُصَابُ عِنْدَ صَاحِبِهِ ، وَلَا يَبْلُغُهُ أَهْلُهُ ؛ وَحَتَّى لَا تَرْضَى
بِكَشْفِ قِنَاعِ الْبَاطِلِ دُونَ تَجْرِيدِهِ ، وَلَا بَتَوْهَيْنِهِ دُونَ إِبْطَالِهِ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » .

فَحَثَّ عَلَى الْهَدْيَةِ وَإِنْ كَانَ كِرَامًا وَشَيْئًا يَسِيرًا . وَإِذَا دَعَا إِلَى الْيَسِيرِ الْخَفِيرِ
فَهُوَ إِلَى الثَّمِينِ الْخَطِيرِ أَدْعَى ، وَبِهِ أَرْضَى .

١١٦ و

وَلَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَدْعَى إِلَى التَّحَابِّ ، وَأَوْجِبَ فِي التَّهَادَى ، وَأَعْلَى مَنْزِلَةٍ
وَأَشْرَفَ مَرْتَبَةٍ ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْعَمَلَ لَهُ تَبَعًا ، وَالْجَنَّةَ لَهُ ثَوَابًا .

وَلَا عُذْرَ لِمَنْ كَتَبَ كِتَابًا وَقَدْ غَابَ عَنْهُ خَصْمُهُ ، وَقَدْ تَكْفَّلَ بِالْإِخْبَارِ
عَنْهُ ، فِي تَرْكِ الْحَيِيطَةِ لَهُ ، وَالْقِيَامِ بِكُلِّ مَا احْتَمَلَهُ قَوْلُهُ . كَمَا أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُ
فِي التَّقْصِيرِ عَنْ فُسَادِ كُلِّ قَوْلٍ خَالَفَ عَلَيْهِ ، وَضَادَّ مَذْهَبَهُ ، عِنْدَ مَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ

وتفهم أدخاله^(١) ، لأن أقل ما يُزيل^(٢) عذره ويزيح عِلته ، أن قول خصمه قد استهدف نلخصه ، وأصحَرَ للسانه^(٣) ومكّنه من نفسه ، وسلّطه على إظهار عورته . فإذا استراح واضع الكتاب من شغب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبقَ إلّا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه^(٤) .

ومن شكر المعرفة بمعاوى الناس ومراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم ، أنْ تحتل ثقل مؤوتهم في تعريفهم^(٥) ، وأن تتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يسدى إليهم .

ولم يُصن العلم بمثل بذله ، ولم يُستَبَق بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يكثر التظالم ، وتُفرط النصرة ، وتشتد الحمية . وعند المواجهة يُفرط حب الغلبة ، وشهوة المباهاة والرياسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن^(٦) جميع ذلك تحدث الضغائن ، ويظهر التباين . وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وهذه الحلية ، امتنعت من المعرفة^(٧) ، وعميت عن الدلالة .

(١) الإدخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) في الأصل : « يزيد » .

(٣) أصحَر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقامت سوق العلم والبيان » في ص ٢١٧ تجده مع خلاف يسير في الحيوان ١ : ٨٤ - ٨٧ .

(٥) في الحيوان : « في تقويمهم » .

(٦) في الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) في الأصل : « الفرقة » ، وفي الحيوان : « التعرف » .

ولست في الكتب علة تمنع من درك البغية ، وإصابة الحجة ؛ لأن المتوحد بقراءتها ، والمتفرّد بفهم معانيها ، لا يُباهى نفسه ، ولا يغالب عقله .

والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويرجّح على واضعه بأمور :

منها أنه يوجد^(١) مع كل زمان على تفاوت الأعصار ، وبُعد ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب . وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويفنى المعقب^(٢) ويبقى أثره . ولولا مارسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخذت من عجيب حكمها ، ودوّنت من أنواع سيرها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها المستغلق علينا ، فجمّعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم - لقد خسرنا حظنا في الحكمة ، وانقطع سبيلنا من المعرفة ، وقصّرت الهمة ، وضعفت النية ، فاعتقم الرأي وماتت الخواطر ، ونابا العقل^(٣) .

وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأحسن ما تكلموا به موقعاً ، كتب الله التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، والناشر^(٤) للحق من القيام بما يلزمه .

(١) في الأصل : « يوجد » .

(٢) في الأصل : « المعقب » ، وفي الحيوان « العقل » .

(٣) في الحيوان : « وتبلد العقل » .

(٤) في الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القولُ وصَلَحَ الدهرُ ، وخَوَى نجمُ التَّقِيَّةِ ^(١) ، وهبَّت ريحُ العلماءِ ،
وكسَدَ الجَهِلُ والعَيَّ ^(٢) وقامت سوقُ العلمِ والبيان ^(٣) .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن حَسُنَ في عيني ، وحَلَا في صدري ،
فلستُ آمَنُ أن يعترِبَنِي فيه من الغلَطِ ما يعترَى الأبَ في ابنه ، والشَّاعِرَ
في قريضه .

والذي دعاني إلى وَضْعِهِ مع إشفاقٍ منه ، وهيبتي لتصفُّحك له ، أُنِّي حين
علمتُ أن الغالبَ على إرادتك ، والمستولَى على مذهبك ، تقرب العالم وإقصاء
الجاهل ، وأَنَّكَ متى قرأتَ كتاباً أو سمعتَ كلاماً ، كنتَ من وراء ما فيه
من نقصٍ أو فضل ، باتَّساعِ الفهم ، وصحة العلم ؛ وأَنَّكَ متى رأيتَ زللاً غفرتَه
وقوَّمتَ صاحبه ، ولم تُقرِّعْهُ به ، ولم تُخرِّمْهُ له . ومتى رأيتَ صواباً أعلنتمته
ورعيتَه ، فدعوتُ إليه وأثبتتُ عليه . ولأُنِّي حين أمنتُ عقابَ الإساءة ،
[و] وثقتُ بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكره نفسي
عليه ، وصار ذلك موجباً لنظمه وموحياً للتقرُّب به . والسَّبَبُ أحقُّ بالتفضيل
من المسبَّب ؛ لأنَّ الفعلَ محمولٌ على سببه ، ومضافٌ إليه ، وعِيالٌ عليه ،
ومضمَّنٌ به .

١١٧

وإحسانى - مدَّ الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنتَ محسنًا ، صغيرًا

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) في الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) في الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهى النص المقارب

لنص الحيوان ، الذى أشرت إليه فى ص ٢١٥ .

في جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقده .
فلذلك صار أوفر النصيدين لك ، وأمتن السبيين مضافاً إليك . وإن كنت
قد قصرت عن الغاية ، فأنا المضيع دونك . وإن كنت قد باغتها ففضلك أظهر
وحظك أوفر . لأنني لم أنشط له إلا بك ، ولا اعتمدت فيه إلا عليك .

ولولا سوقك التي لا ينفق فيها إلا إقامة السنة ، وإماتة البدعة ، ودفع
الظلامة ، والنظر في صلاح الأمة — لكانت هذه الساعة باثرة ، وهذا الجلب
مدفوعاً ، وهذا العلق خسيساً .

فالحمد لله الذي عمر الدنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يدك ، وأبد هذا
الملك بيمينك ، وصدق فِراسة الإمام فيك .

وأية منزلة أرفع وأية حالة أحمد ، ممن ليس على ظهرها عالم إلا وهو
يحن إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفه وتحت جناحه . وليس على
ظهرها ظالم إلا وهو يتقيّه ، ولا مظلوم إلا وهو يستعديه .

ومن يقف على قدر ثواب من هذا قدره ، وهذه حاله ؟ !

وعندي — مد الله في عمرك — كتب سوى هذا الكتاب ، وليس
يتمنى من أن أهديها إليك معاً إلا ما أعرفه من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك
من التدبير في ليلك ونهارك . والعلم وإن كان حياة العقل ، كما أن العقل حياة
الروح ، والروح حياة البدن ، فإن حكمه حكم الماء وجميع الغذاء ، الذي إذا
فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وإنما يسوغ الشراب ويستمرأ
الطعام الأول فالأول . فكذلك العلم يجري مجراه ، ويذهب مذهبه .

ومن شأن النفوس الملائمة لِمَا طال عليها ، وكثر عندها . فليس لنا
أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛

فإنَّ أقوامهم ضعيفٌ ، وأنشطهم سَوُومٌ ؛ وإن كانت حالاتهم متفاوتةً فإنَّ الضَّعْفَ لهم شاملٌ ، وعليهم غالبٌ .

فإذا قُرئَ عليك — أيَّدك الله — هذا الكتابُ التمسنا أوقاتَ الجِمام^(١) وساعاتِ الفراغِ ، بقدر ما يُمكن من ذلك وتهيئاً . والله الموفقُ لذلك ، والمهيئُ له . ثُمَّ اتَّبَعْنَا كُلَّ كتابٍ بما يليه إن شاء الله .

ولست بحمد الله من باب الطَّفَرَةِ والمداخَلَةِ^(٢) ، ولا من باب الجوهر والعَرَضِ ، بل كلُّها في الكتاب والسُنَّةِ ، وبجميع الأُمَّة إليها أعظمُ الحاجة . ثُمَّ نَسَّأُ الذي عَرَّفْنَا فضلكَ ، أن يصلَ حبَلُنا بحَبْلِكَ ، وأن يجعلَنا من صالحِ أعوانِكَ ، المستمعين منك ، والناظرين معكَ ؛ وأن يُحَسِّنَ في عينِكَ ويزَيِّنَ في سمعِكَ ، ما تَقَرَّبْنَا به إليك ، والتمسنا الدنوَ منك ، إنَّه قريبٌ مجيبٌ ، فعَالَ لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك في الدُّنيا والآخرة .

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنَّه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه .

(١) الجِمام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطفرة والمداخلة حواشي الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

٨

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْفَرَجِ بْنِ نِجَاحٍ الْكَاتِبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انقردت بها نسخة مكتبة داماد وعنوانها :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب » .

وهي غير الرسالة التي كتب بها إليه في « المودة والخلطة » ، فهذه لم ترد في مجموعة داماد ، وإنما وردت في الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، وكذا في مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ، وقد نشرها السندوبي كذلك في رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماد .

وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما في جمع الجواهر للحصري ١٢١ . وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنه أبي الفرج وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبري في حوادث تلك السنة .

والملاحظ في هذه الرسالة أن الجاحظ قد عني فيها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التي هي كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .

جُعِلَتْ فِدَاكَ ، وَأَطَالَ اللَّهُ بَقَاكَ ، وَأَعَزَّكَ وَأَكْرَمَكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَأَيْدَكَ .

قد نسخت لك - أعزَّكَ الله - في صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت في أبي الفرج أدام الله عزَّه ، ذكروا أن قائلها رجلٌ يكنى أبا عثمان ، ولا أدري أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة^(١) ، أم أبو عثمان عَفَّان بن أبي العاص^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان عنبسة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان^(٣) ، ولا أدري أهو أبو عثمان التَّهْدِي عبد الرحمن بن مِلٍّ^(٤) ، أم أبو عثمان ربيعة الرأى بن أبي عبد الرحمن^(٥) .

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبي جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ . وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) في الأصل : « مليل » ، صوابه من الجمهرة ٤٤٧ وتهذيب التهذيب

٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل - بثلاث الميم - بن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأى بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي ، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفي سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ - ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد^(١) ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام^(٢) ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك^(٣) .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد^(٤) ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن^(٥)] عبد دُهمان ، وهو اسمه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سُمرة بن حبيب ابن عبد شمس^(٦) ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيْز^(٧) .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب^(٨) .

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ - ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفي الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » ، صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد المشهورين . توفي بخران سنة ١٤٤ وورثاه المنصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدري أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنِ العنبري^(١) ، أم أبو عثمان
ابن عمر بن أبي عثمان السَّمري^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهَجِيمِي^(٣) ،
أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفي^(٤) .

(١) في الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣
وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الحُشخاش العنبري .
قال ابن قتيبة في المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الحُشخاش فيروز ، أعظم مولى
بالعراق قدراً . وقد ولي الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من
جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءني برأس الحجاج
فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب
فبعث به إلى الحجاج » . وقد نكل به الحجاج تنكيلا وقتله .

(٢) في الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبوه
« أبو حفص عمر بن أبي عثمان السمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الهجيمي البصري ، كان من
عقلاء الناس ودهاتهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفي
سنة ١٨٦ . ذكره في البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التي رواها الجاحظ في البخلاء ١٤١ - ١٥٣ وعقب
عليها بذكر رد ابن التوأم عليها . وانظر أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٤
حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفي صاحب ابن مناذر الذي
رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هـد ركنا ما كان بالمهدود

ولا أدري أهو أبو عثمان سَعِيد بن وهب الشاعر^(١) ، أم أبو عثمان عمرو الأعور الخاركي^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقفي^(٣) ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر المازني .

ولا أدري أهو أبو عثمان الأعور النحوي^(٤) ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرَة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطَّيَّب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا المجهول موضعه ، المغمور نسبه ، أنه قال :
ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السَّيف الحسام^(٥) ،

(١) ذكره الجاحظ في البيان ٣ : ١٦٢ - ١٦٣ وترجم له ابن المعتز في طبقات الشعراء ٢٤٧ - ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغاني ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له المرزباني في معجمه ٢١٩ وقال : « أزدي بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد المخلخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما في معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركي الشاعر ، في أيام المأمون أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج في الأغاني ١٧ : ١٢١ في رواية للعتبي عنه . والعتبي ، هو محمد بن عبد الله العتبي الأخباري المتوفى سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ في البخلا ، ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقَّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممن تعرَّضَ للمتصفِّحين^(١) ، وتحكَّك
بالعيَّابين ، وحكَّم في عرض الحسدة المغتابين .

فإن سَلِمَ فبِحُسْنِ النِّيَّةِ ، ولأنه مَدَحَ كريماً ، ووصفَ حليماً . والكريم
صَفُوح ، والحليم متغافل . وإن ابتُلِيَ فبذنبٍ ، وما عفا اللهُ عنه أكبر .
وقال : اللهمَّ اجعلْ هذا القولَ حسناً في عينه ، خفيفاً على سمعه ، وألهمه
حُسْنَ الظنِّ به ، وبَسْطَ العُذْرِ له ، إنَّكَ سميعُ الدعاء ، رحيمٌ بالضعفاء .
والقصيدة هي قوله :

أقامَ بدارِ الخفضِ راضٍ بِحُظُّهِ
وذو الحِرصِ يسرى حين لا أحدٌ يسرى
يظنُّ الرِّضا بالقَسَمِ شيئاً مهُوناً
ودُونَ الرضا كَأْسُ أمرٍ من الصَّبْرِ
جَزَعْتُ فلم أَعْتَبْ فلو كنتُ ذا حِجَا
لَقَنَنْتُ نَفْسِي بِالْقَلِيلِ من الوَفْرِ
أظنُّ غَيَّ القومِ أرغَدَ عَيْشَةً
وأجذَلَ في حالِ الْبِسَارَةِ والعُشْرِ
تَمَرُّ به الأحداثُ تُرْعِدُ مَرَّةً
وتُبْرِقُ أخرى بالخطوبِ وما يدرى
سِوَايَ عَلَى الأيامِ صاحبِ حُنُكَةٍ
وآخرُ كابٍ لا يَرِيشُ ولا يَبْرِى

(١) المتصفِّح : التأمل المتعرف .

فلو شاء ربِّي لم أكن ذا حفيظة
 طَلوباً لغايات المكارم والفخر
 خضعتُ لبعض القوم أرجو نواله
 وقد كنتُ لا أعطي الدنيَّة بالقَمَرِ
 فلما رأيت المرء يـبـذلُ بشره
 ويجعلُ حُسنَ البشرِ واقيةً التَّبرِ^(١)
 ربعتُ على ظَلْعِي وراجعتُ منزلي
 فصرتُ حليفاً للدراسة والفكرِ^(٢)
 وشاورت إخواني فقال حكيمهم
 عليك الفتي العرِّيُّ ذا الخلق الغمرِ
 فتى لم يقف في الدهر موقفَ ظَنَّةٍ
 فيحتاج فيه للتنصُّل والعذرِ
 أعيتُك بالرحمن من قولٍ شامتِ
 أبو الفرج المأمولُ يزهد في عمرو
 ولو كان فيه راغباً لرأيتَه
 كما كان دهرأً في الرِّخاء وفي اليُسْرِ
 أترضى - فذلك اليومَ نفسي وأسرتي -
 بتأخير أرزاقى وأنت تلى أمرى

١١٩ ظ

(١) أى يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربيع على ظلمه : توقف وانتظر . والظلمع ، بالفتح : العرج أو شبيه به .

ألا يافتى الكتاب والعسكر الذي تآزر بالحسنى وأيد بالنصر
أخاف عليك العين أو نفس وامي وذو الود منخوب الفؤاد من الذعر
وعهدى به والله يرشد أمره ويحفظه في القاطنين وفي السفر
مُطلاً على التدبير ما يستفزّه مكاييد محتال عقاربهُ تسري
برأي يُزيل الطود من مستقرّه وأوضح عند الخصم من وضح الفجر
وعزيم كغرب المشرق مصمّم وقلب ربيط الجأش مثلج الصدر
فيا ابن نجاح أنجح الله سعيكم وأيدكم بالنصر والعدد الدثر^(١)
قعدت فلم أطلب وجلت فلم أصب خليلاً يواسيني ويرغب في شكري
وإن أخفقت كفى وقد علقنكم فقد قال رأيي واستنمت إلى شعري^(٢)
أعيذك بالرحمن أن تُشمت العدى فاللفقر خير من شماتة ذي الغمر^(٣)
فإن ترع ودّي بالقبول فأهله ولا يعرف الأقدار غير ذوى القدر
وحسبك بي إن شئت ودّاً وخلة وحسبك بي يوم النزاهة والصبر
ألا رب شكر دائر الرسم دارس وشكر كنقش الحيرية في الصخر
قال أبو عثمان المجهول : إذا كان الممدوح ظاهراً المحاسن كثير المناقب
فلم يُجدِ الشاعرَ كان ألوم .

(١) الدثر : الكثير .

(٢) استنم إليه : أنس به واطمأن إليه . وفي الأصل : « واستنمت »
وإزاءها في هامش الأصل الحرف « ظ » وتحت الحرف « ن » معناه الظاهر
أنها « استنمت » .

(٣) الغمر بالكسر وبالتحريك أيضاً : الحقد والغل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفة والمعاني النفيسة ،
ويكون التقصير مني .

وكيفما تصرفت بي الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فإن وقعت هذه القصيدة والتي قدّمتها قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن
خالفت فنتستغفر الله . وإن شيعتم ضعفها بقوة كرمكم^(١) ، وقومتم أودها
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغ لما أمّلنا . والله الموفق .

* * *

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين
وسلامه .

(١) شيعه تشيعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصِيلُ مَا بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، ومُعنوانها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ في صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبوقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ في مقدمة الحيوان ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجده ذكراً .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتد ، كما تدل عليه أواخر هذه الرسالة في شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتلخيص والإشراف للسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٢ والوزراء والكتاب للجهمي ٢٥٤ والفخرى لابن طباطبا ٢١٦ ، ٢٢٨ .

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل في مجموعة مكتبة داماد ، وهي النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، والمستشرق باول كراوس نسختها التى أشرت إليها بالروى « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل لهذا ، هي « رسالة الحاسد والمحسود » . وليست في مجموعتنا هذه ، فموعداها في النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أَحْصَى اللَّهُ مَدَّتِكَ السَّعَادَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَقَرَّنَهَا بِالْعَافِيَةِ وَالسَّرُورِ ، ١٢٠ ظ
ووصلها بالنعمة التي لا تزول ، والكرامة التي لا تحول .
هذا كتابٌ - أطال الله بقاءك - نبيلٌ بارع ، فصل فيه بين الحسد
والعداوة ، ولم يسبقني إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدّم هذا
الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدّم كتاب فضل الوعد .
وإنما نبئت هذه الكتب وحسنت وبرعت ، وبذت غيرها ؛ لمشاكلتها
شرف الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيفة الغريبة ، والآثار الحسنة اللطيفة ،
والأحاديث الباعثة على الأخلاق الحمودة ، والمكارم الباقية الماثورة ، مع
ما تضمنته (٢) من سير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم ، وما جرت
عليه أحوالهم .

فأنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لئلا (٣) امتننت عليّ بصرف
عنايتك إلى قراءتها . فإن لم يمكنك تبخّرها والتقصّي لجمعها ، للأشغال التي

(١) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها :
« الحمد لله رب العالمين كما هو أهله ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به ،
وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً » .

(٢) في الأصل : « ما تضمنتها » .

(٣) لما ، هنا ، بمعنى إلا ، كما في التذييل العزيز : « إن كل نفس لما عليها

حافظ » .

تعروك ، فبحسبك^(١) أن تقف على حدودها ، وتتعرف معاني أبوابها بتصفح أوائلها ؛ فإن معك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقد والحفظ ، ما يكفي معه النظر الخاطف^(٢) .

إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه علماء محققون ، قد قرءوا كتب من تقدمهم ، ودارسوا أهلها ، ومارسوا [الموافقين^(٣)] لهم ، وعانوا^(٤) المخالفين عليهم ، فمخضوا الحكمة وعجموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمهات والأصول ، وعرفوا الشرائع والفروع ، ففرقوا ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين المتجاور والمتوازي^(٥) ، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البين ، واستظهروا على الخفى المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم الناصع ، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفتنة ، فوضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم ، والأخلاف من بعدهم . يزدلفون بذلك إلى الممتن عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم ، وأبانهم من غيرهم ، وفضلهم عليهم ، ويباهون به الأمم الخالفة لهم ، ويتبارون بذلك فيما بينهم . ولهم حساد معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب ،

١٢١ و

(١) في الأصل : « وبنفسك » .

(٢) في الأصل : « نظر الخاطف » .

(٣) موضعها بياض في الأصل .

(٤) من المعاناة . وفي الأصل : « وعابوا » .

(٥) في الأصل : « بين المتجاوز والمتوازي » .

منتحلة يدعون مثل دعاويهم ، قد سَمَوْا أنفسهم بِسِمَاتِ الباطل ^(١) ،
وتسمَّوا ^(٢) بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزُّور
متزخرفين متشبعين بما لا محصول له ^(٣) . يحتذون أمثلة المحقِّين في زيَّهم
وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وأحاديثهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ،
لِيَنسَبُوا إليهم ويَحْكُوا محلَّهم ، فاستألوا بهذه الحيلة قلوبَ ضعفاء العامة ،
وجُهلاء الملوك ، واتَّخَذَهُم ^(٤) المعادون للعلماء المحقِّين عُدَّةً يستظهرون بهم
عند العامة . وحلَّ المدَّعيةَ للعلم المزوَّر الحسدُ على بهتِ العلماء المحقِّين ،
وعَضُّهم والطَّعن عليهم ^(٥) ، وجرَّأهم على ذلك ما رأوا من صغفِ ضَعْفَةِ
القلوب وإذلة الناس إليهم ^(٦) ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأمَّلوا
أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوى لهم الرِّئاسة على طَعام الناس
ورعاعهم ، ويستخولوا رِعَاتَهُم ^(٧) وقومهم ، فهمروا وهذروا ^(٨) وتوردوا

(١) أى بسِمَاتٍ غير حقيقة .

(٢) فى الأصل : « وسموا » .

(٣) تشبع : تزين بما ليس عنده . وفى الحديث : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » .

(٤) فى الأصل : « وأنجدهم » .

(٥) العضه : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفسكا وبهتاناً .

(٦) الصغو : الميل . وفى الأصل : « منه رأوا من صغو » .

(٧) فى الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الهمر : الدمة بغضب . وجعلت فى ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بغباوتهم^(١) ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا
سترًا كان مُسدلاً عليهم بالصمت . فقد قيل : « الصمت زين العالم ، وسير
الجاهل » ؛ طمعاً في الرياسة وحباً لها . وقد قيل :

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له وقلماً تجدُ الراضين بالقسم

ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاك من هلك
من الأمم فيما سلف بحبِّ الرياسة . وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر
فبحبِّ الرياسة .

١٢١ ظ

وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتي الساعة بحبِّ الأمر
والنهي ، وحبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكّل على العامة أمرُ العالم الحقيقي والمدعى المجارى المنتحل للزور
والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التي يعمى لها السبيل الواضح
والطريق المنشأ^(٢) ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى الغباء المسترهف^(٣) .

ولست آمنُ - جعلني الله فداك - أن تكون هذه الكتب التي أُعنى
بتأليفها ، وأتأنق في ترصيفها ، يتولّى عرضها عليك من قد لبس لباسَ
الزور في انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسه إلى القوّة على نظائرها ، والمعرفة
بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابنَ عمّها ، وتشبّع بما لم يُطعمه الله منها .

(١) من قولهم : توردت الخيل البلدة ، إذا دخلتها قليلاً قليلاً قطعة قطعة .
وفي الأصل : « توددوا » .

(٢) في الأصل : « المتنا » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفي الأصل : « وذى الغنا » ،
ووجه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوَّله^(١) ، أو بعضَ من يهزل به ، ويرتفع في عقله ويلهو بلبِّه ، ويضعه على طَبْطَابَةِ اللَّعْبِ^(٢) ، وفي أرجوحة العبث ، يوهمه^(٣) الحسدَ له على ما يدَّعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعالمهم ضراوةً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :

ومن يَسْكُنَ البحرَيْنِ يعظمُ طِحَالُهُ

وَيُعْبِطُ بِمَا فِي البطنِ والبطنُ جائعٌ^(٤)

وقد قيل : « الذئبُ يُعْبِطُ وهو جائعٌ » . فيلتوى في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بَسْطِ ما يحتاج أن ينشره منها ، ويقصر في تفخيم حروفها ولا يملأ قمعها منها .

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطَّعن عليها بقول أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظهر المعادة لها ، والحسدَ لمؤلَّفها ، والحمل عليها بقول يكون دليلاً على ما يضر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه^(٥) ، فيقع ذلك بخَلْدِهِ . وقد قيل :

« مَنْ يَسْمَعُ يَخَلُّ » .

(١) في الأصل : « ما خوله » .

(٢) الطَبْطَابَةُ : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة . وفي الأصل : « طبطاب » .

(٣) في الأصل : « فيوهمه » .

(٤) البيت في الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعراء ٧٣١ وأمثال الميداني ١ : ٢٥٥ .

(٥) في الأصل : « وأنجعه » .

وليس يقابله أحدٌ برَدٍّ^(١) ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجَرِّدٍ في الخلاء يُسرُّ^(٢) » وكلُّ مناظر متفرِّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَفُ جَرَى الخيل عند المسابقة ، وبراعة النظر عند المحاصمة .

وقال لي بشرُّ المريسي^(٣) : عُرض كتابي على المأمون في تحليل التَّبيذ ، وبحضرته محمد بن أبي العباس الطُّوسي ، فأنبرى للطَّعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه ، وأسهبَ في ذلك وخطب ، وأكثر وأطنب ، فقلقَ المأمون واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطُّوسي^(٤) وخلاء المجلس له ، وكان

١٢٣ و

(١) في الأصل : « بود » .

(٢) في الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ والبيداني ٢ : ٧٣ وأمالى القالى ٢ : ٨٩ . ويروى أيضاً « مسر » كما في البيان ١ : ٢٠٣ . وأصله أن الرجل يجري فرسه في المكان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الخلعة يحمدها من نفسه ولا يشعر بما في الناس من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي ، نسبة إلى مريس أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف في ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة أو مثقلة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكينة بكسر الميم وبتشديد الراء . كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصاراً صباغاً . وإليه تنسب فرقة المريسية . توفي سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعاني ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ : ٢٩ — ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحتقار والاستصغار .

يحبُّ أن يَزَعَهُ وازعٌ يكفُّه بحجةٍ تُسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذبُّ
عن كتابي قال متمثلاً :

يا لك من قُبْرَةٍ بمَعَمَرٍ خلا لك الجوُّ فيبضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري ^(١)

فما كان إلا ريثَ فراغِهِ من التمثيل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي
فدخلتُ عليه ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في النبذ ؟ قلت : حلٌّ طلقٌ
بأمر المؤمنين . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لعن الله قليله
إذا لم يسكر [إلا ^(٢)] كثيره . ثم قال : إنَّ محمداً يخالفك . فأقبلت على
ابن أبي العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ
بينى وبينك . كلاماً يوهم به أهل المجلس ، حباً للتسليم منى والتخاض من
مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له : فما لي
لا أرى أثر قواه في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكَه أطنبتُ
في معاني تحليل النبذ ، وابن أبي العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولي
ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمونُ سكوتَه عند حضوري مع كثرة كلامه
في ثلب كتابي وعييه - كان - قبل دخولي ، قال متمثلاً :

مالك لا تنبجُ يا كلبَ الدَّومِ قد كنتَ تباحاً فما لك اليوم ^(٣)

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير .
وقال ابن بري : هو اسكيب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفة . اللسان (قبر) .
وذكر ابن قتيبة في الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦
و ٢٢٧ : ٥

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده في الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إلىَّ فقال : إنَّ الكتبَ عقولُ قومٍ وراءها عندهم حججٌ لها ،
فما ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلَّا إذا كان له دافع عنه ، وخَصْمٌ يُبين عَمَّا فيه ؛
فإنَّ أبناء النِّعمِ وأولاد الأُسْدِ محسودون .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، بإزاء كل حاسد راهن .

وقد قيل في مثلي من الأمثال : « الحسن^(١) محسود » . وفي مثل
آخر : « لن تعدم الحسناء ذاماً^(٢) » . وقال الأحنف بن قيس :

ولن تصادف مرعى ممرعاً أبداً إلَّا وجدت به آثار ما كُول^(٣)

يقول : يُعَاثُ^(٤) في كلِّ [مرعى^(٥)] حَسَنٍ ويؤكل منه ، فيعييه ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعددِ نعمةٍ
إلَّا وجدت له عليها حاسداً . ولو أنَّ امرأً كان أَقْوَمَ من القِدْحِ لَوَجَدَتْ
له غامزاً^(٦) » .

(١) في الأصل : « الحسد » .

(٢) اللذام ، بتخفيف الميم : العيب . ومثله اللذيم . وضبطت في ط بتشديد
الميم سهوا .

(٣) وكذا في أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن في أدب الدنيا والدين ١٣٥
« آثار منتجع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) في الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تكملة يقتضيها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنان حسده ؛ لأنه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطّاب بن نمير السّعدى : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسّد الحسن والقبيح .

وقال المهلب بن أبى صفرة : الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب ، وعلى من وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجّم قرنُها ، وتبدي صفحتها في أوقات الهتر . وإلا فإنها كامنَةٌ تنتهز أزمّة الفرص . والحسد مسلوب المعقول بإزاء الضمير في كل حين وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه مَوَكَّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصّ فالأخصّ . والعداوة وإن كانت تقبّح الحسن فهي دون الحسد ؛ لأنّ العدو المباين قد يحول وليًا منافقًا ، كما يحول المولى المنافق عدوًا مباينًا .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعلّة^(١) ، فإذا زالت العلّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه^(٢) فهو لا يزول إلا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكننى أن أَرْضَى الناس كلّهم إلا حاسدَ نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها ترحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامين عنها ، والدافعين عنها .

(١) فى الأصل : « العلة » .

(٢) كذا فى الأصل .

ومن هذا قال المغيرة بن شعبة : النعمة التي يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثأرٌ يفتالها ، ولا ذو حسدٍ يحتال في غيرها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنه خيرٌ عيش فيه . وكلُّ خيرٍ كان يَرْضَخُ^(١) بذلاً كان من المتالف ممنوعاً ، ومن الغير آمناً .

وحَسَادُ النعمة إن أُعطوا منها وتَبَحَّحُوا فيها ، ازدادوا عليها غِيظًا وبها إغراء .

والعداوة تُخْلِقُ وتُكَلِّمُ ، والحسدُ غَضٌّ جديدٌ ، حُرْمٌ أو أُعْطِيَ^(٢) ، لا يبید . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوٍّ بحاسد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبيٌّ صادق ورسولٌ مُحَقِّقٌ ، يقرءون بعثه في توراتهم ، ويتدارسونه في بيت مدراسهم^(٣) — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أن الحسدَ آلم وآذَى وأوجعُ وأَوْضَعُ من العداوة ، أنه مُغَرِّىٌ بفعل الله عزَّ وجلَّ ، والعداوة عاريةٌ من ذلك لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد . ولا يُعَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عادى أحداً لأنه حسن الصورة جميلُ الخُصنِ ، فصيح

(١) رَضَخَ له من ماله رَضَخًا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفي الأصل : « يوضح بذلاً » .

(٢) في الأصل : « إذا عطي » .

(٣) المدراس : الموضع الذي يدرس فيه . وفي الأصل : « مدارسهم » .

اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة .

فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب الشُّوس^(١) .

والحسد أخو الكذب ، يجريان في مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عادَوْ أعداء الله إذ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البُهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لدميم^(٢)
والحسد نارٌ وقوده الروح ، لا تبوُّخ أبداً أو يَفْنَى الوقود^(٣) . والحسد لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنابة^(٤) . والحسد جوهر والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أنثى ، لأنه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فحل ، ١٢٣ لأنها عزيزة .

(١) الشُّوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفي البيان : « حسداً وبغياً » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « ويفنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإن كان موكلًا بالأدنى فالأدنى فإنه لم يعر منه الأبعد فالأبعد .
 فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب ، انتهى إليه
 خبرُ مشاركٍ له في الصناعة من أهل خراسان وجنبية بَلَخ^(١) من اتساق الرياسة
 في بلده ، وجميل حاله ونبيل محله عند أهل مصره ، وطاعة العامة له ،
 وترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقا ، وأخذته الأربابه^(٢) ، وتنفس الصعداء
 وانتفض انتفاض المفلس الممطور^(٣) ، فقال لي رجل من إخواني كان
 عن يميني ، حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : « لم يرَ ظالم أشبه
 بمظلوم من حاسدٍ نعمة ؛ فإن نفسه متصل ، وكربة دائم ، وفكرته
 لا تنام » .

وهو في أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدُّ لصوقاً منه
 بغيرهم من الملوك والشوكة . وكأن من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته
 القصوى^(٤) قد استشعر حسد كل ما يرد عليه من طريف أدب ، أو أنيق
 كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلفه لضعفه ، وقر في روعه لخاسته^(٥) ،
 أنه لا ينال أحد منهم رياسة في صناعة ، ولا يتهيأ له سياسة أهلها ، إلا بالطعن

(١) في الأصل : « وحه » ، بدون نقط . والجنبه : الناحية . وانظر الحيوان

٤ : ٤٩ .

(٢) الأرباء : جمع ربو ، وهو البهر والنهيج وتواتر النفس .

(٣) هذا عكس ما أنشده في الحيوان ٣ : ٢٢٨ :

وكننت فيهم كمطور يبلدته فسر أن جمع الأوطان والمطرا

وفي الأصل : « الملعس » تحريف .

(٤) في الأصل : « عن غاية القصوى » .

(٥) الخساسة : الحسة والدناءة . وفي الأصل : « لخاسته » .

على نواصيهم^(١) ، والعيب جَلَّتْهُمْ ، والتخفيف لحقوقهم .

قال لى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر ، الذى يُعرَف بصريع الغواني^(٢) : خَيْلَ إِلَى نَوَكَى الشُّعْرَاءُ أَنَّهُمْ لَا يَقْضَى لَهُمْ بِجُودَةِ الشُّعْرِ إِلَّا بِهَجَائِي وَالطَّعْنِ فِي شَعْرِي ، وَلِسَانٍ يُهْجَى بِهِ عَرْضِي ، لَا أَنْفَكُ مَتَّهًا^(٣) مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، إِلَّا مَا سَبَقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ وَسَاوِسِ الظَّنُونِ وَالْخَوَاطِرِ الَّتِي أَوْهَمَتْهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْجَلُ لَهُمْ بِجُودَةِ الشُّعْرِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلُوا فِيَّ مَا خَيْلَ إِلَيْهِمْ .

وأخبرني أشيخنا من أهل خراسان أَنَّ أَبَا الصَّلَاتِ الهُرَوِيَّ كَانَ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ بِمَرُو ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَلْفَهُ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ ، فَطَعَنَ أَبُو الصَّلَاتِ فِيهِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ عَارِفًا بِالنَّضْرِ الشُّمَيْلِيِّ ، وَاثِقًا بِعِلْمِهِ ، ١٢٤ و
مَائِلًا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي الصَّلَاتِ وَقَالَ لَهُ : إِنْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ قَالَ يَوْمًا : إِنْ كَتَبْتُ لَتُعَرَّضُ عَلَى مَنْ يَغْلُظُ فُتْمَهُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَيَجَسُّوْ ذَهْنَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَبْلُغُ أَقْصَى عِلْمِهِ مَا فِيهَا^(٤) — يُعَرَّضُ^(٥) بِإِسْمَاعِيلَ بْنِ صُبَيْحٍ^(٦) — فَيَطْعَنُ فِيهَا وَلَا يَدْرِي مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْهَا . إِلَّا أَنْ نَارَ الْحَسَدِ تُلْهِبُهُ فَيَهْذِي

(١) النواصي : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

(٢) توفي مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، كما في النجوم الزاهرة . ٢ : ١٨٦ .
وكان قد اتصل بذى الرياستين الفضل بن سهل ، فولاه بريد جرجان ، وبها مات .
معجم الرزباني ٣٧٢ .

(٣) في الأصل : « منهما » .

(٤) في الأصل : « أمانها » .

(٥) في الأصل : « فعرض » .

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليحيى بن خالد البرمكي . الجهمشيارى ١٥٠ .
وقلده إبراهيم الحراني ديوان زمام الشام وما يليها . الجهمشيارى ١٦٨ .

هَذَانِ الْمَرِيضُ ، وَهَمْزُ هَمْزَاتِ الْغَيْرَى ^(١) ، ثُمَّ لَا يَرْضَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ
الطَّعْنِ وَيَمِيلَ عَنْهُ حَتَّى يَسْتَقْصِيَ عَلَى نَفْسِهِ إِظْهَارَ جَهْلِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ،
بِاسْتِيعَابِهِ الطَّعْنَ عَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْ دَرَايَتَهُ ، وَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ ، ثُمَّ يُنْسِيهِ جَهْلُهُ
الطَّعْنَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْهُ فِيهَا ، وَيَحْمِلُهُ نَوْكُهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَعَانِيهَا وَأَلْفَافِهَا ،
فِي كِتَابِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ وَأَعْوَانِهِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ فِي أَوَانِ طَعْنِهِ عَلَيْهَا ، وَحِينَ
ثَلَبَهُ لَهَا .

وَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةَ مَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِالتَّجَرُّبَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ . وَإِنِّي رُبَّمَا
أَلَفْتُ الْكِتَابَ الْحَكَمَ الْمُتَقَنِّ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ ، وَالرِّسَائِلِ وَالسِّيَرَةِ ،
وَالْخُطَبِ وَالْخَرَاجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسَبُهُ إِلَى نَفْسِي ،
فَيَتَوَاطَأُ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسَدِ الْمُرَكَّبِ فِيهِمْ ، وَهُمْ
يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ وَنَصَاحَتَهُ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ
مُؤَلَّفًا لِلْمَلِكِ مَعَ الْمَقْدَرَةِ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَالْحِطِّ وَالرَّفْعِ ، [وَالتَّرْغِيبِ ^(٢)]
وَالتَّرْهِيْبِ ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاجَ الْإِبْلِ الْمَغْتَلَمَةِ ، فَإِنْ أَمَكْنَتْهُمْ
حِيلَةٌ فِي إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلْفَ لَهُ فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ
وَأَرَادُوهُ ، وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلَّفُ فِيهِ الْكِتَابُ نَحْرِيراً نِقَاباً ، وَنَقْرِيساً
بَلِيغاً ، وَحَادِقاً فَطَنّاً ، وَأَعْجَزَتْهُمْ الْحِيلَةُ ، سَرَقُوا مَعَانِيَ ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْفَوْا
مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَاباً ، وَأَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتُّوا إِلَيْهِ بِهِ ^(٣) ، وَهُمْ
قَدْ ذَمُّوهُ وَثَلَبُوهُ لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوباً إِلَيْهِ ، وَمَوْسُومًا بِي .

(١) الهمز : العيب . والهماز : العيب . وفي الأصل : « همزان » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمث : التوسل بحزمة أو قرابة .

وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم ١٢٤ ظ
غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل ، وسلم صاحب
بيت الحكمة^(١) ، ويحيى بن خالد ، والعتابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي
الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان
أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ، ويكتبونه
بخطوطهم ، ويصيرونه إمامًا يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون
به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عن
غيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [و] ياتم بهم قوم فيه ؛
لأنه لم يترجم باسمي ، ولم ينسب إلى تأليفي .

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحَصَّفًا كأنه متن حَجَرٍ أَمْلَسَ ،
بمعانٍ لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعن الحاسدين
إن أنا نسبته إلى نفسي ، وأحسد عليه من أهم^(٢) بنسبته إليه لجودة نظامه
وحسن كلامه ، فأظهره مُبَهَّمًا غُفْلًا في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرف
وُضَاعُها ، فينهالون عليه^(٣) انهيار الرَّمْل ، ويستبقون إلى قراءته سباق
الخليل يوم الحلبة إلى غايتها .

وحسدُ الجاهلِ أهونُ شوكةً وأذلُّ حِمْنًا ، من حسدِ العارفِ الفطنِ ؛
لأنَّ الحاسدَ الجاهلَ يبتدر إلى الطَّعن على الكتاب في أوَّل وهلة يُقرأ عليه ، من

(١) ذكره ابن النديم في الفهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب
خزانة الحكمة ، وسعيد بن هارون شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهتم » ، خلافا لما في الأصل .

(٣) في الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقة واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده ^(١) . وليس ثلثه مفسراً مفصلاً ، ولكنه يحمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً ^(٢) وطعناً وإطناباً في الحتم على واضع الكتاب ^(٣) ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به ، وبكته بالجهل ، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنه وبطل .

والحاسد العارف الذي فيه تقيّة ومعه مسكة ، وبه طعم أو حياة ^(٤) ، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجع فكره ، وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرته وجلسائه ، من التثبت والتأني حيلة يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يسترعى به ألبابهم ^(٥) ، وسلماً يرتقى به إلى مراده منهم ، وبسطاً يقرش عليه مصارع الخدع . فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربما استرعى ^(٦) بهذه الخاتل والخدع قلب السيّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب إذا كان العارض

(١) في الأصل : « وحروفه » . وانظر ص ١١ .

(٢) في الأصل : « غرقاً » .

(٣) في الأصل : « وضع الكتاب » .

(٤) الطعم : العقل . وفي الأصل : « طعمة » .

(٥) في الأصل : « يستدعى » .

(٦) في الأصل : « استدعا » .

لها على السيّد الذي منه تُرَجَى أثمانها ، وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصّفة التي وصفتها من الحسد والحقد بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التي تتلم الحسود وتهذه ، وتضع منه ومن كتبه . لاسيّما إن كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جليسا لازما ، وتابعا لا يفارق ، ومحدثا لا يريم ، وليست له رِعة^(١) تحجره عن الباطل ، ولا معه حذر يبعثه على الفكر في العواقب ؛ فإنّ هذا ربّما وافق فترة السيّد بطول تردد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيد خطائه^(٢) ، ونصرتة قوله ، وزياده عنه ، واحتجاجه فيه ، فيؤثر في قلبه ، ويضع رأيه^(٣) . فليس للسيّد الذي يحب أن يصير إليه الأمور على حقائقها ، وتصور له الأشياء على هيئاتها ، حيلة في ذلك إلاّ حسم مادّة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربّما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يعمل بشهوته ، ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يقرّ على نفسه بالخطأ ، ويعترف أن الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسمّ الذهن ، فلمّا فرغ له ذهنه وانفرد له همّه راجع ما كان^(٤) بدرّ منه ، لتظنّ به الرّعة ، ويقال إنّ لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلاّ من عقل وازع ، ودين خالص . وإنّما ذلك حيلة منه ودهاء

(١) الرّعة: التقى والتخرج ، يقال ورع يروع ويورع ورعة وورعا ، وورع يورع ووروعا ووراعة . وفي الأصل : « زعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت في ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضجيع : التوهين .

(٤) في الأصل : « وكان » .

قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب عن غير موافقة على مواضع ، ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند ما تبين له ^(١) خلاف ما قال ، أو ثبوت أسباب عدالته ، وأحكم عرى نصفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعى به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي [لا ^(٢)] يشك فيه .

وكان يقال : من غامض الرياء أن ترى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تتمهل فترة ^(٣) ، ثم تعود لاطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ؛ ليوثق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حسدٍ مارجع عن الطعن الأول .

وقد قيل : ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها يقل ضرره ، ويضعف كيده ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ، فكان عندهم ظنيماً متهماً ، ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ^(٤) ولا اصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حذّاق المغتابين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يتكلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القائل ويدعون الله

(١) في الأصل : « عند التبين له » .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) في الأصل : « ثم تتمهل فترة » .

(٤) في الأصل : « قول » .

بالصَّلاح للمَقُول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودَعَوْا للمَقُول فيه ، وأؤكدوا قول القائل^(١) ؛ لأنَّه لو حلَّ عندهم محلَّ البراءة مما قيل له لُجِبَّه القائلُ ورُدَّع عن قوله .

ومُظهر التَّوَقُّي قليله عند العامَّة كثير . والمتورَّد المتفحِّم لا تكاد العامَّة تقبل منه .

وقد قال بعض العلماء : إنَّ عُبيد الله^(٢) بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحُذِّقهم حيث يقول :

مُسَا تَرَابَ الْأَرْضِ ، مِنْهُ خُلِقْتُمْ وفيها المَعَادُ والمَصِيرُ إِلَى الْحَشْرِ
وَلَا تَعْجَبُوا أَنْ تُؤْتِيَا وَتَعْظُمَا فَمَا حُشِيَ الْإِنْسَانُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ^(٣)
فَلَوْ شِئْتُ أَدْلَى فِيكُمْ غَيْرَ وَاحِدٍ عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ ذَلِكَ فِي سِرٍّ^(٤)
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَا عَنْكُمْ ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلْجَأَ فَيَسْتَشْرِي
وَمِنْ هَذَا سَرَقَ الْعَتَابِيُّ^(٥) الْمَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :

إِنْ كُنْتَ لَا تَحْذَرُ شَتْمِي لِمَا تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ

(١) يُقَالُ وَكَدَهُ تَوَكَّدَ ، وَأَوَكَدَهُ ، وَآكَدَهُ إِكْدَادًا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَبْدُ اللَّهِ » ، صَوَابُهُ مِنَ الْبَيَانِ ١ : ٣٥٦ . وَانْظُرِ الْحَيَوَانَ

١٤ : ١ .

(٣) فِي الْحَجَرِ ٢٩٧ : « لَا تَعْجَبُوا أَنْ تُؤْتِيَا وَتَعْظُمَا » ، وَفِي الْبَيَانِ وَالْحَيَوَانَ :

« وَلَا تَأْتِنَا أَنْ تَرْجِعَا فَتَسْلَمَا » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « أَدْنَى فِيكُمْ » ، صَوَابُهُ مِنَ الْمَرَاجِعِ السَّابِقَةِ .

(٥) هُوَ كَلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو الْعَتَابِيُّ ، مِنْ شُعْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، كَانَ مُنْقَطِعًا إِلَى

الْبَرَامِكَةِ فَوْصَفُوهُ لِلرَّشِيدِ وَوَصَلُوهُ بِهِ ، فَبَلَغَ عِنْدَهُ كُلُّ مَبْلَغٍ . الْأَغَانِي ١٢ : ٢ - ٩

وَتَارِيخُ بَغْدَادَ ١٩٦١ وَمَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١٧ : ٢٦ . عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ نَسَبَتْ فِي الْحَزَانَةِ

٤ : ١٢ إِلَى كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ .

فاخسَ سكوتي سامعاً ضاحكاً فيك لمشنوع من القائلِ
مقالةُ الشَّوءِ إلى أهلها أسرعُ من منحدرِ سائلِ
ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحق وبالباطلِ
وسئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقَبَّ كَفَّيْهِ^(١) وقال :

من الناس من يَخْفَى أبوه وجدُّه وجدُّ أبي ليلى لكالبدر ظاهرُ
فلم تثبت عليه به حجةٌ في ذمِّ له ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعوه وطباً ، فإن كان محضاً أو مشوباً
أظهره الوطبُ وماخضوه^(٢) .

فإن قَدَحَ - جعلني الله فداك - بالحسدِ قَدَحٌ فيما أولفه من كتابي لك ،
وسبقَ إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتني النُّكْتَةَ التي قَدَحَ فيها ، ثم قابِلُهُ
بجوابي ، فإني أرجو ألاَّ تحتاج إلى حاكمٍ عند تجاؤي القولين بين يديك ،
لعلَّ الحقَّ على الباطل ، ودموغه إيَّاه .

ظ ١٣٠

والحسدُ أذلُّ نفساً من أن يُجائى أحداً ، والعداوةُ إنَّما قدَّمت عليه لأنها
عزيزةٌ منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلَّا في العين وعلى اللسان المقصور عند أهله
المؤتلفين على . . .^(٣) والعداوة تبدو وتَنَجِّمُ قُرُونَهَا وينبسط لسانها عند
الموافقين له والمخالفين عليه .

(١) في الأصل : « كفَّه » .

(٢) يعني من يخضون الوطب .

(٣) يياض في الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبه فقال : ذاك امرؤ سيطاً بالحسد وجبيل عايله ، فليس له أخٌ في السرِّ ولا عدوٌّ في العلانية^(١) .

وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حُسَّادٌ ، إخوانُ العلانية ، وأعداءُ السَّريّة ، يعطونك الكلّ^(٢) ويمنعونك القلّ .

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسُّ وأغبنُ من العداوة ، أنّ المِللَ كلّها ذمُّته وعاقبه . ولا نعلم أنّ شاذّاً من الشواذِّ ، وشارداً من الشرّاد ، فضلاً عن جبيل من الأجيال ، أمرٌ بالحسد ؛ كما قيل : « عادٍ من عاداك ، وقارعٌ بالعداوة أهلها » . ثمّ عظم شأنُ العداوة عندهم ، وجلّ قدرها لديهم ، حتّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشعبيّ لبشر بن مروان : لو وجّهتَ إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزُّبير - وكان شتمه - من يأتيك به سحياً وجراً ! فقال بشر : إنّي مستعملٌ في عدوِّى قولَ القائل :

وعادٍ إذا عاديتَ بالحزم والنهى تنلُ ظفراً ممن تُريد وتغلبُ

فكان بهذا من يرى المعاداة بالحزم ، ويغتالها بالعقل والتأنى .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما ستر بالمداراة ، وأشقاها للأَنْفُسِ ما قُرِعَ بمثلها بادياً . وكان ينشد :

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ والحيوان ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار

٣ : ٧٣ .

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٤٨ ، ٢٩٨ .

لا أَتَقَى حَسَكَ الضَّغَائِنِ بِالرُّقَى فِعَلَ الذَّلِيلِ وَلَوْ بَقِيَتْ وَحِيداً^(١)
 لَكِنْ أُعِدْتُ لَهَا ضَغَائِنَ مِثْلِهَا حَتَّى أَدَاوَى بِالْحَقُودِ حُقُوداً
 كَأَنَّهُمْ خَيْرُ دَوَائِهَا مِنْهَا بِهَا تَشْفَى السَّقِيمَ وَتُبْرِئُ الْمُنْجُوداً^(٢)
 فَانْتَهَى قَوْلُهُ إِلَى ابْنِ شَبْرَمَةَ فَقَالَ : « اللَّهُ دَرْعُ عُرْوَةٍ ، هَذِهِ أَنْفُسُ
 الْعَرَبِ ! » .

فَهَؤُلَاءِ رَأَوْا كَشْفَ الْمَعَادَاةِ وَلَمْ يَرَوْا التَّائِيَّ .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْمَعَادَاةَ بَعْدَ الْفِرَارِ مِنْهَا وَالْإِعْذَارَ فِيهَا ، فَإِنْ هِيَ أَبَتْ
 إِلَّا الْمَقَارَنَةَ قَارَنُوهَا بِمِثْلِهَا .

قَالَ شَيْبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : إِذَا رَأَيْتَ الشَّرَّ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكَ فَتَطَامَنُ لَهُ حَتَّى
 يَتَخَطَّأَكَ ، وَلَا تَهْجُهُ وَلَا تَبْحَثُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَبْرُكَ عَلَيْكَ فَكُنْ
 مِنَ الْأَرْضِ نَاراً سَاطِعَةً تَتَلَطَّى^(٣) . وَأَنْشَدَ :

إِذَا عَادَاكَ مُحْتَمِلُكَ لَيْبُ فِعَادِ النَّوْمِ وَاحْتَرَسِ الْبَيَّاتَا
 وَلَا تُثِرِ الرَّبْوَضَ وَخَلَّ عَنْهَا وَإِنْ ثَارَتْ فَكُنْ شَبَحًا مَوَاتَا

(١) الحسك : جمع حسكة ، وهي الشوكة .

(٢) المنجود : المكروب . ونحوه قول أبي نواس :

دَعِ عَنْكَ لَوْمَى فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءٌ وَدَاوَنِي بِأَلْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
 وَأَصْلُ الْمَعْنَى لِلْأَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :

وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

انظر سرقات أبي نواس لمهلل بن يمحوت ص ٧٠ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « سَاطِعًا سَلَقَى » .

تَجْزُكَ إِلَى سِوَاكَ وَنَحَّ عَنْهَا نَجِيرَ الشَّرِّ أَسْرَعَهُ فَوَاتَا^(١)
وإن مالت عليك وخفتَ منها فواجهها مجاهرةً صِلَاتَا^(٢)

ومنهـم من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله
ابن [عتبة بن] مسعود : إن الملاماتِ والمذماتِ كلُّها قبيحة ، وأقبح الملامة
والمذمة ما كانتا في ترك نصفه أو شدة منافسة في تعداد الذنوب . وأنشد :

منافسةُ العدوِّ أو الصديقِ تَجْرُ إلى المذمة والملامه

إذا أعطاك نصفًا ذو وِدَادٍ وبعضَ النِّصفِ فاتهز السَّلامه^(٣)

ومنهـم من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل إنصافه

ونافسه في ذلك^(٤) . قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النِّصف منهم ولو أنصفوا حتى تَعْقَ وتَظَلَّما

ومنهـم من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه . قال : حدثني

إبراهيم بن شعبة الخزومي قال : سمعت من حكى لي عن مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ

قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمتُ عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من

الدهر لم يسلم منك . وأنشد :

إذا بركَ الزَّمانُ على عدوِّ بنكبتَه أعنتَ له الزَّمانا

(١) في الأصل : « ونح عنها » .

(٢) مصدر صالت ، والفعل ومصدره لم يرد في المعاجم المتداولة . ومادة (صلت)

تدل على الظهور والسرعة .

(٣) النصف ، بالكسر : الانصاف .

(٤) في الأصل : « من ذلك » .

قال العتابي : قالت لطوق بن مالك^(١) : إنَّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السَّلب ، فإذا حلت الأيام على عدوك ثِقَلًا وأمكنك منه فزده ثِقَلًا إلى ثقاه . قال : فقال لي طَوَّق : من لم ينتهز من عدوه انتَهَرَ منه ، وحالت الأيام التي كانت بيضًا عليه سودًا . وأنشد :

لله درُّك ما ظننت بشائرٍ حرَّانَ ليس على التُّرابِ براقِدٍ
أحقدته ثم اضطجعت ولم ينم أسفًا عليك وكيف نومُ الحاقِدِ
إن تُمكن الأيامُ منك ، وعَلَّها ، يومًا نُوفِّك بالصُّواعِ الزائد^(٢)
ولئن سلمت لأتركَنَّكَ عارضا بعدى لكل مُسلمٍ ومعانِدِ
ومَنهم من كان يرى جبرَ كسرِ العدوِّ وإقالةَ عثرته ، ونُصرتَه عند
وثوب الدهر عليه .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شبرمة^(٣) : كانت الحرب يوم

(١) في الأصل : « لملك بن طوق » وفي هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتي بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما في جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتابي في الأغاني ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان واليًا على الأهواز ، وكان شاعرًا . الأغاني ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رجة مالك بن طوق ، أنشأها في عصر الرشيد ، وهو القائل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا

يلاحظني من حيثما أتلفت

(٢) وعَلَّها ، أى ولعلها . في الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكيال ،

وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبي ، أبو شبرمة الكوفي القاضي ، ولاه أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة في الحديث ، شاعرًا حسن الخلق جوادا . ولد سنة ٧٢ وتوفي سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صَفَيْنَ بين العرب مَحْضَةً لا شوبَ فيها ، فكانت محاربتهم كِدَامًا واعتناقًا ،
وكانوا إذا مرُّوا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومُه فانصروه ،
وألقاه دهره بمضيعة فردُّوه إلى أهله .

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أنَّ المصِيباتِ تنزَعُ السجِّياتِ .

قال : وأنشدني بعضُ أهل العلم في هذا المعنى :

فلَوْ بِي بدَأْتُم قبل من قد دعوتُم لفرَجْتُها وحدي ولو بلغتْ جَهْدِي
إذا المرءُ ذو القربى وذو الحقد أجحفتُ به سَنَةٌ سَلَّتْ معيْبَتُهُ حَقْدِي^(١)
ومَنهم من رأى الإفضال على عدوِّه وترك مجازاته . وهذا كثير لا يُحتاج
فيه إلى استقصاء شواهد .

قال غِيْلان بن خَرَشَةَ الضَّبِّي^(٢) — وقال بعضهم : بل الأحنف
ابن قيس^(٣) — لا تزال العرب بخيرٍ ما لبست العائم وتقلدت السيوفَ
وركبت الخيل ، ولم تأخذها حمية الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال :

(١) نسب هذا البيت في عيون الأخبار ٣ : ١٠٧ إلى أبي الأسود الدؤلي .
وليس في ديوانه المنشور في نفائس المخطوطات . والسنة : الجذب والقحط .

(٢) غيلان بن خرشة ، كان سيد بني ضبة بالبصرة ، وكان من البلغاء . الاشتقاق
١٩٤ وجمهرة ابن حزم ٢٠٤ . وكان غيلان أحد أصحاب أبي موسى الأشعري ،
ثم انتقض عليه وكان سبياً في أن يعزل عثمان أبا موسى الأشعري ويولى مكانه عبد الله
ابن عامر . الجهشياري ١٤٧ .

(٣) الذي في البيان ٢ : ٨٨ و ٣ : ٩٨ أن القول للأحنف . والنص فيه :
« وقال غيلان بن خرشة للأحنف ، يا أبا بحر ، ما بقاء ما فيه العرب ؟ قال :
إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العائم ... » . فالقول والجواب إنما هو للأحنف .

أَنْ يَرَوْا الْحِلْمَ ذُلًّا ، وَالتَّوَاهُبَ ضِيًّا^(١) .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان فقد عاداك ونصب لك ؟ فقال :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وأنشدني بعض العلماء بيتين وقال : إن الزبيرى^(٢) كان كثيراً ما يمثل
بهما : أ

وَإِنِّي لِأَعْدَائِي عَلَى الْمَقْتِ وَالْقَلَى بَنَى الْعَمَّ مِنْهُمْ كَاشِحَ وَحْسُودُ
أَذُبُّ وَأَرْمِي بِالْخَصِي مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَبْدَأُ بِالْحُسْنَى لَهُمْ وَأَعُودُ
وكان عبد الملك بن مروان إذا أنشد :

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّي كَاشِحًا لِمُراجِمٍ مِنْ دُونِهِ وَوَرَائِهِ^(٣)
وَمُعِيرُهُ نَصْرِي وَإِنْ كَانَ أَمْرًا مَتَزَحِّحًا فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ^(٤)
وَإِنْ اكْتَسَى ثَوْبًا نَفِيسًا لَمْ أَقُلْ يَا لَيْتَ أَنَّ عَلِيَّ حَسَنَ رَدَائِهِ^(٥)

(١) في حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه الروعة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد » .

(٢) هو عبد الله بن صعب ، كما في تاريخ الطبري ١٠ : ١١٢ . وكان عاملاً
لارشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لهنديل بن مشجعة البولاني ، كما في الحماسة ١٨٦٠ بشرح المرزوقي .
والكاشح : المضمهر العداوة . وفي الحماسة : « غائباً لمقاذف من خلفه » .

(٤) في الحماسة : « ومفيدة نصرى » .

(٥) في الأصل : « ثوباً نسيماً » ، تحريف . وفي الحماسة : « ثوباً جميلاً » .

وَإِذَا تَخَرَّقَ فِي غِنَاهُ وَفَرَّتْهُ وَإِذَا تَصَعَّلَكَ كُنْتَ مِنْ قَرْنَانِهِ^(١)

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة .

ومنهم من أمرَ بالسَّفَه في العداوة واستعمالِ الخرق فيها .

حدثني نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال : جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه . فأنشده :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَانَعُودٌ خِيلَنَا

إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحْيِيْدَ وَتَنْفِرَا^(٢)

وَتَنْكَرَ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خِيلَنَا

مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى تَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا

١٢٨

وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا

صِحَاحًا وَلَا مُسْتَنْكَرًا أَنْ تَعْقُرَا

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَأُونَا

وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

(١) التخرق : التوسع في الإنفاق . ويقال وفره ماله : جعله وافرا لم ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدي في جمهرة أشعار العرب ١٤٥ - ١٤٨ . وهي أولى الشوبات . ورويت أيضاً في الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ : ٥١٣ - ٥١٤ واللائي ١٤٧ ، ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنة إن شاء الله » .

ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلِيمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدرًا
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذرُ تحمى صفوه أن يكدرًا^(١)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضَّ الله فاك ! » . قال : فأتت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سنٌّ انْفَرَّتْ أخرى مكانها ؛ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما روى في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلي^(٢) :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ نَحْنُ حَيًّا كَالَّذِي كَانُوا^(٣)
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ وَأَمْسَى وَهُوَ عُريَانُ

(١) البادرة : الكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب ، كما في اللسان (بدر) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو الفند الزماني ، واسمه شهل بن شيان . شاعر جاهلي قديم ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزائن ٢ : ٥٨ - ٥٩ والأغاني ٢٠ : ١٤٣ - ١٤٤ والآلئ ٥٧٩ . والقصيدة هي ثاني مقطوعة في حماسة أبي تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم . وفي الحماسة : « قوما » .

مَشِينَا مِشِيَةَ اللَّيْثِ بَدَا وَاللَّيْثُ غَضَبَانُ^(١)

بَضْرِبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَضْجِيعٌ وَإِذْعَانُ^(٢)

وَطَعْنٍ كَفَمِ الزُّقِّ وَهِيَ وَالزُّقُّ مَلَّانُ^(٣)

وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيْثُ لَا يُنَجِّيكَ إِحْسَانُ

حدثنا أبو مسهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كُنَّا مَعَ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ^(٤) فِي غَزَاةٍ ، فَكَانَ مَنَا رَجُلٌ يَمْتَارُ لَنَا الْمِيرَةَ وَيَقُومُ بِحَوَائِجِنَا ، فَإِذَا أَقْبَلَ قُلْنَا : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا . فَغَضِبَ لِدَعَائِنَا ، فَشَكُونَا ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَرْزَةَ ، فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ : كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَصَاحِبْ الْخَيْرَ أَصْلَحَهُ الشَّرُّ ، فَاقْبَلُوا لَهُ . فَكُنَّا نَقُولُ لَهُ إِذَا أَتَانَا بِالْحَوَائِجِ : جَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا وَعَرًّا^(٥) ، فَيَضْحَكُ لذلك .

وَأُنْشَدَنِي رَجُلٌ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

و ١٢٩

أَرَى الْحِلْمَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ذَلَّةٌ وَفِي بَعْضِهَا عِزٌّ يُشْرَفُ فَاعِلُهُ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ بِحِلْمِكَ جَاهِلًا سَفِيهًا وَلَمْ تَقْرِنْ بِهِ مَنْ يُجَاهِلُهُ

لَبَسْتَ لَهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ صَاغِرًا فَأَصْبَحَ قَدْ أَوْدَى بِحَقِّكَ بَاطِلُهُ

(١) فِي الْحِمَاةِ : « غَدَا » .

(٢) فِي الْحِمَاةِ : « وَتَضْجِيعٌ » ، وَهُوَ اخْتِلَاطُ الصَّوْتِ .

(٣) فِي الْحِمَاةِ : « غَدَا » بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ ، أَيْ سَالٍ .

(٤) صَحَابِي جَلِيلٌ ، وَهُوَ نَضْلَةُ بْنُ عُبَيْدِ الْأَسْلَمِيِّ ، مَشْهُورٌ بِكُنْيَتِهِ ، نَزَلَ الْبَصْرَةَ وَشَهِدَ مَعَ عَلِيِّ قِتَالِ الْخَوَارِجِ بِالنَّهْرَوَانِ ، وَأَتَى خُرَاسَانَ فَتَزَلَّ مَرُوءًا ، وَمَاتَ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٦٠ . الْإِصَابَةُ ٨٧١٠ وَالْإِسْتِيعَابُ ٢٨٧٢ وَالْإِسْتِغْنَاءُ ١٠٦ .

(٥) الْعَرُّ : الشَّرُّ وَالشَّيْنُ ، وَأَصْلُ مَعْنَاهُ الْجَرْبُ .

فأبقِ على جَهَّال قومك إنه لكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهله^(١)
وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصُوا بالغَوَاءِ خيراً ،
فإنهم يطفئون الحريق ، ويسُدُّون البشوق^(٢) » .

وقال أبو سلمى^(٣) فى الجاهلية :

لا بدَّ للشُّودِّدِ من رِمَاح^(٤) ومن عَدِيدٍ يُتَّقَى بِالرَّاحِ^(٥)
* ومن كلابِ جَمَةِ الثُّبَاحِ *

وقال مسلم بن الوليد^(٦) :

حَافَتْ لئن لم تَلَقَّنِي سَفَهَاؤُهَا خُرَاعَةُ وَالْحَيَّانِ عَوْفٌ وَأَسْلَمُ
لَأَرْتَجِعَنَّ الْوَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بِقَافِيَةٍ تَفْرِى الْعُرُوقَ فَتَحْسِمُ
من اللاءِ لا يرجعن إلَّا شِوَارِدًا لهنَّ بأفواه الرجال تَهْمُهُمْ
أصابوا حايماً فاستعدُّوا بجاهل إذا الحلم لم يمنعك فالجهلُ أحزمُ
ولم نستقصِ الأبوابَ كُلَّهَا بالمعارضة^(٧) فى هذا الكتاب ، ولو استقصينا

(١) أى لكل حليم موطن يجب أن يجهل فيه وينزع عن حلمه .

(٢) البشوق : جمع بشق ، وهو منبعث الماء بخرقه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ : ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماح » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا ملحقاته ، وفى الديوان ١٧٧ - ١٨٣ قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عَرَضَ فيه ما دلَّ على معناه الذي إليه قَصِدَ .

ولم نر الحسد أَمَرًا به أحدٌ من العرب والعجم في حالٍ من الأحوال ، ولا نَدَبَ إليه وثَبَّه عليه . وقد نَبَّه على العداوة وفُصِّل بين أحوالها بما قد يَبَيِّنُهُ ، فظهر فضلها على الحسد بذلك .

وكنت امرأً قليل الحَسَادِ حَتَّى اعْتَصَمْتُ بِعُرْوَتِكَ ، واستمسكتُ بِجَبَلِكَ واستذريت في ظِلِّكَ ^(١) ، فتراكمَ على الحَسَادِ وازدحموا ، ورموني بسهامهم من كل أوبٍ وأفق ، وتتابعوا على تنابيع الدَّبْرِ ^(٢) على مُشْتَارِ الْعَسَلِ . ولئن كثروا لقد كثُرَ بهبوب ريحك إخواني ، وبنَضْرَةِ أَيْامِكَ وزهرة دولتك ٩ خُلَانِي . وأنا كما قلت :

فَا كَثُرَ حُسَّادِي وَأَكْثَرَتْ خُلَّتِي

وَكُنْتُ وَحُسَّادِي قَلِيلٌ وَخُلَانِي

فلَمَّا بلغت هذا الفصلَ من تأليف هذا الكتاب دخلَ على عشرة نفرٍ من من الكُتَّابِ قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميلُ نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائذك ، فأفاضوا في حديثٍ من أحاديث الحسد ، فشعبَ لهم ذلك الحديثُ شعوباً

(١) استذرى بالشجرة : استظل بها وصار في دِفْعِهَا . واستذرى بفلان : التجأ إليه . وفي الأصل : « واستذرات » .

(٢) تنابع على الشيء : تهافت فيه وأسرع وتساقط . وفي الحديث : « ما يحملك على أن تنابعوا في الكذب ، كما يتتابع الفراش في النار » . وفي الأصل : « تابعوا على تنابع » ، صوابه بالياء والدبر : جماعة النحل .

افتشوا فيها - والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتتني رقعة أناسية^(١) من الحساد فيها سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف ، للظعن على ما ألفت^(٢) من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرى على ، فدفعت رُقتهم إلى من قرُب إلىّ منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتلهم الله ! أبظلم يرومون النّيل ويلتمسون الشركة في المعروف ! كنزع الرّوح بالكلاليب أهون من بذل معروف بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خلية لك مثل جندلة المراجم^(٣)
قد رامني الأعـداه قبـلك فامتنعتُ من المظالم
ودفعها إلى من قرُب منه فقرأها . وقال الثاني : « صكّة جلمود ، لكل مُرعدٍ حسود ، يَستطر العُرف بالتهديد . خلّ الوعيد ، يذهب في اليد » .
وأنشأ يقول :

أبرق وأرعـد يا يزيـدُ فما وعيدُك لي بضائر^(٤)
ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلما ، وخوفوا هـضما ، لقوا حرباً ولقيت سـلما » . وأنشأ يقول :

(١) أناسية : جمع إنسي أو أناس . وفي اللسان (أنس) : « وبين جواز أناسي بالتخفيف - يعني تخفيف الياء - قول العرب : أناسية كثيرة . والواحد إنسي وأناس إن شئت » .

(٢) في الأصل : « ألف » .

(٣) الشعر لمعاوية ، في أمالي القالي ٢ : ٣١١ . وفي الأصل : « أما الحوادث »

و « المزاحم » ، صوابهما في الأمالي وشرح القصائد السبع لابن الأنباري ٣٢٩ .

(٤) البيت للكميت ، كما في اللسان (برق ، رعد) ومجالس العلماء ١٤١

وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربعاً أبشِرْ بطول سلامة يا مِربع^(١)
ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الدليل وبوله سيَّان » .
وأنشأ يقول :

ماضراً تغلبَ وائلُ أهجوتَها أم بُلّتَ حيثُ تناطحَ البحرين^(٢) ١٣٠ و
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبَّارُ
جُبَّار^(٣) » . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبَّ بالحزن تيسُ أم لَحَّاني بظهير غيبٍ لثيم^(٤)
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِقْتَكَ الأُمجاد ، فليهنُ عليك
الحُسَاد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوانَ من اللُثامِ
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الصُرعة ، من هو في ذى
المنعة » . وأنشأ يقول :

(١) البيت لجريز في ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعراء ٤٦٦ .
ومربع ، هو مربع بن وعوعة بن سعيد ، كما في جمهرة أنساب العرب . ومربع هذا هو
راوية جريز ، وكان الفرزدق قد حلف ليقبلته .

(٢) للفرزدق في ديوانه ٨٨٢ والبيات ٣ : ٢٤٨ والخزاة ٢ : ٥٠١ ،
وهو من قصيدة يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، مادحا في ذلك بني تغلب ،
ويهجو فيها جريزا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحرين : تقابلا . وانظر
الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع غير بالفتح ، وهو الحمار الوحشى . والجبار : الهدر . وكذا
وردت الكلمة مكررة .

كم تنبحون وما يفنى نباحكم

ما يملك الكلبُ غير النبح من ضررٍ

ودفعها إلى العاشر^(١) فقرأها وقال : « نوكى هلكى ، لم يعرفوا خبرك ، ولا دروا أمرك » . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيّدنا لذّوا

وعندى صديقٍ لى من الشوقِ له أدبٌ ، فقال لى بعقب فراغهم مُسرّاً :
إن هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحساد ، وضربوا الأمثال
فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنّك فى منعة من عزّ أبى الحسن أطال الله بقاءه ،
ومعقل لا يُسامى ولا يُنال . وأنا أقول بالشفقة^(٢) :

توقّ قومًا من الحساد قد قصّدوا لحطّ قدرك فى سرٍّ وفى علنٍ

فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحساد :

إنّ ابن يحيى عبيد الله آمننى

من الحوادث بعد الخوف من زمنى^(٣)

فلستُ أحذر حسّادى وإن كثروا

مادمت مُمسِك حَبْلٍ من أبى الحسن

فلما رأى صديقى اقتفائى آثار الكتاب ، باستهانتي للحساد عند اعتلاقى

(١) كذا فى الأصل بدون أن يذكر قبله ما قال الثامن والتاسع ، فقد يكون
إغفالا من الجاحظ لهما ، وقد يكون سقطا من النسخة .

(٢) فى الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يعنى عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد . انظر مروج

الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبيه والإشراف ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٨ ،

١٦٢ والفخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .

٣٠. حباثلك أعزك الله ، أنشأ متمثلاً بقول نصر بن سيار^(١) :

إني نشأت وحُسّادى ذوو عددٍ إذا المعارج لا تنقص لهم أحداً^(٢)
 إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم فمثل حُسن بلائى جرّ لى الحسدا
 وليس العجب أن يكثرُوا وأنا أتقى بحاسنك ، وأهتِف بشرك ،
 ولكن العجب كيف لا تتفتت أكبادهم كدا .

وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حُسّادَ ولدى ؛ فإنهم لا يكثرُونَ
 إلا بكثرة النعمة .

فإن كان والدى سبق منه هذا الدُعَاء ، فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى
 زمان عزك ؛ فقد رأينا تباشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايَتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدى محسودين ، ولا تجعلهم
 مرحومين ؛ فإن يومَ المحسود يومٌ عِزَّة ، ويومَ الحاسد يومٌ ذلَّة .

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠
 ولاء هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل
 أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انقبه إلى استفحال الدعوة
 العباسية فكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى عجز
 وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومن ، واستمر في كفاحه
 إلى أن لحقه المرض في هفازة بين الرى وهمدان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفي
 الأصل : « يقول بشعر »

(٢) فى الكتاب العزيز : « من الله ذى المعارج » قال قتادة : ذى المعارج :
 ذى الفواضل والنعم ، وقيل معارج الملائكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها
 وتخرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ، لأن الملائكة تخرج إلى الله
 فوصف نفسه بذلك .

ويقال : إنه لقامات الحجاج سمعوا جارية^(١) خلف جنازته وهي تقول :
 اليوم يرحمنا من كان يحسدنا واليوم تنبع من كانوا لنا تبعاً
 ويقال : إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنة النعمان^(٢) : أخبريني بحالكم .
 قالت : إن شئت أجهلت وإن شئت فسرت . فقال لها : أجهلي . فقالت :
 « بتنا نحسد ، وأصبحنا نرحم^(٣) » . فخطبها زياد وكانت في دير لها فكشفت
 عن رأسها ، فإذا رأسٌ مخلوق ، فقالت : رأسُ عروس كما ترى يا زياد ؟
 وأعطاهَا دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يدٌ افتقرت بعد غنى ، ولا جزتك
 يدٌ استغنت بعد فقر !

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم : « لا حسدَ إلا في اثنتين^(٤) : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

(١) في البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من داره وهي تقول » .

(٢) حرقه هذه بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى
 ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمم بن نمارة بن لحم . المؤلف ١٠٣ .
 ولها مقطوعة في الحماسة ١٢٠٣ بشرح المرزوقي رويت أيضاً في المؤلف . وبعض
 أخبارها في البيان ٢ : ٨٩ / ٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقه بضم الحاء للمهمل
 وفتح الراء ، كما في اللسان والقاموس . قال في اللسان : « وحريق ابن النعمان
 ابن المنذر . وحرقه بفته » ، ومثله في شرح الحماسة للتبريزي لكنه جعل أخاها
 « حرق » كزفر . وفيهما يقول الشاعر :

نقسم بالله نسلم الحلقة ولا مُحريقاً وأخته الحرقه

(٣) أى كنا في نعمة محسودين بالأمس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن
 في موضع الرثاء .

(٤) في الأصل : « اثنين » ، صوابه في صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ :

٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ - ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١
 ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .



١٠

رِسَالَةٌ

فِي صِنَاعَاتِ الْقَوَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها في نسخة الأصل :
« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، في ذم القواد » .
وفي مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً
« طبائع القواد » .

وجاء في جمع الجواهر للحصري ١١٦ : « وللجاحظ في هذا النوع رسالة
كتب بها إلى المعتصم ، وقيل إلى المتوكل ، في الحظ على تعليم أولاده ضروب
العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصري طرفاً من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة في النص .
وجاء عنوانها في طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بكلمها .
وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً في نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين
بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتمتاز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة
التي كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك ١٣٣ ظ
جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عزّ الأدب كما تعرف زوائد الغنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين
المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال : أداة يظهر
بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق
يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تُدرِك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ،
وواعظ يُعرف به القبيح ، ومُعزٌّ يُرَدُّ به الأحران (٢) ، وخاصةٌ يُرْهَى
بالصنِعة (٣) ، ومُلْهٌ يُوْنِقُ الأسماع .

وقال الحسن البصري : إنّ الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من
الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شيء للرجل عقلٌ يُؤلِّد معه ، فإن فاتته ذلك

(١) قبله في الأصل : « هذه رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، منسوبة
في نسخة إلى ذم القواد ، وفي أخرى إلى كتاب صناعات القواد ، وفي أخرى إلى
كتاب طبائع القواد » .

(٢) في المطبوعة من الطراز : « ومُردّ تُرد به الأحران » ، تحريف .

(٣) في الأصل : « يذهب بالصنِعة » ، وأثبت ما في النسخة المطبوعة من الطراز .

فَمَالٌ يُعْظَمُ بِهِ ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَعَلِمَ يَعِيشُ بِهِ ^(١) ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَمُوتٌ
يُحْتَثُّ أَصْلَهُ .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة .
أو بهيمة مرسلة ، أو صورة ممثلة ^(٢) .

وذكر الصمت والنطق عند الأحنف فقال رجل : الصمت أفضل
وأحمد . فقال : صاحب الصمت لا يتعداه نفعه ، وصاحب المنطق ينتفع به
غيره . والمنطق الصواب أفضل ^(٣) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأً أصلح
من لسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً يتكلم فأبلغ في
حاجته ، فقال عمر : هذا والله السحر الحلال .

وقال مسامة بن عبد الملك : إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له
بها ، فإذا لحن انصرف نفسي عنها .

و ١٣٣

وتقدم رجلٌ إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إنَّ أئينا هلك ، وإن
أخونا غصبنا ميراثه . فقال زياد : الذي ضيعت من لسانك أكثر مما ضيعت
من مالك ^(٤) .

البيان في الأصل والطرار : صوابه من مطبوعة الطراز .

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) في الأصل والطرار : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر في البيان ٢ : ٢٢٢ و عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء ، لأولاده : يا بني أصلحوا من أنفسكم ، فإنَّ
الرجل لتمنُّوبه النائية فيستعير الدابة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللسان .
وقال شبيب بن شيبه ورأى رجلاً يتكلم فأساء القول ، فقال :
يا ابن أخي ، الأدبُ الصالح خيرٌ من المالِ المضاعف .
وقال الشاعر^(١) :

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتهُ أو نقصه في التكلم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤادهُ فلم يبقَ إلَّا صورةُ اللحم والدم
نخذُ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلِّ الأدب ؛ فإنَّك إن
أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .
وذلك أنى لقيت حزاماً^(٢) حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الروم ،
فسألته عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم في مقدار مَخْنِ الإصطبل ، فما كان بقدر ما يحسُّ^(٣) الرجلُ دابَّته
حتى تركناهم في أضيق من تمرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابيب سرجين^(٤) ،

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، كما في المعلقات برواية الزوزنى ، وليس في رواية
ابن الأنباري أو التبريزي أو ديوانه بشرح ثعلب وبشرح الشنتمري .

(٢) في الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما في الطراز وجمع الجواهر . وفي جمع
الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سأله عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حس الدابة يحسها حساً : نفص عنها التراب ، وذلك إذا فرجها بالمحسة .
وفي مطبوعة الطراز فقط : « يحس » بالشين .

(٤) الأنابيب : الأكداس ، جمع أنبار ، وهذه جمع نبر بالكسر .

فلو طُرحتُ رَوْثَةُ ماسَقَطَتْ إِلَّا عَلَى ذَنْبِ دَابَّةٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

إِنْ يَهْدِمِ الصَّدُّ مِنْ جَسْمِي مَعَالِفَهُ

فإن قلبي بَقَّتْ الْوَجْدُ مَعْمُورٌ^(١)

إِنِّي امْرُؤٌ فِي وَثَاقِ الْحُبِّ يَكْبَحُهُ

لِجَامٍ هَجَرَ عَلَى الْأَسْقَامِ مَعْدُورٌ^(٢)

عَلَّنْ بِجُلِّي نَبِيلٍ مِنْ وَصَالِكَ أَوْ

حُسْنِ الرِّقَادِ فَإِنَّ النَّوْمَ مَأْسُورٌ^(٣)

أَصَابَ حَبْلَ شِكَاكِ الْوَصْلِ حِينَ بَدَا

وَمِبْضَعِ الصَّدِّ فِي كَفْيِهِ مَشْهُورٌ^(٤)

لَبَسْتُ بَرْقَعَ هَجَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي

إِصْطِطِلِ وَدِّ فَرَوْتِ الْحُبَّ مَنثورٌ^(٥)

(١) القت : الفصفصة ، وهي من علف الدواب .

(٢) عذر الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذي يكون عليه اللجام .
وفي جمع الجواهر : « ويح امرئ في وثاق الحب » .

(٣) في جمع الجواهر : « أنل خليلك نيلا من وصالك » ، والمأسور : المشدود بالإسار ، وهو الحبل .

(٤) الشكال ، ككتاب : ما تشد به قوائم الدابة . وفي جمع الجواهر : « أمنت
قتل شكالي حين ودعني ومبضع الحب » .

(٥) في الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيشُوعَ [الطبيب ^(١)] عن مثل ذلك فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ الْبِيَارِستان ، فَمَا كَانَ بِقَدَرِ مَا يَخْتَلِفُ الرَّجُلُ ١٣٣ :
مَقْعِدِينَ ^(٢) حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ مُحَقَّنَةٍ ، فَقَتَلْنَاهُمْ فَلَوْ طَرَحْتَ مِْبْضَعًا
مَا سَقَطَ إِلَّا عَلَى أَكْحَلِ رَجُلٍ ^(٣) .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبَ الْوَصْلُ دَسْتَجَ الْهَجَرِ فَاسْتَقَطَ لَأَقَ بَطْنُ الْوِصَالِ بِالْإِسْهَالِ ^(٤)
وَرَمَانِي حَيٍّ بِقَوْلَنْجِ بَيْنٍ مُذْهَلٍ عَنْ مَلَامَةِ الْعُذَّالِ ^(٥)
فَفَوَادِ الْحَبِيبِ يَنْجَلِهُ السُّـ لُ وَقَلْبِي مَعَذَّبٌ بِالْمَلَالِ ^(٦)
وَفَوَادِي مُبْرَسَمٍ ذُو سَقَامٍ يَا بَنَ مَاسُوءَ ضَلَّ عَنِّي احْتِيَالِي ^(٧)
لَوْ يَبْقَرَاطُ كَانَ مَا بِي وَجَالِي نُوسَ بَاتَا مِنْهُ بَأَ كَسْفٍ بِالِ

(١) التكملة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يضاهاى المتوكل في اللباس والفرش ، وكان عظيم المنزلة عنده ، ثم إنه أفرط في إدلاله عليه فكتبه . وكان موته سنة ٢٥٦ .

طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ - ١٤٤ والقفطى ٧٢ - ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى المتوضأ إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكل : عرق في اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) الدسج ويقال الدسجيج : آنية تحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا في الأصل وإحدى مخطوطي الطراز . يريد « ماسويه » . وفي سائر

نسخ الطراز : « باين السوء » . وفي جمع الجواهر : « يا بن ماسويه » ولا يستقيم به الوزن . وابن ماسويه هو أبو زكريا يحيى أو يوحنا ، خدام المأمون والمعتصم

والواثق والمتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ - ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفرًا الخياطَ عن مثل ذلك فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سُوقِ الْخُلُقَانِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَخِيطُ الرَّجُلُ دَرَزًا^(١)
حَتَّى قَتَلْنَاهُمْ وَتَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ جَرَبَانَ^(٢) ، فَلَوْ طَرَحْتُ إِبْرَةً مَا سَقَطَتْ
إِلَّا عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ .

وعمل أبياتًا في الغزل فكانت :

فَتَقَّتْ بِالْهَجْرِ دُرُوزَ الْهَوَى إِذْ وَخَزْتَنِي إِبْرَةُ الصَّدِّ
فَالْقَلْبُ مِنْ ضَيْقٍ سَرَاوِيلِهِ يَعْتُرُ فِي بَايَكَةِ الْجَهْدِ^(٣)
جَسْمَتَنِي يَا طَيْلِسَانَ النَّوَى مِنْكَ عَلَى شَوْزَكْتِي وَجَدَى^(٤)
أَزْرَارٍ عَيْنِي فِيكَ مَوْصُولَةٍ بِعُرْوَةِ الدَّمْعِ عَلَى خَدَيَّ
يَا كَسْتَبَانَ الْقَلْبِ يَا زَيْقَهُ عَذَّبَنِي التَّذْكَارُ بِالْوَعْدِ^(٥)
قَدْ قَصَّ مَا يَعْبُدُ مِنْ وَصَالِهِ مِقْرَاضُ بَيْنٍ مُرْهَفُ الْخَدِّ^(٦)

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما في شفاء الغليل ، ويقال للقمل والصئبان :
بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزي الخياط الذي صحفته عامة عصرنا بالترزي .

(٢) جربان القميص : جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية
« كريان » .

(٣) في جمع الجواهر : « يعتر بي في تسكة الجهد » .

(٤) في جمع الجواهر : « على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضاً « حسدتني » بدل :
« جشمتني » .

(٥) في جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) في جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يا حُجْزَةَ النَّفْسِ ويا ذَيْلَهَا مَالِي مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بُدٍّ^(١)
ويا جَرْبَانَ سُرُورِي ويا جَيْبَ حَيَاتِي حُلَّتْ عَنْ عَهْدِي^(٢)
قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك - وكان زَرَّاعًا^(٣) -
فقال :

لَقَيْنَاهُمْ فِي مَقْدَارِ جَرِيْبَيْنِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَسْقَى الرَّجُلُ
مَشَارَةً^(٤) حَتَّى قَتَلْنَاهُمْ ، فَتَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ بَابٍ ، وَكَأَنَّهُمْ أَنْبَايِرُ سُنْبُلٍ^(٥) ،
فَلَوْ طُرِحَ فِدَانٌ^(٦) مَا سَقَطَ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ رَجُلٍ^(٧) .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

زَرَعْتُ هَوَاهُ فِي كِرَابٍ مِنَ الصَّفَا وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى الْعَهْدِ^(٨)

(١) الحُجْزَةُ ، بالضم : معقد السراويل والإزار وفي الأصل والطر از المطبوع .
« يا حُجْزَةَ النَّفْسِ » ، وفي المخطوط : « يا حَايِرَةَ النَّفْسِ ويا وَيْلَهَا » ، صوابه من جمع
الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان في ص ٣٨٤ . وفي جمع الجواهر : « جيب غرامي » .

(٣) في جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) المشارة ، بفتح الميم : الدبرة ، وهي البقعة من الأرض تزرع . وفي طراز
المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنباير ، سبق تفسيرها في ص ٣٨١ .

(٦) الفدان : الذي يجمع أداة الثورين في القران للحرث ، والآلة التي
يحرث بها .

(٧) في طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفي جمع الجواهر :
« إلا على رأس رجل » وبعده في جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكوام التبن » .

(٨) في جمع الجواهر : « في جريب مثلث » .

وَسَرَجَنْتُهُ بِالْوَصْلِ لَمْ آلُ جَاهِدًا لِيُحْرَزَهُ السَّرَجِينِ مِنْ آفَةِ الصَّدِّ (١)
 فَلَمَّا تَعَالَى النَّبْتُ وَاخْضَرَ يَانِعًا جَرَى يَرْقَانُ الْبَيْنِ فِي سُنْبُلِ الْوَدِّ (٢)
 قَالَ : وَسَأَلْتُ فَرْجًا الرَّخَجِيَّ (٣) عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ — وَكَانَ خَبَارًا —
 فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ بَيْتِ التَّنُّورِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَنْخِزُ الرَّجُلُ خَمْسَةَ
 أَرْغِفَةٍ حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ حَجَرٍ تَنُّورٍ ، فَلَوْ سَقَطَتْ جَمْرَةٌ مَا وَقَعَتْ
 إِلَّا فِي جَفْنَةِ خَبَّازٍ (٤) .

وَعَمِلَ أُبَيَّاتًا فِي الْغَزْلِ فَكَانَتْ :

قَدْ عَجَنَ الْهَجْرُ دَقِيقَ الْهَوَى فِي جَفْنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ
 وَاخْتَمَرَ الْبَيْنُ فَنَارُ الْهَوَى تَذَكَّى بِسَرَجِينٍ مِنَ الْبُعْدِ (٥)
 وَأَقْبَلَ الْهَجْرُ بِمَحْرَاكِهِ يَفْحَصُ عَنْ أَرْغِفَةِ الْوَجْدِ (٦)

(١) السرجين : السماد تدبل به الأرض ، معرب .

(٢) اليرقان : دود يكون في الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً . وفي جمع
 الجواهر : « وأفرك حب الحب في سنبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أَتَتْهُ أَكْفُ الْهَجْرِ فِيهَا مَنَاجِلُ فَاسْرَعَنْ فِيهِ حِينَ أُدْرِكَ بِالْحَصْدِ
 فَيَاشُؤُمُ مَالِي إِذْ يَعْطِلُ لِلشَّقَا وَيَاوِيحُ ثَوْرِي صَارَ مَعْلَفَهُ كَبْدِي

(٣) نسبة إلى رخج ، كسكر ، وهي كورة ومدينة من نواحي كابل .

(٤) في جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقاً لما وقع إلا في خوان الخبز على
 كثرة القتلى » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفي جمع الجواهر : « تزجي بشوك الهجر
 من بعدى » .

(٦) المحراك : أداة تحرك بها النار . وفي جمع الجواهر : « وأقبل الصد
 بهجرانه » .

جَرَادِقُ المَوَعِدِ مَسْمُومَةٌ مَثْرُودَةٌ فِي قَصْعَةِ الجَهْدِ^(١)
 قَالَ : وَسَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ
 — وَكَانَ مُؤَدِّيًا — فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ الكُتَّابِ^(٢) ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَقْرَأُ الصَّبِيُّ
 إِمَامَهُ^(٣) حَتَّى أَلْجَأْنَاهُمْ إِلَى أَضِيقٍ مِنْ رَقْمٍ^(٤) فَقَتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ سَقَطَتْ دَوَاةٌ
 مَا وَقَعَتْ إِلَّا فِي حِجْرِ صَبِيٍّ .

وَعَمِلَ أَبْيَاتًا فِي الْغَزَلِ فَكَانَتْ :

قَدَامَاتُ الهَجْرَانِ صَبِيَانِ قَابِي فَفَوَادَى مَعَذَّبٍ فِي خَبَالٍ^(٥)
 كَسَرَ الْبَيْنُ لَوْحَ كِبْدِي فَمَا أَطَّعَ مَعِ مِمَّنْ هَوَيْتُهُ فِي وَصَالٍ^(٦)
 رَفَعَ الرِّقْمَ مِنْ حَيَاتِي وَقَدْ أَطَّعَ لَمَقَ مَوْلَايَ حَبْلَهُ مِنْ حَبَالِي
 مَشَقَ الْخُبِّ فِي فَوَادَى لَوْحِي نِ فَأَغْرَى جَوَانِحِي بِالسَّلَالِ^(٧)

١٣٤ ظ

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسي معرب . وفي جمع
 الجواهر : « جرادقا للوعد مسمومة » .

(٢) الصحن : الساحة وسط الدار . والكتاب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل
 الكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازا على الموضع الذي
 يتعلمون فيه . وفي اللسان : « والكتاب موضع تعليم الكتاب » . وفي جمع
 الجواهر : « في مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبي : ما يتعلمه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه .

(٤) في جمع الجواهر : « من فم الرقم » . والرقم ، بسكون القاف : الرمز
 الكتابي المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو خبال » .

(٦) في جمع الجواهر : « لوح وصلي » .

(٧) المشق : سرعة الكتابة ، ومد الحروف في الكتابة والسلا : السل .

لاقَ قلبي بنانه فمداد الـ عَيْن من هجر مالِكِي في انهمال^(١)
 كرسفُ البين سوّد الوجه من وصـ لى فقابي بالبين في إشعال^(٢)
 قال : وسألت عليّ بن الجهم بن يزيد^(٣) — وكان صاحبَ خَمام —
 عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مثل بيت الأنبار^(٤) ، فما كان إلّا بقدر ما يغسل الرجل
 رأسه حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون ، فلو طرحت ليفة ما وقعت
 إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا نُورَةَ الهجر حَلَقَتِ الصِّفا لما يدت لى ليفة الصّدّ^(٥)
 يا مَنِيزر الأسقام حتّى متى تُنقَع في حوض من الجهد
 أو قد أتونَ الوصلِ لى مرّةً منك بزنبيلٍ من الودّ^(٦)

(١) أصله من لاق الدواء : أصلح مدادها . وفي طراز المجالس : « لاق قلبي
 مداده » ، وفي جمع الجواهر : « لاق كبدي دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هوأ أو الصوف في الدواء .

(٣) في جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعنى البيت الذى تحفظ فيه الثياب . وفي اللسان : « والأنبار : بيت
 التاجر الذى ينضد فيه متاعه » . وبعده فى جمع الجواهر : « فقائلناهم بمقدار
 ما تحلق النورة ، ثم ألجأناهم إلى أضيق من الأذن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل
 وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . » .

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : الموقد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنبيل
 بكسر الزاى كقنديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فالبين مُذْ أَوْقَدَ حَمَامُهُ قَدْ هَاجَ قَلْبِي مَسَاخَ الْوَجْدِ^(١)

أَفْسَدَ خِطْمِي الصَّفَا وَالْهُوَى نُخَالَةَ النَّاقِصِ لِلْعَهْدِ^(٢)

قال : وسألت الحسن بن أبي قماش^(٣) عن مثل ذلك — وكان

كَنَسًا — فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الْإِيوَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْنُسُ الرَّجُلُ

زَبِيلًا^(٤) حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ جُحْرِ الْمَخْرَجِ ، ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ بِقَدْرِ

مَا يَشَارِطُ الرَّجُلُ عَلَى كَنْسٍ كَنِيفٍ ، فَلَوْرَمِيَتْ بَابِنَةُ وَرْدَانَةَ^(٥) مَا سَقَطَتْ

إِلَّا عَلَى فَمٍ بِالْوَعَةِ^(٦) .

وعمل أبياتاً فكانت :

أَصْبَحَ قَلْبِي بَرَبْنَجًا لِلْهُوَى تَسَاخُ فِيهِ فَقْحَةُ الْهَجْرِ^(٧)

بَنَاتُ وَرْدَانَ الْهُوَى لِلْبَلَى أَصْبَرُ مِنْ ذَا الْوَجْدِ فِي صَدْرِي^(٨)

(١) في جمع الجواهر : « هيج قلبي مشلح الوجْد » .

(٢) جمع الجواهر : « بحالهِ الناقص » .

(٣) جمع الجواهر : « الحسن بن أبي قماش » .

(٤) الزبيل : الزنبيل ، وهو القفة . وفي جمع الجواهر : « زنبيلًا » .

(٥) بنت وردان ، هي المعروفة في مصر بالخنفس . معجم المألوف ٣٦ وانظر

الحيوان ٢ : ١٥٣ و ٣ : ١٣ ، ٣٧١ و ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وابنة وردانة ،

لعلها من لغة العامة في عصره .

(٦) في جمع الجواهر : « إلا على ظهر قتيل » .

(٧) البرنج : مجرى البول . يسلح ، من السلاح بالضم ، وهو النجو . وفي جمع

الجواهر : « للهوى مخرجا » .

(٨) البيت ساقط من جمع الجواهر .

خَنَافْسُ الْهَجْرَانِ أَثْكَلْنِي يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضًا صَبْرِي^(١)
 أَسْقَمَ دِيدَانُ الْهَوَى مُهْجَتِي إِذْ سَاحَ الْبَيْنُ عَلَى عُمرَى
 قال : وسألت أحمدَ الشَّرابيَّ عن مثل ذلك فقال :

١٣٥ و

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ بَيْتِ الشَّرَابِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَصِفِي الرَّجُلُ
 دَنَا^(٢) حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ رَطَلِيَّةٍ^(٣) فَقَتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمَيْتُ تَفَاحَةً
 مَا وَقَعَتْ إِلَّا عَلَى أَنْفِ سَكْرَانٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعًا وَرَقَرْتُ خَمْرَ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ^(٤)
 فَسَالَتْ دِنَانُ الْبَيْنِ يَدْفَعُهَا الصَّبَا فَكَسَّرْنَ قَرَابَاتِ حُزْنِي عَلَى صَدْرِي^(٥)
 وَكَانَ مِزَاجُ الْكَأْسِ غُلَّةَ لَوْعَةٍ وَدُورِقَ هَجْرَانٍ وَقَنِينَتِي غَدِيرٍ
 قال : وسألت عبد الله بن طاهر^(٦) عن مثل ذلك — وكان طبَّاحًا —
 فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ الْمَطْبَخِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَشْوِي الرَّجُلَ حَمَلًا حَتَّى

(١) جمع الجواهر : « نومي فولي معرשא » .

(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما ييزل الرجل دنا » .

(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرهما : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس
 يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده في جمع الجواهر :
 « ثم سألت دماؤهم كالدردي ، فلو طرحت كأسا لما وقع إلا في كف رجل » .

(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللهو من راحة الهوى » .

(٥) القرابات : ضرب من الأواني ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده في المعاجم .

(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهري » .

تركناهم في أضيق من موقد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مغرفة ما وقعت إلا في قدر^(١) .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا شبيهة الفالوذ في حمرة الخـ دُّ ولوزينج النفوس الظَّاء
أنت جوزينجُ القلوب وفي اللَّيـ نِ كلينِ الخبيصة البيضاء^(٢)
عُدْتُ مُستَهْتِراً بِسِكباجٍ ودِّ بعد جُودَابَةٍ بِجَنبِ شِواءِ^(٣)
يا نسيمَ القدور في يوم عرسٍ وشبيهاً بِشُهدَةٍ صفراءِ^(٤)
أنت أشهى إلى القلوب من الزُّبـ دِ مع التُّرسيان بعد الغداءِ^(٥)
أطعمَ الحاسدون ألوانَ غمِّ في قِصاعِ الأحزانِ والأدواءِ^(٦)

(١) جمع الجواهر : « لقيناهم في مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملاً أو جدياً ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذجة ، حتى تركناهم في أضيق من أنافي القدر ، فلو طرحت ملعقة لما وقعت إلا على بطن قتيل » .

(٢) في جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكباج : لحم يعالج بالخل والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطبخ للبغدادى ٩ . والجوذاب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقي صفته في كتاب الطبخ ٧٠ - ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهادة بيضاء » .

(٥) الترسيان : ضرب من أجود التمر . وفي اللسان : « وأهل العراق يضربون الزبد بالترسيان مثلاً لما يستطاب » .

(٦) في جمع الجواهر : « والضراء » .

قد غلا القلبُ مذناً عنك داري غليانَ القدور عند الصَّلاء^(١)
 هام قلبي لما كسرن غضاراً تِ سروري مغارف الشَّحاء^(٢)
 فتفضلُ على العميدِ بيومٍ جُد بوصلٍ يُكَبِّتُ به أعدائي^(٣)
 وتفضلُ على الكئيبِ بيزماً وردٍ وصلٍ يَشْفِي من الأدواء^(٤)
 قال : وسألتُ — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسيَّ عن مثل
 ذلك — وكان فرّاشاً — فقال :

١٣٥ ظ

لقيمناهم في مقدار صحن بساط^(٥) ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل
 بيتاً^(٦) حتى تركناهم في أضيق من منصة فقتلناهم ، فلو سقطت نخدة ما وقعت
 إلا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

كسَحَ الهجرُ ساحةَ الوصلِ لما غبَّ البينُ في وجوه الصِّفاء^(٧)
 وجَرى البينُ في مرافق ريشٍ هي مذخورةٌ ليوم اللِّقاء^(٨)

(١) في الأصل وطرّاز المجالس : « السلاء » ، صوابه في جمع الجواهر .

(٢) الغضارات : الصعاف المتخذة من الغضار ، وهو الطين الحر .

(٣) العميد والمعمود : الذي عمده الحب ، أي أوجعه وأضناه .

(٤) البزماورد : ضرب من الخبز يحشى بشواء بدقوق مضاف إليه الخل والأفاويه .

وانظر بقية صفته في كتاب الطيخ ٥٩ .

(٥) جمع الجواهر : « في مثل تربع الفسطاط » .

(٦) بعده في جمع الجواهر : « أو بيتين » .

(٧) الكسح : الكنس . وفي الأصل والطرّاز : « كسر » تحريف . وفي

جمع الجواهر : « كنس » ، وهي بمعنى كسح .

(٨) المرافق : جمع مرفقة ، وهي النخدة .

فرشَ الهجر في بيوتِ همومٍ تحت رأسي وسادةَ البرحاء^(١)
 حينَ هيأت بيتَ خيشٍ من الوص لي لأبوابه ستور البهاء^(٢)
 فرشَ البحرُ لي بيوتَ مُسوح مُتكاها مطارح الحصباء^(٣)
 رِقَّ للصبِّ من براغيثٍ وجدٍ تعترى جلده صباح مساء^(٤)
 قال : فضحك المعتصم حتى استلقى ، ثم دعا مؤدّب ولده فأمره أن يأخذهم
 بتعليم جميع العلوم .

* * *

تم كتاب الجاحظ ولله المنّة ، وييده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب .
 والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .
 بعده زيادات ليست للجاحظ^(٥)

- (١) في الأصل ومخطوط الطراز : « لي بيوت » ، صوابه في مطبوع طراز
 المجالس . والبرحاء : الشدة ، والمشقة . وفي جمع الجواهر :
 فلقد بث في فراش همومي تحت خدي وسائداً لضائتي
- (٢) الخيش : ثياب رفاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقة الكتان .
- (٣) المتكأ : ما يتوكأ عليه لـطعام أو شراب أو حديث . وفي الأصل وطراز
 المجالس : « متكآتها من الحصباء » ، صوابه في جمع الجواهر . والمطارح : جمع
 مطرح ، بالكسر ، وهو المفرش ، كما في المعجم الوسيط .
- (٤) في جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تحالسنه » . وبعد هذا البيت في
 جمع الجواهر بدلا من الكلام التالي هنا : « يأمر المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما
 يتصور الجنان ، ويظهر في الكلام ما يختر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً
 واحداً لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثر خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب
 هزل أنقع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع هم النفوس
 عليه . والسلام » . ثم قال الحصري معقباً على هذه الرسالة :
- « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر
 سراً قاله » .
- (٥) وهي في مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

فهرس الكتب والرسائل

ص	
١	مناقب الترك
٨٧	المعاش والمعاد
١٣٥	كتمان السر وحفظ اللسان
١٧٣	نحر السودان على البيضان
٢٢٧	في الجد والهزل
٢٧٩	في نفى التشبيه
٣٠٩	كتاب الفتيا
٣٢١	إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب
٣٣٢	فصل ما بين العداوة والحسد
٣٧٥	في صناعات القواد
